سلسلة

تاريخ شبه الجزيرة العربية

وأديانها قبل الإسلام

مفهوم الله وأنداده

عند العرب قبل الإسلام



فريق من الباحثين

ترجمه عن الإنكليزية:

هشام شامية



مَفْهُومُ اللهِ وَأنْدَادُهِ عِنْدَ العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلَامِ

المركز الأكاديمي للأبحاث

مَفْهُومُ اللهِ وَأَنْدَادُه
عِنْدَ العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلَامِ

The concept of God and his rivals

فريق من الباحثين

ترجمه عن الإنكليزية: هشام شاميه

التقويم اللغوي: محمد وليد فليون

تصميم الكتاب وغلافه

علي الحسناوي

الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث

العراق - تورنتو - كندا

The Academic Center for Research

TORONTO - CANADA

موثق بدار الكتب والوثائق الكندية

Library and Archives Canada

ISBN 9781927946824

http://www.acadcr.com

Email: info@acadcr.com

nasseralkab@gmail.com

بيروت - الطبعة الأولى 2020

توزيع : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
بيروت - لبنان 7611-2047

الجناح - شارع زاهية سلمان - مبنى مجموعة
تحسين الخياط

Fax: +961-1-830609

Tel: +961-1-830608

tradebooks@all-prints.com

Website: www.all-prints.com

لمحة عن الكُتّاب والمؤلّفين

فريدريك فيكتور وانيت:

عالمٌ كنديٌّ في اللّغة (١٩٠٣ - ١٩٨٩)، وباحثٌ في الكتاب المقدّس والآثار، ولد في قرية أويل سبرينغس (أونتاريو)، ودرس في جامعة تورونتو. ورُسم للكنيسة المشيخيّة في عام ١٩٢٧، وبعد عام من أطروحته للدكتوراه والّتي نشرت في عام ١٩٢٩، مكنته زمالة ما بعد الدكتوراه في كلّيّة هارتفورد اللّاهوتيّة من مواصلة الدّراسات المتقدّمة في اللّغة العربيّة، والأكاديّة، والعبريّة. وتمّ تعيينه في العام نفسه محاضراً في اللّغات السّاميّة في جامعة تورونتو.

نُشرت دراستهُ المنهجيّة والثاقبة لمئات النّقوش من النصوص السّابقة لظهور الإسلام، وهي دراسة محوريّة للنّقوش اللحيانيّة والثموديّة في عام ١٩٣٧. وبعد الحرب العالميّة الثانيّة، كتب وانيت سلسلة من المقالاتِ عن النّقوش الحميريّة لنشرة المدارس الأمريكيّة للبحوث الشرقيّة.

واصل وانيت الحفريّات الّتي بدأها جيمس لـ. كيلسو، وساعد جيمس بـ. بريتشارد في عام ١٩٥٧ في توضيح الأجزاء السفليّة من نظام المياه الدائري في قرية الجيب (جبعون التّوراتيّة(. كما قام وانيت بحملتين مع جيرالد لانكيستر هاردينغ، مدير إدارة الآثار في الأردنّ، إلى شمال وجنوب الأردنّ بحثاً عن النّقوش. وأسفر بحثهما عن نقوشٍ صفائيّة من الأردنّ (١٩٥٧)، و"مجموعة من النّقوش العربيّة" (١٩٧١).

كان مديراً للمدرسة الأمريكيّة في القدس (١٩٥٠ - ١٩٥١)، ورئيساً لقسم اللّغات الشّرقيّة في جامعة تورونتو (١٩٥٢ - ١٩٦٩)، وشَغل وانيت منصِب نائب المدير في كلّيّة الجامعة من عام ١٩٦٦ حتى تقاعده في

عام ١٩٦٩. ومن منشوراته الأخيرة "دراسات في شمال الجزيرة العربيّة" (١٩٨٧).

ريتشارد براون:

مستشارٌ في التّرجمة وحاصل على البكالوريوس في الفيزياء، جامعة ديوك عام ١٩٧١، وحصل على درجة الدّكتوراه في اللّسانيّات من جامعة نورث كارولينا في تشابل هيل عام ١٩٨١، ودكتوراه في تفسير الكتاب المقدّس كليّة اللّاهوت لندن عام ٢٠١١.

له اهتماماتٌ بحثيّةٌ في التّأويل والمفهومات والمصطلحات التّوراتيّة الرّئيسة في الكتاب المقدّس، و نظريّة التّرجمة والدّلالات الإدراكيّة.

ديفيد كيلتز:

مهتمٌّ بعلم اللّغة المقارن، واللّغات الشّرقيّة (السّريانيّة والعبريّة واليونانيّة) عمل في حقل ارتباط الكلمات من حيث الاستعارةُ بين اللّغات بشكلٍ مركّز في الشّرق الأوسط و أوروبّا.

وفي المدّة الأخيرة عمل في تاريخ العصور الشّرقيّة القديمة الوسطى والعصور القديمة المتأخّرة، ولاسيّما فيما يتعلّق بالقرآن، وهو مهتمٌّ في استمراريّة المفهومات الثّقافيّة والاجتماعيّة والدّينيّة وتحوّلاتها؛ وكان هذا محوراً رئيساً لبحثه، وحاول تتبّع التّطوّرات الثّقافيّة والتّفاعلات حول علم الدّلالة في الثّقافة العربيّة، التي تمرّ بمرحلةٍ انتقاليّةٍ.

باتريشيا كرون:

أمريكيّةٌ دنماركيّةٌ باحثةٌ ومؤرّخةٌ للتّاريخ الإسلاميّ المبكر (١٩٤٥ - ١١ تمّوز ٢٠١٥). بحثت في القرآن ككِتاب مُقدّس بنظرةٍ تاريخيّةٍ، كما هي الحال

عام ١٩٦٩. ومن منشوراته الأخيرة "دراسات في شمال الجزيرة العربية" (١٩٨٧).

ريتشارد براون:

مستشارٌ في التّرجمة وحاصل على البكالوريوس في الفيزياء، جامعة ديوك عام ١٩٧١، وحصل على درجة الدّكتوراه في اللّسانيّات من جامعة نورث كارولينا في تشابل هيل عام ١٩٨١، ودكتوراه في تفسير الكتاب المقدّس، كليّة اللّاهوت لندن عام ٢٠١١.

له اهتماماتٌ بحثيّةٌ في التّأويل والمفهومات والمصطلحات التّوراتيّة الرّئيسة في الكتاب المقدّس، و نظريّة التّرجمة والدّلالات الإدراكيّة.

ديفيد كيلتز:

مهتمٌّ بعلم اللّغة المقارن، واللّغات الشّرقيّة (السّريانيّة والعبريّة واليونانيّة) عمل في حقل ارتباط الكلمات من حيث الاستعارةُ بين اللّغات بشكلٍ مركّزٍ في الشّرق الأوسط و أوروبّا.

وفي المدّة الأخيرة عمل في تاريخ العصور الشّرقيّة القديمة الوسطى، والعصور القديمة المتأخّرة، ولاسيّما فيما يتعلّق بالقرآن، وهو مهتمٌّ في استمراريّة المفهومات الثّقافيّة والاجتماعيّة والدّينيّة وتحوّلاتها؛ وكان هذا محوراً رئيساً لبحثه، وحاول تتبّع التّطوّرات الثّقافيّة والتّفاعلات حول علم الدّلالة في الثّقافة العربيّة، التي تمرّ بمرحلةٍ انتقاليّةٍ.

باتريشيا كرون:

أمريكيّةٌ دنماركيّةٌ باحثةٌ ومؤرّخةٌ للتّاريخ الإسلاميّ المبكر (١٩٤٥ - ١١ تمّوز ٢٠١٥). بحثت في القرآن ككِتاب مُقدّس بنظرةٍ تاريخيّةٍ، كما هي الحال

بالنّسبة لتاريخ الكتاب المقدّس، وفي عام ١٩٧٧ أصبحت محاضرةً جامعيّةً في التّاريخ الإسلاميّ بجامعة أكسفورد، ثمّ أستاذةً مساعدةً، وشَغَلَت مناصب عدّةً في كليّة كيوس في جامعة كامبريدج في عام ١٩٩٠، وفي عام ١٩٩٧ تمّ تعيينُها في معهد الدّراسات المتقدّمة في برينستون، وعمِلت ضمن المدّة من عام ١٩٩٧ حتى تقاعدها في عام ٢٠١٤، وحازَت على لقب بروفيسور ميلون، من عام ٢٠٠٢ حتّى وفاتِها في تمّوز عام ٢٠١٥.

ألّفت كتاب تجارة مكّة وظهور الإسلام عام ١٩٨٧، وكتاب الهاجريّون: دراسة في المرحلة التكوينيّة للإسلام عام ١٩٧٧.

د. كيث ميسي:

حاصلٌ على درجة ليسانس في الآداب بتفوّق في الكلاسيكيّات من جامعة ويسكونسن ماديسون في عام ١٩٨٧، وأكمل ماجستير الآداب في العهد القديم في المدرسة اللّوثريّة عام ١٩٩٠، وماجستير الآداب في الدّراسات العبريّة والسّاميّة من جامعة ويسكونسن ماديسون في عام ١٩٩٢ ودرجة الدّكتوراه في المجال ذاته، مع تخصّصٍ فرعيٍّ باللّغة العربيّة في عام ١٩٩٨.

يعلّم الآن اللّاتينيّة والعربيّة في نيو جيرسي؛ له مجموعةٌ متنوّعةٌ من الموضوعات اللّغويّة، وهو مؤلّفُ مجموعة تعلّم اللّغة العربيّة للمرحلة المتوسّطة والمشّهورة تحت عنوان (Intermediate Arabic for Dummies)، فضلاً عن عددٍ من الموادّ الأكاديميّة الأخرى.

كيفين ميسي:

حاصلٌ على درجة ليسانس في الآداب بتفوّق في اللّغويات من جامعة ويسكونسن في عام ١٩٨٧، وأكمل الماجستير في اللّاهوت في المدرسة اللّوثريّة في سانت بول مينيسوتا لعام ١٩٩٣، رُسم قسّاً للكنيسة الإنجيليّة

اللّوثريّة في أمريكا، فضلاً عن شهادة البورد مع جمعيّة القساوسة، عمل كيفين ميسي في مجال التّدريب في الرّعاية الرّوحيّة من خلال الرّعاية الصّحيّة في شيكاغو ١٩٩٩ - ٢٠٠٥. وقد عمل على نطاقٍ واسع في مجال الكوارث وإدارة الرّعاية الرّوحيّة والتّدريب مع الصّليب الأحمر الأمريكيّ.

وهو لغويٌّ بارعٌ، ملمٌّ بلغاتٍ عدّةٍ، درس وعمل في منطقة الشّرق الأوسط.

كتب العديد من المقالات والمناهج والفصول، عن موضوعاتٍ متنوّعةٍ مثل الرعاية الرّوحيّة، والأخلاقيّات الطّبيّة، والاستجابة للكوارث، واللّغويّات، وعلم الآثار، والحوار بين الأديان.

المترجم: هشام شاميّة

وُلِد في مدينة دمشق عام ١٩٨٥، درسَ في مدارسها والتحقَ بجامعة دمشق قسم التّرجمة في اللُّغة العربيَّة والإنكليزيَّة، عملَ في مجال ترجمة البحوث والمقالات الدّينيَّة والاجتماعيَّة منذ عام ٢٠٠٥، فضلاً إلى الدّراسات اللاهوتيَّة في منطقة الشَّرق الأوسط؛ وترجمَ طائفةً من الكتب منها:

- الكنيسةُ في ظلّ المسجِد
- المشركون والمسيحيّون اليهود في القرآن
- مكّة قبلَ الإسلام

مقدمة المركز الأكاديمي للأبحاث

أقدم المركز الأكاديمي للأبحاث على فتح سلسلة تخصصية في موضوع (تاريخ شبه الجزيرة العربية وأديانها قبل الإسلام) اعتقاداً منه بالأهمية العلمية والأكاديمية في رفد هذا الحقل التأسيسي في الدراسات الإسلامية وما قبلها وقد تكون من بين الأسباب التي دعت إلى هذا الأمر هو تقادم الكثير من معطيات ونتائج ومعلومات الأعمال الصادرة باللغة العربية في هذا المجال ومنها على سبيل المثال العمل الموسوعي الذي أنجزه الدكتور جواد علي في كتابه المعروف بـ (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) عشرة أجزاء، والذي أتمه قبل نصف قرن تقريباً.

وتقدمت من ذلك الحين الدراسات الغربية تقدماً كثيراً وتجاوزت على مستوى المنهج والمعلومة المؤلف عربياً في هذا الحقل، ومنذ أكثر من خمسين عاماً أيضاً، انفتحت دراسات تاريخ العرب قبل الإسلام على المكتشفات المادية الجديدة (النقوش والكتابات) المكتشفة في شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها، والتي صدرت على هيئة مجلدات متلاحقة ما تزال تصدر على هيئة مؤتمر دولي ينعقد سنوياً لهذا الغرض، وهي تقدم مادة جديدة لم توظف سابقاً في الدراسات العربية في تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، إذ جاءت الكثير من معطياتها مخالفة ومتعارضة لما هو راسخ عربياً، إذ تنازلت تلك الدراسات على الكثير من النتائج والمسلمات السابقة وأقرت أخرى قد تناقضها وتغيّر مسارها.

ضمن هذه التطورات المتلاحقة اهتم المركز في إطلاق سلسلة تسعى إلى استيعاب هذه المنجزات ونقلها إلى الثقافة العربية.

ويعد الكتاب الحالي (مفهوم الله وأنداده عند العرب قبل الإسلام)، من بين الأعمال التدشينية لهذه السلسلة بعد كتاب (مكة قبل الإسلام)، وهو يعالج إحدى القضايا المركزية في مجمل الأديان الإبراهيمية، فمهفوم الله ودلالاته عند المجتمعات العربية قبل الإسلام تنوّعت جغرافياً واجتماعياً وسياسياً، وتناوبت لذلك الكتب الإبراهيمية المقدسة في إيراد هذا المفهوم ولفظته بأشكال مختلفة وأعداد متفاوتة، فمثلاً جاء عدد مرات ذكر مفردة (الله) في الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) (2240)، أما في القرآن فإن العدد جاء أكثر من ذلك، فقد أحصيت لفظة الله ومرادفاتها بالعدد (2699)، بمعدل تقريبي، فإن عدد ورود كلمة الله تكاد تكون أربع مرات في كل صفحة من صفحات الكتاب المقدس والقرآن، وهذا الإحصاء الأولي يدّل على المركزية الشديدة التي نالها هذا اللفظ ومفهومه، ويبدو إن الأهم في هذا التأكيد بحضور مفردة الله في كل صفحة من صفحات الكتب الإبراهيمية المقدسة، على ما يبدو جاء ردة فعل قوية إزاء تعدد الآلهة المنافسة بالإله الإبراهيمي (الله).

يحاول الكتاب الحالي أن يخوض في هذه الإشكالية قبيّل الإسلام وكيف تم تصويره في الكتابات العربية القديمة وفي الكتب السريانية والآرامية ولغات العربية الجنوبية.

الدكتور نصير الكعبي

مقدمة المترجم

يتضمّن هذا الكتاب أعمال مجموعةٍ من الباحثين المختصّين لتوجيه الضّوء نحو مفهوم الله في المنطقة العربيّة قبل الإسلام و الآلهة الأدنى، أو ما يُسمّى «الشّفعاء والوسطاء» بين البشر وبين الله، وذلك بناءً على الأدلّة التّاريخيّة الباقية من النّقوش والمخطوطات، وبعضٍ من الأدلّة القرآنيّة؛ وفي طياته فصلان يبدأ الأوّل ببحثٍ لعالم الآثار الكنديّ فريدريك فيكتور وانيت والمعنونُ «الله قبل الإسلام»، يذكر فيه النّداءات الموجّهة إلى الله، ويفسّر ماوصلت إليه البحوث في أسماء الله بناء على مجموعة من النّقوش الثّموديّة واللّحيانيّة والصّفائيّة؛ وثمّ ينتقل إلى مقالة لريتشارد براون «من كان «الله» قبل الإسلام؟» المتضمنة لبعضٍ من الأدلة على تأكيد الأصل اليهوديّ والمسيحيّ لمصطلح «الله» بين العرب، والّذي حاول من خلالها أن يوضّح استخدام اللّغة العربيّة كما في نظيرتها الآراميّة للطّريقة ذاتها في لفظ هذا المصطلح، وتضمُّنه لحرف عِلَّة خلفيٍّ منخفضٍ ومضاعفةٍ لحرف اللّام؛ وفيه يقدّم بروان هذا المصطلح على أنه ليس تقلّصاً أو انكماشاً لكلمة «الإله» وأنّه لم يُستخدم باعتباره اسماً لإلهٍ وثنيٍّ في المنطقة العربيّة!. ولقد حاول بعضٌ من الباحثين كما الألمانيّ «ديفيد كيلتز» والمهتمّ باللّغات الشّرقيّة القديمة مثلِ السّريانيّة والآراميّة والعبريّة... إظهار العلاقة بين «الله» في العربيّة و»اللّاها» في السّريانيّة، النّاتجة عن القواعد النّحويّة في تلك اللّغات، وانتشار الاستعارة والاقتراض فيما بينها؛ حيث استمدّ «كيلتز» بعضاً من معلوماته من خلال التّشابه الواضح في اللّسانيّات والتّعديل المورفولوجيّ أو الصّرفيّ للكلمات.

وثمّ يشرح ويفسّر كتابنا هذا بفصله الثّاني للقارئ ماهيّة (الآلهة الأدنى/ أبناء وبنات) أنداد الله عند العرب قبل الإسلام، مقدماً دراسة للباحثة ذائعة الصيت «باتريشيا كرون» الّتي لحظت تسمية الكائنات الأدنى بـ «الملائكة»، وتقارباً في الفكر التّوحيديّ بين الوثنيّين والمشركين، وذلك في بحثها المسمّى

«ديانة المشركين في القرآن: الله والآلهة الأدنى». حيث وجدت أنّ الخلاف بين الرّسول وخصومه الوثنيّين لا يتعلّق فقط بالأصنام، بل يشتمل على تعريفهم للشّفعاء والوسطاء من الملائكة أو الآلهة الأدنى!.

وفي رؤية لبنات الله يقدّم الأخَوَان «ميسي» قضيّة اللّات والعُزّى ومناة، وهو ما ورد في القرآن في سورة النّجم، وذلك بتسمية النّاس للملائكة بأسماءٍ إناثٍ، حيثُ أكّدوا أنّ الرّسول يرى أنّ الملائكة ليس لها قوّة مستقلّة للشّفاعة، وجاء هذا كلّه نتيجةً للسّجالات الّتي دارت حول «هويّة بنات الله»، تلك الهويّة المدمجة مع الكوثرات في النّصوص الميثولوجيّة كما في قصّة «دَانِيآل» في الاستجابة لطلبه؛ وتُمثّل الكوثراتُ فلكيّاً ضمن أوغاريت بثلاث نجماتٍ في كنف الدّبّ الأكبر كما في نشيد نيكال و إب.

كانت هذه الآلهة الأدنى تُعرف بـ (بنات السّرير الإلهيّ) وتُدعى في العربيّة (بنات نعْش) وترتبط مع بنات أورسا كما في السّريانيّة، لكنّ الكنديّ «فريدريك وانيت» وهو الخبير في النّقوش اللّحيانيّة والثّموديّة، نظر إلى هذه الآلهة نظرةً تَشَعُّبِيَّةً مع ارتباطها بآلهة القمر والشّمس نتيجةً لعلاقة إله الهلال بنجم فينوس، وحاول «وانيت» أن يبيّن للباحثين المهتمّين بهذه الآلهة بعضاً من المعلومات المهمّة الموجودة في النّقوش الصّفويّة واللّحيانيّة والثّموديّة حَوْل النّداءات الموجّهة إلى الله، وتفرّده في المنطقة العربيّة بسماتٍ لا تنطبق مع أيٍّ من الآلهة الأدنى.

وسيجدُ القارِئُ أيضاً [تعليقاتٍ للمُترجم] بعدَ إشارة (*) في الجزء المُخصَّص للحواشي، أُدرِجَت لِتفسِّرَ بعضَ المُصطلَحات، فضلاً عن الاستعانةِ بآياتِ القرآن والإنجيل تلافياً للاقتباسِ الجزئيّ إنْ وُجِدَ في النص الأصل، كي تعمَّ الفائدةُ معَ رؤية أعمقَ في النّصّ المُتَرجَم لدى القارئ.

هشام شاميّة

الفصل الأوّل

الله قبل الإسلام

الله قبل الإسلام

فريدريك فيكتور وانيت

مقدّمة

مضت سنواتٌ عدّةٌ حتّى الآن ولا يزال البروفسور "هوبير غريم" في مونستر، يسعى لإيقاظ المستشرقين إلى الأهمّيّة الكامنة في الكمّ الهائل من الموادّ الكاذبة، والمهمَلة في نقوش المنطقة العربيّة الشماليّة! حيث هناك نحو أربعة آلافٍ من النّقوش الدّيدانيّة واللّحيانيّة، وألف وسبعمئةٍ من النّقوش الثموديّة، وما يزيد على ستة آلافٍ من الصّفائيّة، وقد أصرّ على أنّ لدينا مجموعةً كبيرةً من المعلومات ذات الأهمّيّة الكبرى لفهم الظّروف الدّينيّة في شمال المنطقة العربيّة قبل ظهور الإسلام.

لكنّ نداءات غريم، ذهبت أدراج الرّياح تقريباً، ولكنّه تقدم إلى الأمام وحيداً غير متهيّب، وحاول شقّ طريقٍ ضمن هذه المنطقة الّتي لم تُستكشف تقريباً. وقد جُمعت نتائجُ أبحاثه في ثلاثة بحوثٍ رئيسةٍ هي: نصوصٌ وبحوثٌ في الديانة الصّفائيّة - العربيّة (بادربورن، 1929)، "النّقوش الدّينيّة الثّموديّة" (لوموند الشّرقيّة، XXVIII، 1934، ص.72-98)، "تنقيح النّقوش اللّحيانيّة والدّيدانيّة الأكثر أهمّيّةً" (Muséon، L، 1937، ص. 269-322).

لم يتمّ الحكم على آخر هذه البحوث، لكنّ عمل غريم السّابق، الممتلئ بالاقتراحات الرّائعة، لا يحتوي بمجموعه على القناعة؛ حيث يتطلّب ذلك

من الباحثين إعادةَ بناء تصوّرهم عن المصادر الأدبيّة لشمال المنطقة العربيّة قبل الإسلام، مِثل الشّعر المبكر في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهانيّ، وكتاب الأصنام لابن الكلبيّ، بدلاً من الدّخول وحدهم في مجال علم النّقائش بمظهره القاحِل! حيث لا يمكن الاعتماد عليها بقدر ما يمكن لعمل "غريم" أن يفعل، فإنّه يستحقّ كلمة ثناءٍ حارٍّ لمثابرته وحيويّته في النّضال مع مشكلةٍ تُعدّ الأصعبَ في هذا المجال، ولفت الانتباه إلى حقل التّحقيقات المهمَلة لمدةٍ طويلةٍ من المستعرِبين.

وصحيحٌ أنّ مادّة النّقوش الّتي في حوزتنا، لا تبدو واعدةً جدّاً للوهلة الأولى، ويبدو أنّها تتألّف في معظمها من أسماء الأعلام. وعلى الرّغم من أنّ هذا الانطباع الأوّل ينطوي على الحقيقة كلّها، ونحن لا نزال غير قادرين على تجاهل ذلك... لكنّ لدى هذه الأسماء قصةً تُروى، ولاسيّما في المجتمعات السّاميّة، كما أظهر روبرتسون سميث، وليتمان، وآخرون.

لحسن الحظّ، فإنّ هذا الانطباع الأوّل هو صحيحٌ جزئيّاً فقط. وذلك لأنّ إلقاء نظرةٍ فاحصةٍ على النّقوش يكشف عن حقيقةٍ مفادها أنّ العديد منها يتضمّن بالتّأكيد طابَعاً دينيّاً، وإذا تُرجمت بشكلٍ صحيحٍ، فقد تسلّط ضوءاً غير متوَقَّعٍ على الدِّين العربيّ القديم! حيث أنّ الإيجاز في هذه النّقوش يسبّب بعضاً من الخداع. ولكن حتّى الإيجاز فيمكن المبالغة فيه، ذلك أنّ هناك في المجموعة اللّحيانيّة عشرين من النّصوص الّتي يتراوح طولها من خمسةٍ وحتّى اثنا عشر خطّاً، ولم يحدث أن تمّ فكّ رموز واحدةٍ منها على وجه اليقين!

كرّس هذا الكاتب على مدى السّنوات الثلاث الماضية قدراً كبيراً من الوقت لدراسة النّقوش العربيّة الشّماليّة، وتمّ نشر القليل منها في العام

الماضي في بحثٍ أحاديٍّ[1] عن النّصوص اللّحيانيّة والثّموديّة، وأشار فيها إلى أنّ ما يُسمّى (النّصوص اللّحيانيّة) قد تمّت كتابتها في ثلاث مخطوطاتٍ مختلفةٍ، وما يُسمّى (النّصوص الثّموديّة) في خمسةٍ.

غير إنّه لا يمكن إدراج النّصوص الثّموديّة كلّها في هذه المخطوطات الخمس، حيث يتمّ عزل أمثلةٍ من النّصوص الواضحة الّتي تتميّز بها مناطق لم تُستكشف بعد! في حين أنّني نجحت ـ على ما أعتقد ـ في تحديد الخطوط العريضة للحروف الهجائيّة لهذه النّصوص، ولا يزال هناك بعضٌ من الثّغرات والنّقاط المشكوكِ فيها، ويمكن أن تُفسّر من خلال المزيد من الأبحاث.

ومع ذلك، فإنّ تصنيفي لهذه النّقوش، يجعلنا في وضعٍ أفضلَ بكثيرٍ ممّا مضى لتعقّب التّطوّر الدّينيّ في شمال المنطقة العربيّة قبل الإسلام. وقد حاولت باستخدام هذا التّصنيف اكتشاف ما ترمي إليه هذه النّقوش حول عبادة الله قبل الإسلام، ومرفِقاً أيضاً تقديم نتائجَ لبحثي أنّ الأدلّة من نوعين: أدعيةٌ موجّهةٌ إلى الله، و أسماء الله.

أدعيةٌ موجّهةٌ إلى الله:

نظراً لضيق المساحة، فسوف أقدّم النّصوص ذاتَ الصّلة مع التّعليق بالحدّ الأدنى، والنّقل الحرفيّ أو "النقحرة" هو لصالح أولئك الذين ليس لديهم إذن الحصول على النّسخ الأصليّة،[2] وعلى أمل أن يتمكّن بعضهم

(1) بحث عن النقوش اللّحيانيّة والثّموديّة، (درّاسات جامعة تورونتو، السلسلة الشّرقيّة. رقم 3، 1937).

(2) بالنّسبة للّحيانيّة، راجع جوسن وسافيناك (JS)، البعثة الأثريّة في المنطقة العربيّة 1-11 (1909-1914)؛ وبالنّسبة للثموديّة. انظر العمل نفسه وهوبر(Hu)، "يوميّات رحلة إلى الجزيرة العربيّة"، 1883-1884؛ وبالنّسبة للصّفائيّة انظر دوساند وماكلر(DM)، Misson dans les regions desertioues de la

الآخر من العمل على تحسين ترجماتي.

النّقل الحرفيّ

اللّحيانيّة المبكرة:

JS 8

'-b-d-m-n-t '-ṣ-d-q
f-r-ḍ-h h-l-h w-s-'-d-h

اللّحيانيّة المتأخّرة:

JS 61

b-q h-d-b b-
l-ḥ dh-gh-b-
t '-d-q l-l-
h h-ṣ-l-m-n
f-r-ḍ-y-h w-
s-'-d-h

JS 260

j-h-f-y
h-l-h b-r̠ m-dh-m-h

الثّموديّة «ب»:

JS 277 *h-kh-l-h d-h-w-n n-m j-'-n-n*
JS 285 *f-'-l-y '-b-t-r l-m-l-n-b-ṣ-ṣ-k-n.* Cp. Hu. 473 (3).
JS 287 *h-'-l-h d-'-n '-t-m th-'-t '-t-m-n kh-l?-d-s.* Cp. Hu. 473 (5).
JS 305 *h-'-l-h '-b-t-r b-k h-s-r-r*
JS 409 *h-'-l-h d-h-w-n '-t-m y-s-r '-m '-h-l dh-'-t-' y-'-m-n.*

---

syrie moyennes ؛ وليتمان، "نقوش ساميّة".

Hu. 99, 27	*h-'-l-h th-m-d-m-r-l-l-k?-j-'*
Hu. 299, 72b	*b-'-l-h '-b-t-r kh-l-ṣ-t w-h-ḍ-b.* Cp. Eut. 598.
Hu. 475	*h-'-l-y '-b-t-r b-s s-f-l-n*
Hu. 643	*h-'-l-h '-b-t-r '-l-m '-n-m n-m kh-l-ṣ-t.*
Hu. 644, 10	*h-'-l-h s?-'-l n-q-m n-m '-m-y-t*

الصّفائيّة:

DM 239	*l-s-n-y b-n s-n-y b-n m-ḥ-l-l w-w-j-d '-th-r d-d-h f-n-j-' k-b-r f-h-l-h s-l-m*
	l-dh-w-'-r w-gh-y-r-t w-w-j-m '-l m-ḥ-l-m w-'-l ẓ-n-n w-'-l h-m-s-k.
DM 242	*l-'-n-'-m b-n b-'-d b-n '-d-'-j-t w-h-l-h s-l-m w-r-ḍ-y '-w-r dh-y-'-w-r h-s-f-r.*
DM 539a	*l-q-n-'-l b-n q-ḥ-sh b-n q-n-'-l w-kh-r-ṣ h-m-ḥ-l f-h-l-h kh-l-ṣ.*
L 128	*l-m-ḥ-l-m b-n w-h-l w-?-?-r-h-f-'-r-n h-l-(h) s-l-m.*

(Vog.234) "للأسف" لم أكن قادراً على البحث في نسخة دي. فوغي في عمله «Syrie centrale"، باريس 1868/ 1877. انظر للحصول على قراءة هيفلي، المجلّة الآسيويّة،1881، ص.181.

وقرأ اسم الله في JS 450، لكنّني الآن مقتنعٌ بأنّ هذا النّصّ يجب أن يُترجَم على الشّكل الآتي:

(نعمئيل بن حفرز سيّد القبيلة «دهئيل» حفرز).

وقد تمّت الإشارة لهذه القبيلة في «DM 546». وبالمناسبة «JS 450"

تبيّن لنا لافتةٌ مجهولة الهويّة حتّى الآن ما كانت عليه علامة (l-‘-hd) في "الثّموديّة أ"، وتوجد إشارة أخرى إلى الله، يُقال: إنّها وُجدت في نقشٍ مسيحيٍّ عربيٍّ مسنَدَةً إلى القرن السّادس، ونشرها ليتمان في "Zeitschrift für Semitistik und verwandte Gebiete، VII» (1929)، ص. 197-204. وقراءة ديرنبوغ عن الله في نقش مملكة مَعين (مجلة آسيا، 1892، ص. 157-166) والّتي كانت بلا أساسٍ. حيث يشير ʾ-l-h-n إلى اسم منطقةٍ في اليمن؛ ويؤكّد ريكمانز ذلك في عمله: الأسماء الصّحيحة في السّاميّة الجنوبيّة "Les Noms propres sud-Sémitique» الأول. 2، الثاني. 28، ومن الواضح أنّه يقدّم فهرساً كاملاً لحالات ظهور اسم "الله" أو"الإله" في النّقوش، ولكنّ قائمته تغفل عن الآتي: JS 260 Iih، JS 260، وJS 277، 285، و Hu. 99، 27؛ b72،299 ؛ 475؛ والنقش الثموديّ643؛ في حين تمّ إضافة الآتي إلى قائمتي: JS 40 Iih. وJS 20، 180، 294، 637، EUT. 40؛ 226، 2؛ Hu. 4،87؛ 89، 13؛ 281، 15؛ 501، 27؛ 642، 4؛ إن هذه الإضافات كلّها حسب رأيي هي خاطئةٌ!.

النقل الحرفيّ

اللّحيانيّة المُبْكِرة:

JS 8:" عبد مناة الصّادق، امنحه يا الله العمر الطّويل والحظّ السّعيد"

اللّحيانيّة المتأخّرة:

JS 61: " ذو غيبةٍ قدّم القربان للإله والصور، لتمنحه الحياة الطّويلة والحظّ السّعيد".

JS 260: يا لله، أرشدني ... من خلال J-‘-n-n.

الثّموديّة ب:

JS277 : «يالله أرشدني».

وبالنّسبة للاسم (J-'-n-n) راجع ريكمانز، في "الأسماء الصّحيحة في السّاميّة الجنوبيّة"، الأول.273.

أمّا الإشارة الثّانية للنّقش فهي "kha"، ومن الأفضل أن تُقرأ على أنّها ألفٌ، حيث فسّر جوسن وسافنياك الكلمة "d-h-w-n" على أنّها مشتقّةٌ من "duhan" ، III، وتُقدّم بمعنى "متسامح"، وذلك بالنّظر إلى سياق الحديث، كما تأتي الكلمة في "JS 317-Hu. 47 ". وأودّ أن أقترح أنّه شكلٌ جدليٌّ لكلمة "هدى" بمعنى ليرشد، حيث نقرأ في JS 317:

h-'-t-r-s-m f-h-w-d d-h-w-n w-n-ṣ-r-n m-kh-sh-w-r

ويمكن ترجمتها على النّحو الآتي:

«يا اتارسام اهدني واحفظني من الضّياع».

يحتوي هذا النّقش (JS 285) على تفسيرٍ غير مؤكّدٍ، وبالنّظر إلى الكلمة الثّانية من المقطع، سوف يتبيّن أنّ الكلمة الأولى، ربّما ينبغي أن تُقرأ "والله".

JS .287: "يا الله اسمح لي بلوغ الخلاص، أن أحقّقه .....»

يبدو ذلك أنّه مصدرٌ من الجذر w-th-' (في العبريّة. yasha'، "ليخلص"). قارن مع Hu. 221، 5h-n-h-y s-'-d-n '-1-h th-'-t "ياناهي، امنحني الحظّ السّعيد، وخير الخلاص."

JS305.: «يا الله، (الإله) الذي لا ذريّة له، سلامٌ (مُضَاء. فيك يكون الفرح)».

ويكتب جريم في (Die Losung، ص. 66) كلمة ’-b-t-r على أنها (أبتر لا أولاد له)؛ في حين أنّ ريكمانز (Le Muséon، L، ص.333) يقترح معنى (العزلة).

JS409. : "يا الله، اهدني حتّى بلوغ الرفاه....."

Hu. 99،27: "يا الله....."

Hu. 72،299: "يا الله، (الإله) الذي لا ذريّة له. خلصت وها- داب».

Hu.475: "يا الله، (الإله) الذي لا ذريّة له.....»

Hu. 643: "يا الله،(الإله) الذي لا ذريّة له، العالِمُ بالرّجال من خلصت».

Hü. 644،10: "يا الله (الإله) الثأر لأميات قد توقف".

الصّفائيّة:

DM. 239: "باسم سوناي بن سوناي بن موهلل. وقد وجد علامة "حبّه" وقد أثّرت (به) كثيراً. يا الله، امنحه السّلام وهو الذي ..... والحسد وخيبة الأمل فلتكن عند موهللم، وعند زانان وعند هامسك".

DM. 242: "باسم أنوم بن باؤود بن أدؤجات. و يا الله، امنحه الاستحسان وتنزُل العمى على أيّ أحدٍ يطمس النّقش".

DM. ب 539: "باسم قينأيل بن قاهش بن قينأيل. (حَسب موقع الوقوف) يا الله، امنح (له) السّلام!"

L. 128: "باسم موهاليم ابن W-h-l ..... يا الله، امنح (له) السّلام!"

إذا نظرنا إلى النّصوص المذكورة أعلاه، لا نجد شيئاً مميّزاً في النّداءات الموجّهة إلى الله؛ فهي نوعٌ من المناشدات الّتي يمكن توجيهها إلى أيّ إله؛

ولكن هناك صفةٌ واحدةٌ تنطبق على الله ولا تنطبق على أيّ إلهٍ آخرَ في النّقوش العربيّة الشّماليّة، وهي صفة "الأبتر"، ومن الواضح أنّها ترمز إلى النّوعيّة الّتي تعبّر عن تفرّد الله وحده؛ ومن ثمّ فإنّه يُعدّ مفتاحَنا الأهمَّ حول لاهوتيّة - الله عند عرب ما قبل الإسلام؛ وهكذا يظهر أنّ كلمة "أبتر" قد استُخدمت في سورة الكوثر الآية 3 من القرآن، بمعنى عديم الإنجاب، وذلك وَفقاً للمفسّرين المسلمين، حيث عُوتب محمّدٌ من أعدائه بكونه رجلاً أبتر، أي أنّ الرّجل لم يكن له ذريّة من الأبناء الذّكور؛ ويأتي الله للدّفاع عنه بالوحي الآتي: {إِنَّآ أَعطَينَٰكَ الكَوثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحَر إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبتَرُ} (سورة الكوثر، الآيات:1-2-3). (ويمكن المقارنة مع عمل نولدكه-شوالي، Geschichte Des Qorans ، ص.92). وربّما يمكن التّفسير لاستخدام هذا المصطلح على أنّه من الله كما في: {قُل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَم يَلِد وَلَم يُولَد وَلَم يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ} (سورة الإخلاص، الآية 112)، ومن المحتمل هنا أنّ محمّداً يظهر جزءاً من اللّاهوت عند العرب قبل الإسلام.

أسماء الله:

يجب أن أعرب في إعداد هذه القائمة من الأسماء عن مديونيّةٍ عميقةٍ للأستاذ ريكمانز "الأسماء الصّحيحة في السّاميّة الجنوبيّة"؛ فمن دون الاستعانة بعمله الضّخم لم يكن ممكناً إجراء هذا التّحقيق.

سبأ ـ واحد (CIH 74).

معين ـ واحد (JS 181a).

اللّحيانيّة المُبكِرة:

	l-dh-w-'-r w-gh-y-r-t w-w-j-m '-l m-ḥ-l-m w-'-l ẓ-n-n w-'-l h-m-s-k.
DM 242	*l-'-n-'-m b-n b-'-d b-n '-d-'-j-t w-h-l-h s-l-m w-r-ḍ-y '-w-r dh-y-'-w-r h-s-f-r.*
DM 539a	*l-q-n-'-l b-n q-ḥ-sh b-n q-n-'-l w-kh-r-ṣ h-m-ḥ-l f-h-l-h kh-l-ṣ.*
L 128	*l-m-ḥ-l-m b-n w-h-l w-?-?-r-h-f-'-r-n h-l-(h) s-l-m.*

إذا كان أيٌّ من "W–'–l–h" في «JS 320» و 360 يُعدّ اسماً صحيحاً أو بمعنى "من الله" فهو غير مؤكّد.

اللّحيانيّة المتأخّرة:

h-'-t-r-s-m f-h-w-d d-h-w-n w-n-ṣ-r-n m-kh-sh-w-r

J-r-m-l-h **(JS 251),** ***M-r-'-l-h*** **(JS 314, E. D Ar. 72),** ***N-s-'-l-h*** **(JS 42),** ***T-m-l-h*** **(JS 140, 365a),** ***W-d-'?-l-h*** **(JS 252).**

"الثّموديّة ث" واحدٌ (JS 637).

"الثّموديّة ج" أربعةٌ (JS 35؛Hu=229. 400؛ Hu=179 . Eut=347، 684؛618).

الصّفائيّة _ خمسةٌ

النّبطيّة_ متكرّر الحدوث (W–h–b–'–l–h–y وهب الله، T–y–m–'–l–h–y إلخ. للحصول على قائمةٍ كاملةٍ (قارن مع سنتينو، النبطيون، الثاني).

نلحظ أوّلاً من هذه القائمة أنّ أسماءَ الله تصبح أسماءً عامّةً في النّصوص

اللّحيانيّة، ولا يوجد سوى اسمين من أسماء الله في جنوب المنطقة العربيّة؛ وفي الحقيقة، فإنّ نقش مملكة مَعينٍ الذي يحتوي على أحد هذه الأسماء، وُجد شمالاً في العلا، بينما وُجد الآخر في سبأ، وذلك يُفسَّر ببساطةٍ على أنّه تسلّلٌ من الشّمال، حيث تشير الأدلّة المقدّمة لظهور أسماء الله أنّ لحيان (مَعين- العلا) كانت المركز الأوّل لعبادة الله في المنطقة العربيّة.

ونلحظ الآن بالعودة إلى الوراء و الأدلّة المقدّمَةَ من الأدعية إلى الله عدم وجودٍ لهذه الأدعية في النّقوش العربيّة الجنوبيّة! حيث تبدأ مع اللّحيانيّة الأولى، وقد أرّختها في بحثي عن النّقوش اللّحيانيّة والثّموديّة، ص.51، في القرن الخامس قبل الميلاد، وهو تاريخ النّصوص "الثّموديّة ب" الّتي وفّرت عدداً كبيراً من الأدعية الموجّهة إلى الله وغير المؤكّدة، لكنّها تبدو سابقةً للنّقوش اللّحيانيّة.

إلّا أنّ الغريب هو أنّ أسماء الله غير موجودةٍ في النّقوش "الثّموديّة ب"، والظّاهرة فقط في "الثّموديّة ث" (القرن الثّالث بعد الميلاد) وفي "الثّموديّة ج" (القرن الرّابع بعد الميلاد).[1] ولدينا اثنان من خطوط التّحقيق الّتي تتلاقى بشكلٍ رائعٍ لتشير إلى أنّ اللّحيانيّة هي من أدخل عبادة الله إلى المنطقة العربيّة. ولا تحتوي النّقوش الدّيدانيّة (وهم أسلاف اللّحيانيّة) على إشارةٍ إلى الله، وهو دليلٌ على أنّ الله لم يكن إلهَ هذا المكان، ولكن تمّ جلبه من خلال اللّحيانيّة.

يأخذ تاريخ اللّحيانيّة فائدةً جديدةً في ضوء هذا كلّه. من كانوا، ومن أين أتوا؟ فوَفقاً لعلماء الأنساب العرب كانوا فرعاً من هذيل، وعُرض نسبهم على النّحو التّالي:بنو هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر (قارن مع دائرة المعارف الإسلاميّة: لحيان).

(1) انظر في بحثي عن النّقوش اللّحيانيّة والثموديّة، ص.51.

لا ينمّ هذا التّراث عن معرفةٍ حقيقيّة بأنّهم كانوا شعباً مستقلّاً مع ملوكٍ خاصّين بهم، وبشكلٍ واضحٍ لا يقدّم لنا مرجعاً تاريخيّاً أبعد من ذلك، بالأحرى يبدو أنّه يقدّم الحالة فقط بعد ضعف المملكة اللّحيانيّة. سواءٌ كانوا من السّلالة العربيّة الأصيلة أم لا، ويجب لازدهارها الاعتماد على علاقاتٍ تجاريّةٍ واسعة النّطاق، وقد أخضعتهم هذه حتماً للتّأثيرات الخارجيّة، ويثير هذا الأمر سؤالاً عمّا إذا كان الإله «الله»، المدرج في البانثيون الخاصّ بهم عربيّاً أو من أصلٍ أجنبيٍّ.

قد نذكّر أنفسنا ـ في السّعي للإجابة على هذا السّؤال ـ أوّلاً وقبل ذلك كلّه باللّغة الآراميّة (السّريانيّة بالتّأكيد، وربّما النّبطيّة والتّدمريّة) وهي اللّغة الوحيدة من اللّغات السّاميّة الّتي تبدأ فيها الكلمة «الله» أو الكلمة «الإله» مع حرف العلّة «الألف». وحرف العلّة «الألف» في بداية كلمة «الله» للّافت للنّظر ويميّزها عن الكلمة العربيّة الأخرى في الإشارة إلى كلمة «الإله».

لقد تمّ تفسير هذا الحرف «ألف» بشكلٍ صريحٍ في كلمة «الله» على أنّه تقلّص من الكلمة «الإله»، وقد اعتمدَ الباحثون الغربيّون على نظريّة المفسّرين المسلمين، لكن الاسم يظهر في اللّحيانيّة على شكل «h–l–h" وفي الثّموديّة على شكل "h–'–l–h". ووَفقاً للنّظريّة المعتادة، فنحن مضطرون إلى استنتاج أنّ اسم الإله المعبود كان في الواقع (إله)؛ أي إنّ اللّحيانيّة والثّموديّة حوّلت اسم الإله من اسم عامٍّ إلى اسم صحيحٍ، وهي النّتيجة الواضحة لريكمانز في كتابه "الأسماء الصّحيحة في السّاميّة الجنوبيّة" والذي يقدّم الكلمة ـ بانتظام ـ على أنّها "إله".

إنّ اللّحيانيّة تحتوي على السّابقة الجزئيّة للنّداء "ها" في الاسم المشير إلى الإله على أنّه ها – إله، في حين نجد مجموعةً أخرى من العرب تستخدم السّابقة الجزئيّة للنّداء "ال" في الاسم المشير إلى الإله على أنّه ال – إله. وفي كلتا الحالتين يتمّ إسقاط الهمزة الأولى من كلمة الإله، خلافاً للقاعدة،

وتُلفظ الكلمة على أنّها "هالله" في الحالة الأولى، و"الله" في الثّانية.

وفي مقابل هذه النّظريّة من الممكن المجادلة عندما نشاهد أسماءً مثل: "W-h-b-'-l-h" و"W-h-b-'-l-h-y" في النّقوش النّبطيّة، لا أحدَ يستطيع الشّكَّ في أنّ العنصر الثّيفوريّ في هذه العبارات هو كلمة "الله". حيث أنّها لا تتوافق لتكون "إله"، وذلك حيث أنّ الكلمة النّبطيّة للإشارة إلى الله هي "اللّاها» والّتي تتطلّب ألفاً في جزء الكلمة الأخير بعد حرف الهاء في النّقش.

إنّ النّقل الحرفيّ اليونانيّ لهذه الأسماء السّاميّة يُعدّ دليلاً إضافيّاً على أنّ العنصر الثّيفوريّ يجب أن يُقرأ على أنّه «الله». ولو سلّمنا بأنّ هذه الأسماء هي (أسماء الله) عندما تظهر في النّقوش النّبطيّة، فعلى أيّة خلفيّةٍ نستطيع إنكار هذه الأسماء، في حين إنّها تظهر في النّقوش نفسها في اللّحيانيّة والثّموديّة؟ وبالتّأكيد لن يكون على أساس المعلومات في النّقوش النّبطيّة، حيث يظهر العنصر الثّيفوريّ مكتوباً على الشّكل «h-l-'" و"y-h-l-'" بينما تظهر في النّقوش اللّحيانيّة والثّموديّة على شكل "l-h" . أي إنّ حذف حرف الألف في الخطوط اللّاحقة الثّانية، لا يُعدّ برهاناً على أنّ العنصر هو «إله»؛ وفي الواقع إنّما تظهر هذا العنصر بأنّه ليس «إله» في الكتابة العربيّة.

ومع ذلك فقد أبرز السّوريّون الاسم العامّ للإشارة إلى الكائن الأسمى، «الله»، على أنّه اللقب الأسمى للاسم الصّحيح عبر إضافة أداة التّعريف»a" لتصبح الكلمة: (اللّاها = "الإله") و ثمّ بمعنى "الله". ويمكننا مقارنة الأسماء السّريانيّة قبل الإسلام مثل وهب الله = («هدية الله») و («الله هو»)؛ وعندما استعار اللّحيانيّون الاسم الصّحيح، اللّاها، قاموا بتعريب الكلمة عبر إسقاط أداة التّعريف الألف، ونجد أنّهم في الأدعية يضيفون إليها البادئة، أي صيغة المُنادى أو أداة اسم إشارَة «حرف الهاء» (وحرف الهاء الذي يظهر في كلمة «هذا» ليس الأداة ذاتها الّتي استخدمها اللّحيانيّون

وهي «ها» قبل الكلمة الّتي تبدأ بحرف الألف)، وسواءٌ استمدّ الثّموديّون عبادة الله من اللّحيانيّين أو من الشريان فهو أمرٌ غير مؤكّد، لكن يبدو أنّ لديهم توحيداً لله، وذلك وفق العبارة «أبتر»، وهذا لا يظهر في اللّحيانيّة، ممّا يلمّح إلى أنّهم حصلوا على معرفتهم بالله بشكلٍ مستقلٍّ عن اللّحيانيّين. وعندما دخل النّبطيّون إلى المنطقة الثّموديّة واللّحيانيّة، اعتنقوا عبادة الله أيضاً، وهكذا استمرّت المعرفة بهذا الإله حتّى زمن محمّدٍ! وبالنّظر إلى مصدر الاسم، فإنّه من الطّبيعيّ أن يحتفظ الله بشكلٍ دائمٍ على شيءٍ من خصائصه بوصفه «الإله» المتفوّق، وبقي على محمّدٍ أن يحرّر الأفق من باقي الآلهة الأدنى.

تمثّل المنطقة الثّموديّة المحيطة بالعلا ومدائن صالح الموضعَ الأوّل لعبادة الله في المنطقة العربيّة، وزِدْ على ذلك، فقد شهد النّصّ القرآنيّ بأنّ الله أرسل إلى ثمود رسولاً هو صالح، و يظهر أنّ هذا النّصّ مستندٌ على أسسٍ تاريخيّةٍ حقيقيّةٍ في أنّه يمكن وجود أنصارٍ لله في هذه المنطقة. وهناك حاجةٌ لفحصٍ جديدٍ على المنطقة اللّحيانيّة والثّموديّة الّتي تبدو مكوِّنةً لشخصيّة الشّمال العربيّ قبل الإسلام.

لقد وجد جوسن وسافنياك بيتاً ذا ثروةٍ أثريّةٍ حقيقيّةٍ! ويُشكُّ في أنّهم استنفذوا ثرواته كلّها! وإنّ المعلومات كلّها في هذه البقعة الإستراتيجيّة، يجب أن تُجمع قبل أن تتلف بدون رجعةٍ عبر تأثّرها بعوامل الزّمن.

كلّيّة الجامعة، تورنتو، كندا

فريدريك فيكتور وانيت

وهي «هن» قبل الكلمة الّتي تبدأ بحرف الألف)، وسواءٌ استمدّ الثّموديّون عبادة الله من اللّحيانيّين أو من السّريان فهو أمرٌ غير مؤكّد، لكن يبدو أنّ لديهم توحيداً لله، وذلك وفق العبارة «أبتر»، وهذا لا يظهر في اللّحيانيّة، ممّا يلمّح إلى أنّهم حصلوا على معرفتهم بالله بشكلٍ مستقلّ عن اللّحيانيّين. وعندما دخل النّبطيّون إلى المنطقة الثّموديّة واللّحيانيّة، اعتنقوا عبادة الله أيضاً، وهكذا استمرّت المعرفة بهذا الإله حتّى زمن محمّدٍ! وبالنّظر إلى مصدر الاسم، فإنّه من الطّبيعيّ أن يحتفظ الله بشكلٍ دائمٍ على شيءٍ من خصائصه بوصفه «الإله» المتفوّق، وبقي على محمّدٍ أن يحرّر الأفق من باقي الآلهة الأدنى.

تمثّل المنطقة الثّموديّة المحيطة بالعلا ومدائن صالح الموضعَ الأوّل لعبادة الله في المنطقة العربيّة، وزِدْ على ذلك، فقد شهد النّصّ القرآنيّ بأنّ الله أرسل إلى ثمود رسولاً هو صالح، ويظهر أنّ هذا النّصّ مستندٌ على أسسٍ تاريخيّةٍ حقيقيّةٍ في أنّه يمكن وجود أنصارٍ لله في هذه المنطقة. وهناك حاجةٌ لفحصٍ جديدٍ على المنطقة اللّحيانيّة والثّموديّة الّتي تبدو مكوِّنةً لشخصيّة الشّمال العربيّ قبل الإسلام.

لقد وجد جوسن وسافنياك بيتاً ذا ثروةٍ أثريّةٍ حقيقيّةٍ! ويُشكُّ في أنّهم استنفذوا ثرواته كلّها! وإنّ المعلومات كلّها في هذه البقعة الإستراتيجيّة، يجب أن تُجمع قبل أن تتلف بدون رجعةٍ عبر تأثّرها بعوامل الزّمن.

كلّيّة الجامعة، تورنتو، كندا

فريدريك فيكتور وانيت

الفصل الثاني

من كان «الله» قبل الإسلام؟

من كان « الله » قبل الإسلام؟

دليلٌ على أنّ مصطلح «الله» نشأ مع اليهود والمسيحيّين العرب

ريتشارد براون(*)

مقدّمة

عندما نتحدّث مع المسلمين، لابد من أنّ ندركَ ونتفهّم أسباب تسميتهم هذه للخالق، حيث نجد أنّ مصطلح الله موجودٌ في معظم اللّغات الّتي يستخدمها المسلمون، وهو مصطلحٌ واحدٌ فقط من مجموع تسمياتهم للإشارة إلى الله.

يشير «دودلي وودبيري»[1] إلى أنّ اسم الله: يرجع أصله إلى المسيحيّة السّريانيّة، و قد تمّ استخدامه بكثرةٍ قبل زمن محمّدٍ. ولطالما آمن المسيحيّون النّاطقون بالسّريانيّة بذلك، أمّا بالنّسبة للباحثين - كما الحال مع أرثر جيفري[2] فقد لحظوا ذلك بوضوحٍ، لكنّ أعمال العنف الّتي يرتكبها بعضٌ من الإسلاميّين المتشدّدين في سبيل الله، قد أدّت بكثير من المؤمنين في الغرب

(*) يشكر المؤلّف - وبكلّ امتنانٍ - جميع المقيمين الّذين قدّموا له الملحوظات المفيدة. ملحوظة عن النَّقْحَرة (النقل الحرفي في النص الأصل): إن النقل الحرفي لجميع الكلمات الأجنبيّة مكتوبة بحروف صغيرة، حتّى لو كانت أسماء، لكن عندما تُقتبس الكلمات كاستعارة إلى اللّغة الإنكليزية، تُكتب بحروف كبيرة، كما في كلمة «الله».

(1) جـ. دودلي وودبيري» Contextualization among Muslims: Reusing "Common Pillars"، المجلّة العالميّة للبعثات الحدوديّة 13، رقم. 4 (1996): 173.

(2) أرثر جيفري، مفردات القرآن الدّخيلة (الهند، بارودا: معهد الشّرق، 1938)، 66.

لاستنتاجٍ مهمٍّ وهو أنّ الله في الإسلام هو شخصٌ آخر غير الله الذي يؤمنون به.

على سبيل المثال، كنت مؤخّراً في مؤتمرٍ أكاديميٍّ، حيث أشار أحد المتحدّثين إلى أنّ: كلّ لغةٍ من اللّغات الأفريقيّة لها اسمٌ محلّيٌّ للكائن الأسمى، الرّبّ وخالق الكون، ويُستخدَم هذا الاسم المحلّيُّ من المسيحيّين في العبادة وترجمة الإنجيل.[1] فجأةً و بعد قوله هذا، ساوره بعضٌ من الشّكوك فيما قاله، فعدّل تصريحه بالقول: حسناً، كلّ شخصٍ على الأقلّ في جنوب الصّحراء الكبرى له اسمٌ مميّزٌ ليشير به إلى الله. وهو يقول هذا غيرَ متأكّدٍ ممّا إذا كانت شعوب شمال أفريقيّا لها اسمٌ محدّدٌ لذلك!. وهذا الشّكّ نابعٌ من ادّعائه أنّه قد قرأ اسم الله، وهي الكلمة العربيّة للإشارة إلى الله، ولم يجد أنّها تشير إلى سيّدٍ أو خالقٍ لهذا الكون، بل كانت تشير إلى روحٍ شرّيرةٍ، أو إلى أحد الأصنام، كما هو الحال لإله القمر عند السّاميّين القدامى.

تمّت هذه الادّعاءات بوساطة عددٍ من المؤلّفين الذين كتبوا عن الله كمصطلحٍ يدلّ على الدّيانات الوثنيّة، ولا سيّما إله القمر؛ وعلى الرّغم من حسن نيّتهم فقد سبّبت هذه الادّعاءات الضّعيفة للكثير من المسيحيّين الغربيّين خوفاً من مصطلح الله، و رفضوا استخدامه!,[2] حتّى إنّ بعضاً من المسيحيّين الغربيّين قاموا بإزالة مصطلح الله من ترجماتهم العربيّة للإنجيل،

---

(1) في حقيقة الأمر، يشير لامين سانيه في ترجمة الرسالة: التّأثير التّبشيري على الثقافة (مارينول، نيويورك: 181 ،1989 ، orbis) ، إلى أنّ المجتمعات ذات اللّغة المتأسلمة منذ زمنٍ طويل مثل الهَوسيّة والفولانيّة «قد سمحت لله بعزل إله أو آلهة الحقب قبل الإسلام»، وكانت النّتيجة أنّ بعضاً من الجماعات لم تعد تذكر حتّى الاسمَ الّذي تذرّع به أسلافهم إلى الله العليّ.

(2) الاعتراضات على استخدام هذا المصطلح في ترجمات الكتاب المقدّس تمّت مناقشتها وجمعها في كينيث جـ. توماس، «الله في ترجمة الإنجيل»، المجلّة العالميّة للبعثات الحدوديّة 23، رقم 4 (2006): 171-174.

ومن بعضٍ من الموادّ الأخرى،[1] ومع ذلك حذّرنا «دودلي وودبيري» مراراً من مخاطر هذا الرّفض، وعنون إحدى مقالاته بعبارة «عندما يكون الفشل معلمنا»: دروسٌ من البعثات الموجّهة للمسلمين (1996 ص.122):

وصف العديد من المبشّرين ما يُسمّى أشكال العبادة الإسلاميّة والمفردات الدّينيّة لدى المسلمين لكن بشكلٍ خاطئٍ، وذلك نتيجة جهلهم لجميع المفردات الدّينيّة القرآنيّة، بما في ذلك اسم «الله» وتقريباً جميع أشكال العبادة (باستثناء العبادات المتعلّقة والمخصّصة لمحمّد)، والمستخدمة من اليهود و/ أو المسيحيّين قبل أن يستخدمها المسلمون.[2] وقد قدّم فيل بارشال (1989) إشارةً مشابهةً، لكن عندما يواجه المسلمون الموادّ الدّينيّة المسيحيّة، الّتي تجنّبت بعنايةٍ كلّ ذِكْرٍ لاسم الله، فإنّهم غالباً ما يخشون هذه الموادّ بحجّة أنّها تبعدهم عن الله، ولو أنّ مسيحيّي الغرب قاموا بالشّرح لأصدقائهم المسلمين، بأنّهم ينظرون لاسم الله في الإسلام على أنّه استدعاءٌ لروحٍ شرّيرةٍ أو لإله القمر، فسيفقدون كلّ مصداقيّتهم.

بجانب هذه المخاوف والسّخافات، هناك حقيقةٌ واضحةٌ، وهي أنّنا لو تكلّمنا معهم بلغتهم الأمّ إضافةً لرفض الأسماء الّتي تشير إلى الله والأنبياء، ومن ثمّ أعربنا عن رفضنا لهم بصفةٍ شخصيّةٍ، فسوف يُعدّ ذلك كتوجيه الإهانة لهم، وغالباً ما تدفع بهم لرفض شهادتنا قبل أن يُنظَر إليها.[3]

---

(1) مثال على ذلك، ArabicBible، http: //www.arabbible.com، الّذي نشر الإنجيل باللّغة العربيّة لفان ديك على الإنترنت مع حذف كلّ ما له علاقة بمصطلح الله.

(2) جـ. دودلي وودبيري، «عندما يكون الفشل معلمنا: دروسٌ من البعثات الموجّهة للمسلمين»، المجلّة العالميّة للبعثات الحدوديّة 13، رقم 3 (أيلول - تموز: 1996)، 122.

(3) رفْضُ اللّغة المحكيّة هو مجرّد جزءٍ من ظاهرةٍ أوسعَ من التّشويه الثّقافي الذي يميّز نهج الجدليّة. وللأسف يميل هذا النّهج إلى إثارة العداء بين النّاس، والتّشدّد في مواقفهم بدلاً من توعيتهم لتزداد محبّتهم في الله عبر المسيح (انظر هيثر جـ. شاركي،

بناءً على ذلك، فإنّ أولئك الذين يعتقدون بهذه الخرافات المتعلّقة بمصطلح الله، محكومٌ عليهم بالفشل كشهودٍ على المسلمين! وبطبيعة الحال، فإنّ الذين عاشوا بشكلٍ وثيقٍ مع المسلمين، يدركون أنّ اسم الله هو أكثر الأسماء العزيزة والمستخدمة من المسلمين، وكذلك يستخدم المسيحيّون من السّنغال إلى اندونيسيا هذا الاسم؛ لكنّ بعضاً منهم واجهوا من مرتادي كنائسهم أو في أماكن عملهم معارضةً في استخدامه، وكان هؤلاء من أصحاب المفهومات الخاطئة حول المصطلح.

غالباً ما يكون المسيحيّون ـ وبالأخصّ غير المعتادين على التّنوّع الدّينيّ ـ مشتّتي الذّهن بحقيقة أنّ الأديان التّوحيديّة الباقية تعلّم مفهومات مختلفة عن الله! ويفترض بعضٌ من هؤلاء أنّ أنصار الدّيانات الأخرى يعبدون إلهاً آخر غير الله، كما لو أنّ لديهم مجمع بانثيون للاختيار منه؛ وبحرفيّة الدّلالات اللّفظيّة، فإنّ هؤلاء يخلطون المعاني والمفهومات تبعاً لاختلاف المراجع، لكنّ المرجع هنا هو الشّخص أو الكيان، و في حالتنا هذه هو "الله"، و يضمّ المعنى الصّفات المنسوبة إلى الله في تصوّرهم له، حيث تكون بعضٌ من التّصوّرات للمرجع نفسه مختلفةً، حتّى إنّ المسيحيّين أنفسهم يختلفون فيما بينهم في تصوّرهم لله![1] ويمكن لمفهوم المرء أنّ يختلف في تصوّره عن

«أطروحات عربيّة معاديّة للتبشير: ردود المسلمين على التبشير المسيحي في الشرق الأوسط الحديث»، النّشرة الدّوليّة للبحث التّبشيري 28، رقم 3، (2004): 98-104).

(1) راجع معهد بايلور للدّراسات الدّينيّة، التّديّن الأمريكيّ في القرن ال21: رؤى جديدةٌ في العمق والتّعقيدات الدّينيّة في الولايات المتّحدة (واكو، تكساس: جامعة بايلور، 2006)، http: //www.baylor.edu /content /services / document.php /33304.pdf. للحصول على وصف السّمات الرّئيسة للمفهوم التّوراتيّ عن الله مقارنةً بالمفهومات الإسلاميّة حول الله، انظر ريك براون، «وجهات نظر المسلمين العالمية والكتاب المقدس: الجسور والحواجز؛ الجزء 1: الله والجنس البشريّ»، النّشرة الدّوليّة للبعثات التّبشيرية 23، رقم 1 (2006): 5-12.

الله، لكنّ هذا لا يحدث ببساطةٍ باستدعاء الله باسم مختلفٍ؛ فهو يحدث بنعمةٍ ما، عندما يتأمّل الشّخص سمات الله كما ترد في الإنجيل، ولاسيّما كما أُعلن عنه في شخص يسوع المسيح، ويحدث ذلك عندما تُسمع شهاداتُ المؤمنين، وهم يشعرون بنعمة الله ويختبرونها في حيواتهم، ويمتلك قلوبهم، عندما يستقبل المؤمن النّور من الرّوح القدس.

هناك الكثير من المقالات المزيّفة ذات المحتوى الخاطئ حول الاسم العربيّ "الله"، وقد وضّحت في إحدى كتبي عدم صحّة المزاعم في أنّ الله لم يكن أبداً اسماً لإله القمر، وأنّ رمز الهلال المستخدم في الإسلام الحديث لم يأتِ من الدّيانة القديمة لإله القمر، بل لأنّه كان رمزاً من القرون الوسطى للهيمنة السياسيّة العثمانيّة،[1] ويؤكّد كينيث توماس[2] في مقالٍ له على أنّ النّاطقين بالعربيّة من اليهود والمسيحيّين والمسلمين أشاروا دوماً بمصطلح الله إلى إلهٍ واحدٍ صحيح، في حين أكّد ماسي (2003) و بوب كوكس[3] على أنّ المسيحيّين العرب استخدموا مصطلح الله عند الإشارة إلى الله، وأنّ هذا المصطلح يرتبط لغويّاً مع المصطلحات العبريّة المتعلّقة باسم الله. و بالنّسبة لعماد شحادة[4] رئيس الهيئة الإنجيليّة الثّقافيّة، يشير لاستخدام مصطلح الله في أقدم ترجمةٍ مسيحيّةٍ عربيّةٍ موجودةٍ كنصٍّ، وتمّ توثيق هذه الممارسة منذ العصور الماضية إلى وقتنا الحاضر.

(1) ريك براون، «من هو الله؟»، النّشرة الدّوليّة للبعثات التّبشيرية 23، رقم 2 (2006): 79-82.

(2) توماس، «الله»، 2006.

(3) بوب كوكس، «إتيمولوجيا كلمة الله»، Seedbed 20، رقم 2 (2006): 14-17.

(4) عماد شحادة، «هل يؤمن المسيحيّون والمسلمون بالله نفسه؟»، Bibliotheca sacra 161، رقم 641 (2004): 14-26.

تمّ تمثيل هذه الحقيقة بشكلٍ جيّدٍ في مقالاتٍ لديفيد توماس،[1] ولا سيّما في مقالةٍ لحكمت قشوع؛[2] ولحظ شحادة غياباً تامّاً للأدلّة حول عدم استخدام أيّ شخصٍ لمصطلح الله على أنّه إله القمر، ونقلاً عن مونتغمري وات، يقول زاعماً: يعبد المسيحيّون الرّبّ "God" ويعبد المسلمون الله "Allah". وهي عبارةٌ لا عقلانيّة! لأنّها كقوله: يعبد البريطانيّون الرّبّ "God" و يعبد الفرنسيّون الرّبّ "Dieu". ثمّ يذهب إلى القول: إنّ المسلمين والمسيحيّين... يؤمنون في مفهوم الله ذاته [لكن] طبيعة الله كما يصوّرها الإسلام لا تشابه إطلاقاً طبيعة الله في الإيمان اليهوديّ ـ المسيحيّ.[3] إذاً فالحاجة هنا، هي في إعادة تصوّر المسلمين لجوهر الله كما هو في الإنجيل.

غير أنّ هذه المقالات لم تبدّد هموم بعضٍ من المعتقدين بأنّ مصطلح الله له مصدرٌ إسلاميٌّ، أو مجرّد إلهٍ أدنى، أو صنمٍ قبل الإسلام، واستمرّ القلق في نفوس بعضهم، وذلك من خلال التّشابه الواضح بين اسم الله و اسم اللّات الوثنيّة.[4] واقتداءً بمثال لوقا، يبدو من الجيّد التّحقّق من هذه الأمور

(1) ديفيد توماس، الإنجيل في المسيحيّة العربيّة (محرر) (لايدن، بريل، 2006).

(2) حكمت قشوع، «النّسخة العربيّة للإنجيل: بحثٌ مفصّلٌ في إنجيل يوحنّا 1.1 و 1.18»، في توماس، الإنجيل، 36-19. بحث قشوع فيما يزيد على أربع عشرة وثيقةً مستقلّةً في التّرجمة العربيّة للإنجيل، من القرن التّاسع وحتّى القرن الثّامن عشر، نسبةً فيما بينها إلى التّقاليد المستخدمة، في نصوص المصادر اليونانيّة والسّريانيّة والقبطيّة واللّاتينيّة، وقد استخدموا كلّهم كلمة «الله» على أنّها اسم الله، كما هي الحال في التّرجمات الحديثة.

(3) شحادة، «المسلمون والمسيحيّون»، 26.

(4) باستثناء الأسماء الجغرافيّة وكلمة «الله»، تُنقل الكلماتُ العربيّة حرفياً بناءً على نظام DIN 31635، وهو متطابقٌ مع ISO 233 باستثناء أحرف العِلّة الطّويلة. إنّ الاستثناء في كلمة ałłâh هو أنّ صوت التّفخيم في "el" الّذي يظهر بشكل فريد في هذه الكلمة العربيّة، يتمثّل في بعضٍ من الأحيان مع ł اللّام المفخّمة، وبالنّسبة لتفخيم الصّوت الّذي يتبعه مع الرّمز â. بالنّسبة للرّمز â فإنّه يُستخدم ضمن توافقٍ ليمثّل الصّوت الممدود /a:/ في اللّغة العربيّة، كما هو الحال في كلمة hilāh إله،

بعناية، وإنّ أقدم الأدلّة المفصّلة و المتعلّقة بما كتبه دادلي وودبيري، هو أنّ مصطلح الله تمّ استخدامه من المسيحيّين العرب في الإنجيل، للإشارة لخالق الكون قبل بداية الإسلام، و تعود أصوله للحقبة الآراميّة، و ربّما يسوع نفسه قد استخدمه. من هذا المنطلق فإنّ مصطلح الله قد استُخدمَ بحرّيّة في التّاريخ الوثنيّ أكثر من الكلمة العبريّة hel، المستخدَمَة من الكنعانيّين كاسمٍ للمعبود الأعظم بين آلهة البانثيون،[1] أو الكلمة الإنكليزية "God" والتي تأتي من مصطلحٍ عامٍّ للآلهة في الحقبة التّيتونيّة الوسطى.[2]

أمّا بالنّسبة للفقرة التّالية، والتي سنعرض ضمنها دليلاً على انتشار الدّيانة المسيحيّة في كلّ أنحاء المنطقة العربيّة قبل ظهور الإسلام، فإنّ معظم المسيحيّين العرب استخدموا الآراميّة في النّصوص المقدّسة و اللّيتورجيا ولُقّبَ الخالق بكلمة alâh(â)، وأدخلوا هذا المصطلح إلى اللّغة العربيّة

وهكذا تُرجمت كلمة al-lāt الدالة على اسم الآلهة المفترضة، والّتي تتناغم مع كلمة"cat"، بينما تُرجم اسم الله على شكل al-łâh، والذي يتناغم مع كلمة "law". في حين نجد التّرجمة الحرفيّة للّغات العبريّة والآراميّة والسّريانيّة ضمن اتّفاق ISO 259، المعتمَد من المهتمّين بالأدب التّوراتيّ. إنّ حروف العِلّة السّبعة نجدها متمثّلة في النّظام الطّبريّ والمتمثّلة هنا على الشّكل i، ê، e، a، â، o، u ، ويوجد ما يشبهها أيضاً في السّريانيّة، إذاً فإنّ صوت حرف العِلّة المفخّم موجودٌ ضمن الطّريقة ذاتها في كلٍّ من هذه اللّغات، ومثال ذلك حرف â بدلا من ā، وذلك للمحافظة على انتظام التّمثيل الصّوتيّ.

(1) انظر جاك بـ. سكوت، « אלה (ʾlh) إله، الله"، في معجم المفردات اللاّهوتيّة للعهد القديم، المجلد 1، محررون. ر. لـ. هاريس، جـ. ل. هارشر، جـ. ر.، وبـ. كـ. والتيك (شيكاغو: 1980، 41-45، Moody). لقد لحظ أنّ كلمة ʾēl تُستخدم في اللّغات السّاميّة كلّها على حدٍّ سواءٍ كمصطلح عامٍّ للإله، وبكونها صفةً من صفات الله العليّ. ويكون المعنى الأخير صريحاً أحياناً في العبريّة من خلال استخدام عبارة ʾēl ʿelyôn.

(2) انظر كيف دخلت ghéu ه- في كالفيرت واتكينز، محرر. قاموس التراث الأمريكيّ عن الجذور الأوروبيّة الهنديّة، الطّبعة الثّانية (بوسطن، Houghton Mifflin، 2000). بعضٌ من اللّغويّين المهتمّين بالتّاريخ يعتقدون أنّ الكلمة الإنكليزيّة «الله» تكوّنت من اسم الملك التّيوتونيّ Gaut الّذي عُدّ إلهاً بعد وفاته.

ليصبح "الله" وحتّى العرب من غير المسيحيّين ضمن الحقبة نفسها، فإنّهم أكّدوا على أنّ مصطلح الله موجودٌ في الإنجيل للإشارة إلى الكائن الأسمى، والخالق، وسيّد كل الآلهة الأخرى؛ ومن غير المبرّر أنّ يتجاهل المسيحيّون الغربيّون هذا المصطلح المستخدم للإشارة لاسم الله في لغاتٍ مثل العربيّة، وبالمثل ليس هناك ما يدعو إلى تجنّب دعوة سيدنا يسوع المسيح بلقبه العربيّ المعروف "كلمة الله" الأبديّة، المتجسّدة على هيئة بشرٍ، وصورةٍ واضحةٍ من الله غير المنظور، والسّيّد والمخلّص للبشريّة.

المسيحيّون العرب قبل الإسلام استخدموا لفظ "الله"

أوضّح كبدايةٍ فيما يلي أنّ كلّ المتحدّثين بالعربيّة من يهودٍ ومسيحيّين عاشوا في أرجاء المنطقة العربيّة قبل قرونٍ من الإسلام، وقد استخدموا مصطلحاً للإشارة للخالق، ولحظت وجودَ أسماءٍ تشير للخالق بمصطلح «الله» بالنّسبة إلى المسيحيّين قبل الإسلام، وتبيّن لي أيضاً أنّ التّرجمات العربيّة القديمة للإنجيل، وحتّى القرآن ذاته، يظهران لنا الاستخدام اليهوديّ والمسيحيّ لمصطلح «الله» في الإشارة إلى الخالق قبل الإسلام، فالمسيحيّون النّاطقون باللّغة العربيّة، عاشوا في أرجاء العربيّة قبل قرونٍ من الإسلام.

وعلى الرّغم من تأكيد المؤرّخين المسلمين على وثنيّة، و «فسق» المنطقة العربيّة قبل الإسلام ـ وهو أمرٌ مبالغٌ فيه ـ و ضمن وصفٍ دقيقٍ... فإنّ الدّيانة اليهوديّة موجودةٌ في المنطقة العربيّة منذ القدم، مع العديد من القبائل العربيّة المتحوّلة؛ إضافة إلى هذا فقد لحقت بها موجة التّحوّل الّتي قامت بها المسيحيّة لتصبح الدّينَ السائدَ في معظم المنطقة العربيّة، واستقرّت في مدينة يثرب (المدعوّة لاحقاً بالمدينة) منذ القدم، وهيمن عليها اليهود.[1]

(1) ر. بـ. ويندر، «المدينة»، في دائرة المعارف الإسلاميّة، المجلّد 5، محرر. بـ. جـ. بيرمان (لايدن، بريل، 1999)، 999-1007.

ونجد في جنوب شبه الجزيرة العربيّة عدداً كبيراً من اليهود والمرتدّين في نجران، و اليمن.[1] وقد كان من بين شهود العنصرة يهودٌ ومرتدّون من متحدّثي اللّغة العربيّة كما في (أعمال الرسل 2: 11) ومن المرجّح قيامهم بجلب الإنجيل إلى أوطانهم؛ حيث قام بولس برحلةٍ إلى المنطقة العربيّة كما في (غلاطية 1: 17) و ربّما إلى المملكة النّبطيّة (النّبطيّون هم سكّان القرى والمدن الموجودة في أنحاء المنطقة الواقعة شرق الخطّ الواصل بين حلب والبحر الميّت) والمتضمّنة لسيناء.[2] إذاً فإنّ الوجود اليهوديّ في المنطقة قد سبق مولد يسوع، و دخل الإنجيل المنطقة العربيّة بعد قيامة المسيح.

ازداد عدد المسيحيّين بسرعةٍ، وكما ذُكر فقد قدّم أوريجانوس عالم اللّاهوت و محاضرٌ من القرن الثّالث محاضرةً لاهوتيّةً في مدينة بيترا في عام 213م أو 214م بدعوةٍ من الحاكم،[3] وعاد أوريجانوس مجدّداً إلى المنطقة العربيّة ليصحّح تعاليم بيريلوس، أسقف بوسترا،[4] ثم عاد مرّةً أخرى في عام 246م لتسوية النّزاعات اللّاهوتيّة في مجمع الكنيسة العربيّة (التي لم تكن مساحتها ضيّقةً أبداً).[5]

(1) عرفان شهيد، شهداء نجران: وثائق جديدةٌ، المجلّد. 49 (بروكسل: Société des Bollandistes، 1797).

(2) جـ. سبينسر تريمنغهام، المسيحيّة بين العرب في عصور ما قبل الإسلام (نيويورك: لونغمان، 1971) 72.

(3) إروين بروشين، «أوريجانوس»، في New Schaff-Herzog Encyclopedia of Religious Knowledge، المجلد. 8، بـ. شاف، محرر (غراند رابيدز: Baker، 1953 [1908]) 268- 273.

(4) وفقاً ليوسابيوس كان بيريلوس يقوم بتدريس إمكان عدم الوجود المسبّق ليسوع المسيح. يوسابيوس، "Historia Ecclesiastica"، في التاريخ الكنسيّ، المجلد 2، الكتب 6-10، مترجم. جـ. يـ. لـ. بولتون (لندن: William Heinemann، 1932، 326).
وكان هذا أيضاً مذهب الإبيونيّين، وهم طائفةٌ يهوديّةٌ مسيحيّةٌ لربّما أثّرت في بعضٍ من المسيحيّين العرب.

(5) وفقاً إلى المصدر نفسه، 6: 37، سعى أوريجانوس لتصحيح العقيدة غير الأرثوذكسيّة

كتب أوريجانوس في مقدّمة مؤلفه الهكسابلا "alpaxeH" للعهد القديم، أنّه حصل على معلوماته من ترجمات الإنجيل بلغاتٍ مختلفةٍ، ومن ضمنها العربيّة،[1] و يشير ذلك ـ على الأقلّ ـ إلى أجزاءٍ من العهد القديم كانت مترجَمَةً إلى العربيّة النّبطيّة في القرن الثّالث، ومن المحتمل استخدام الخطّ النّبطيّ، ويمكن أيضاً لهذه التّرجمة أن تكون نبطيّةً آراميّةً. وأصبح المسيحيّ العربيّ (فيليب العربيّ) في عام 244م إمبراطوراً على روما، ممّا يدلّ على الدّرجة الّتي وصل إليها المسيحيّون العرب في الإمبراطوريّة الرّومانيّة،[2] ونستدلّ أيضاً على وضع الكنيسة في المنطقة من خلال الوجود الواضح للأساقفة العرب في مجمع نيقيّة عام 325 م وفي المجالس المتعاقبة أيضاً.[3]

و في أوائل القرن الرّابع، كان الخليج العربيّ ومنطقة شمال الجزيرة العربيّة تُحكمان بيد الملك المسيحيّ امرؤ القيس (328-288م)، وكانت عاصمته

الّتي نشأت في المنطقة العربيّة، وهي أنّ الرّوح تموت مع موت الجسد، ويتمّ إحياءهما في القيامة. والجدير بالذّكر أنّ بعضاً من هذه المذاهب استمر في الإسلام، كما في وجهة نظر بيريلوس بشأنّ عدم ألوهيّة يسوع.

(1) ألفريد فـ. بيستون، «موضوعات أساسيّة»، في الأدب العربيّ حتّى نهاية الحقبة الأمويّة، ألفريد فـ. بيستون، تـ. مـ. جونستون، روبيرت سيرجنت، وجـ. ر. سميث (تحرير) (كامبريدج، مطبعة جامعة كامبريدج، 1983)، 22.

(2) انظر يوسابيوس، « Historia Ecclesiastica"، 326، 6: 34. يؤكّد على أنّ فيليب العربيّ هو أوّل إمبراطورٍ مسيحيٍّ. ويسجّل أيضاً أنّ أوريجانوس وافقه في ذلك. فيليب أوقف اضطهاد المسيحيّين، لكنّه لم يقدّم المسيحيّة على غيرها من الدّيانات، وأصرّ على بقاء بعضٍ من التّقاليد الدّينيّة الرّومانيّة في الإمبراطوريّة (مايكل غرانت، الأباطرة الرومان: دليل السيرة الذاتيّة لحكام روما الإمبراطوريّة، 1 قبل الميلاد، 476 ميلادي (نيويورك، 155 ،(Scribner's، 1985.

(3) انظر»العربيّة» في تشارلز هيربرمان، محرر. الموسوعة الكاثوليكيّة (نيويورك: 668 ،(Robert Appleton، 1913، حيث يُقال: إنّ ستّ أساقفةٍ شاركوا في مجمع نيقيّة من المقاطعةِ الرومانيّةِ في المنطقة العربيّة، وكان هناك أيضاً أساقفةٌ من بلاد ما بين النّهرين، والّتي كانت خارج الإمبراطوريّة الرّومانيّة، والّتي تتضمّن المملكة اللّخميّة العربيّة المسيحيّة.

مدينة الحيرة في بلاد الرافدين، والذي امتد حكمه حتّى وصل جنوباً لمنطقة نجران. واستمرّت سلالة بني لخم (المناذرة) كحكامٍ من العرب المسيحيّين حتّى عام 602 م، عندما دُمّرت مملكتُهم على يد الفرس. ووفقاً لبيلامي،(1) كان الحاكم المسيحيّ اللّخميّ هو من عزّز تطوّر الأبجديّة العربيّة، وكتابة الشّعر العربيّ الكلاسيكيّ، و نجا بعضها حتّى الآن.

ويلحظ "بيلامي" نسبةً إلى التّراث العربيّ، ثلاثةً من الرّجال العرب المسيحيّين، وهم: مار عمير و إسلام و عمير، الّذين طوّروا الأبجديّة العربيّة من خلال الأبجديّة السّريانيّة، وعلّموها لشعب مملكة بني لخم. ويُقال: إنّ هذه الأبجديّة وصلت مكّة على يد بشر بن عبد الملك. وقبل تلك المدّة استخدم المكّيّون وعرب الجنوب أبجديّة الخطّ المُسنَد، مع علم أنّها مختلفةٌ جدّاً عن الخطّ السّريانيّ، و أصبح مألوفاً لسكّان بقيّة المنطقة العربيّة.

أمّا بالنّسبة لشمال غرب المنطقة العربيّة (سوريا والأردنّ حاليّاً)، فقد كانت تُحكَمُ بيد المملكة النّبطيّة العربيّة، و قد ضُمّت في عام 106م إلى الإمبراطوريّة الرّومانيّة، وأصبحت تُعرف بمقاطعة «العربيّة»، وبعد عام 363 م حُكِمَت هذه المنطقة بأكملها عبر سلالةٍ مسيحيّةٍ أرثوذكسيّةٍ من الملوك العرب، الذين لم يكونوا من الإمبراطوريّة لكنّهم على تحالفٍ معها. وأيضاً الملكة ماويّة، ملكة السّاراسيين،(2) الّتي حكمت بين عامي 363-378 م، ونجحت في الضّغط على الإمبراطوريّة الرّومانيّة لتعيين موسى من سيناء أسقفاً للسّاراسيين، وقد اشتهر موسى بمعجزاته ضمن مدّة تعيينه

(1) جيمس أ. بيلامي، «الأبجديّة العربيّة»، في أصول الكتابة، و. مـ. سينر (تحرير) (لينكولن: مطبعة جامعة نبراسكا، 1990)، 91 - 102.

(2) جون أ. لانغفيلد، «الآثار المسيحيّة المبكّرة المكتشفة حديثاً في شمال شرق المنطقة العربيّة»، النّقوش والآثار العربيّة 5، رقم 1 (1994): 53. إنّ كلمة «ساراسيين» هي من الكلمة العربيّة «شرقيون». انظر الحواشي السّفليّة في مقالات لينغفيلدت للحصول على مصادره، وهو مصطلحٌ استخدمه الرّومان للإشارة إلى سكّان الصّحراء في إقليم البتراء الرّومانيّ، ثمّ أصبح يُطلق على العرب.

وتبشيره بين القبائل البدويّة، وتمّ إعلانه قدّيساً فيما بعد، وقد نجحت الملكة ماويّة في نهاية المطاف مع الملك زوكومس، الذي تحوّل إلى المسيحيّة بعد ما استُجيب لصلاته، و بدأ زوكومس سلالةً من الملوك المسيحيّين[1]، وفي النّتيجة وفقاً لـ «لينغفيلدت»[2] تجذّرت المسيحيّة بين القبائل العربيّة، وانتشرت بسرعةٍ في أواخر القرن الرّابع، وحتّى أوائل القرن الخامس. ومع حلول القرن السّادس سيطرت المملكة الغسّانيّة المسيحيّة العربيّة على كامل سوريا وفلسطين والأردنّ، وتوسّعت جنوباً حتّى وصلت تقريباً إلى يثرب (المدينة). وتنافست مع مملكة المناذرة المسيحيّة العربيّة في بلاد الرّافدين و الخليج العربيّ.

أمّا الشّعب في جنوب شبه الجزيرة العربيّة واليمن، والتي أطلق عليها الرّومان تسمية (العربيّة السّعيدة) فقد اعتنق اليهوديّة قرابة القرن الرّابع الميلاديّ، لكن بحلول القرن السّادس تحوّل الكثير منهم إلى المسيحيّة، وكان بناء الكنيسة في نجران ضخماً جدّاً، حتّى تمكّن اليهود المسيطرون فيها من إجبار ألفي شخصٍ للدّخول إليها قبل أنّ يشعلوا النّار فيها![3] وفي صنعاء (اليمن) كانت هناك كاتدرائيّةٌ، ربّما كانت أضخم من سابقتها من حيث المساحة، والتي بناها الملك أبرهة،[4] شاهدةً حتّى يومنا هذا.

---

(1) عرفان شهيد، بيزنطة والعرب في القرن الخامس (كامبريدج، ماساتشوستس: مطبعة جامعة هارفرد، 1989)، 3 – 8.

(2) لينغفيلدت، «آثار مسيحيّة مبكّرة»، 53.

(3) المصدر نفسه، شهداء نجران؛ رينيه تاردي، Najrân: Chrétiens d'Arabie avant l'Islam (بيروت: دار المشرق، 1999)؛ و سبيستيان بـ. بروك و سوزان أشبورك هارفي، المرأة المقدسة في المشرق السرياني، طبعة محدّثة، المجلّد 13(لوس أنجلوس: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1998) الفصل 4، ص 105.

(4) ألفريد جيوم ومحمّد بن إسحاق، حياة محمّد (السيرة): ترجمة لكتاب ابن إسحاق «سيرة رسول الله»، مع مقدمة وملحوظات (نيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد،2002 [1955])، 21.

يوفّر لنا «لينغفيلدت» مزيداً من التّفاصيل المتعلّقة بالوجود المسيحيّ:

ويظهر لنا ملخّصٌ مختصَرٌ للقرن الرّابع وحتّى القرن السّابع الميلاديّ، العديد من التّجمّعات القبليّة في المناطق المسمّاة الآن الأردنّ وسوريا والعراق، والتي اعتنقت الدّيانة المسيحيّة، بما في ذلك مملكة تنوخ، واتّحاد قبائل بني كلب وتميم وتغلب وبني أيّوب، وأكثر القبائل في الحجاز و النّفود و نجدٍ و اليمامة والبحرين، تلك كلّها أقسامٌ من السّعوديّة حاليّاً، وقد غادر جزءٌ كبيرٌ من قبيلة كِندة حضرموت اليمن في القرن الرّابع وهاجروا إلى نجد، وبحلول القرن الخامس، تمّ الاتحاد مع مَعْدٍ. وامتدّ هذا "الاتحاد" على مساحةٍ تمثّلت برحلة يومين إلى الشّرق من مكّة والشّمال الشّرقيّ، لتشتمل على ما يتوسّط كامل الجزيرة العربيّة كجزءٍ من التّحالف مع الإمبراطوريّة البيزنطيّة في السنين الأولى من القرن السّادس، واعتنق اتّحاد قبائل كِندةَ الدّيانة المسيحيّة. ونجد عدداً كبيراً من شعب اليمامة مستقرّين في منطقة الرّياض (منذ منتصف القرن الرّابع) وهم مسيحيّون، كما الحال في التّجمّع القبليّ الكبير لقبائل بكر بن وائلٍ في المناطق الوسطى والشّرقيّة.

نجد في الجنوب الغربيّ للمنطقة العربيّة حضوراً مسيحيّاً قويّاً ضمن نجران، والتي ذُبح فيها عام 523 م ما يقرب من 2000 مؤمنٍ، و وُجدت المسيحيّة في الحجاز أيضاً وفي مناظرةٍ شعريّةٍ بطريقة الذّمّ على الشّاعر الأمويّ جميل (701م)، نجد رجلاً مسيحيّاً من قبيلة "عذرة" وهي بطنٌ من قُضاعة، اسمه جعفر بن سراقة، قد شهد لرهبانٍ مسيحيّين من سكّان وادي القرى قرب المدينة، أي أنّ قبيلة عذرة كانت مسيحيّة، و ربّما كان ذلك في القرن الخامس الميلاديّ، وحافظت على إيمانها بشكلٍ جيّدٍ حتّى الحقبة الإسلاميّة، و نجد دليلاً على ذلك في وجود الأديرة المسيحيّة كمواقعَ استراتيجيّة على طرق القوافل، ومن كتابات المقدسيّ الأزرقيّ وبعضٍ من المصادر الإسلاميّة الأخرى نجد التّالي: أ- مقبرةٌ للمسيحيّين (مقبرة

النّصارى) ومكان استراحةٍ يُدعى (موقف النّصارى) ضمن أو بالقرب من مكة، بـ - مسجدٌ أو مصلّى مريم، الموجود خارج مكّة على الطّريق إلى لمدينة، ومن المُحتَمَل تحوّله إلى مسجدٍ بعد أنّ كان كنيسةً، بما أنّ القرآن يتضمّن سورةً لمريم العذراء. وعندما دخل محمّدٌ الكعبة 630م، وجد لوحاتٍ للعذراء مريم ويسوع جنباً إلى جنب على الأعمدة مع إبراهيم والأنبياء.(1)

لذلك - و كما يلحظ - "لينغفيلدت" فقد هيمنت المسيحيّة على المشهد الدّينيّ العربيّ في معظم الجزيرة العربيّة قبل الإسلام، وكان "الولاءَ الدّينيَّ الرّئيسَ للأكثريّة العظمى من السّكّان" حتّى بعد ظهور الإسلام.(2)

ويلخّص "دانيال بوتس" في مجلّدين "تاريخ الخليج العربيّ في العصور القديمة" مع لحظٍ مشابِهَةٍ:

"كما رأينا، كانت المسيحيّة واسعة الانتشار بين كلٍّ من المجموعات المستقرّة على طول السّاحل، و قبائل شمال الجزيرة العربيّة. وليس من الخطأ القول بكلمةٍ واحدةٍ: إنّ الكنيسة النّسطوريّة الّتي استمرّت لما يزيد عن ثلاثة قرونٍ، قد وحّدت المنطقة المحكومة بيد الملوك من المدرسة المدنيّة من

---

(1) لينغفيلدت، "Early Christian Monuments"، 53.

(2) المرجع نفسه. مع ذلك لا ينبغي عدّ المسيحيّة العربيّة موحّدةً أو أنها كانت أرثوذكسيّة. العديد من اليهود تحوّلوا لليهوديّة المسيحيّة النّاصريّة أو الأبيونيّة. ذهب أوريجانوس إليهم في عام 214 و 246 لتصحيح العقيدة غير التّقليديّة الّتي نشأت في الجزيرة العربيّة، وهي أنّ موت الرّوح يكون مع موت الجسد، وتتمّ استعادته في القيامة. نسبةً إلى إبيفانيوس، كتب في 375، أنّ بعضاً من المسيحيّين في المنطقة العربيّة قاموا بعبادة مريم على أنّها من الآلهة وقدّموا لها القرابين Panarion 79 وفي عام 381، بعد المجلس المسكونيّ في القسطنطينيّة، طرد الإمبراطور الرّومانيّ ثيودوسيوس من كلّ الكنائس أيّ شخصٍ لم يؤمن بقانون "نيقيّة"، والكثير من المهرطقين انتقلوا للممالك العربيّة الأخرى. يوافق القرآن على أكثر المذاهب اليهوديّة المسيحيّة ويخالف باقي المذاهب المسيحيّة، لكن يتمّ تجاهل العقيدة الأبرز وهي نيقيّة المسيحيّة.

سرجون إلى شابور، وتُعدّ مدّة حكمهم الأكثر سيطرةً بكلّ معنى الكلمة".[1]

إذاً فقد كانت المسيحيّة حاضرةً في جميع أنحاء المنطقة العربيّة، حتّى عند ظهور الإسلام، وسيطر المسيحيّون على الممالك العربيّة الّتي تمّ تقسيمها على الشّكل التّالي:

الغساسنة والمناذرة وحمير (اليمن)، وكندة (جنوب الجزيرة العربيّة). و كان الوجود المسيحيّ ضعيفاً في المدن الّتي تقع خارج هذه الممالك، لاسيّما مكّة ويثرب (المدينة)، وهي الأماكن ذاتها الّتي أنجبت الإسلام، لكنّ قبيلة "عذرة" في مكة كانت مسيحيّةً، و ثلاثةٌ أو أكثرُ من القبائل اليهوديّة في يثرب (المدينة). وبما أنّ المسيحيّة انتشرت على نطاقٍ واسعٍ بين العديد من القبائل العربيّة مع الوجود اليهوديّ الواضح، فإنّ اسم الله خالقِ الكون في إنجيلهم، كان معروفاً بين العرب. وفيما يلي سوف نكشف الاسم المستخدم من قِبلهم للإشارة للخالق.

استخدمت الأسماء المسيحيّة مصطلح الله قبل الإسلام، وتضاربت التّكهّنات بأنّ بعضاً من الكنائس العربيّة قبل الوجود الإسلامي قد طوّرت اللّيتورجيا والنّصوص المقدّسة باللّغة العربيّة في القرن الرّابع أو الخامس. ويعتقد عرفان شهيد[2] بأنّ هذه التّكهّنات ممكنةٌ، ويؤكّد بكلّ ثقةٍ وجود الشّعر العربيّ المسيحيّ قبل الإسلام، ويشاركه "كينيث كراج"[3] هذا الاعتقاد. ويسرد لنا "تريمنغهام" أسماء خمسةٍ من الشّعراء العرب المسيحيّين قبل الإسلام،[4] أولئك الذين استعانوا باسم الله عند تحدّثهم بالعربيّة؛

(1) دانيال تـ. بوتس، الخليج العربيّ في العصور القديمة، المجلّد الثّاني (أكسفورد: كلاريندن، 1990)، 353 .

(2) شهيد، بيزنطة والعرب، 528 وما يليها.

(3) كينيث كراج، المسيحيّون العرب: تاريخ في الشّرق الأوسط (لويفيل، Westminster John Knox، 1991).

(4) النّابغة الذّبياني (تُوفيّ 604 م)، جرير بن عبد المسيح (تُوفيّ 580م)، أبو داود

ويُظْهِر شعرُ النّابغة الذّبيانيّ الذي بقي حاضراً حتّى يومنا هذا استخدامَ مصطلح الله.

إنّ أقوى الأدلّة على استخدام الاسم العربيّ الثّيوفوري يأتي على شكل نقشٍ حجريٍّ، مثل الأسماء العربيّة المركّبة مع اسم الإله. حيث إنّ الكلمة الّتي نجدها معظم الأحيان في النّقوش الباقية هي [ʻlh]، وتُلفَظُ صوتيّاً [الله][1]، وأحياناً يُختصر، أو يُكتب بالشّكل العبريّ[ʻl][2].

الإياديّ، أوس بن حجر، وميمون بن قيس (الأعشى، توفي 625م). يلحظ تريمنغهام، في «المسيحية بين العرب» ص. 177، 201، أنّ الشّعر المتبقّي لا يركّز على موضوعاتٍ مسيحيّةٍ.

(1) بما أنّ تضاعف الأصوات السّاكنة لم يكن موجوداً عادةً في النّقوش السّريانيّة والعربيّة القديمة»، فيمكن أنّ يتمّ لفظ إله مع لـ واحدة أو اثنتين. نطقها غونزاغو ريكمانز، Les noms propres sud-sémitiques (لوفان، بلجيكا: Universitaires، 1934 - 1935)، على أنّها إله، تحت تأثير أطروحة فلهاوزن حول تطوّر الهينوثيّة في تاريخ متقدّم. يعترض فيدريك فيكتور وانيت على هذا الرّاي في "الله قبل الإسلام"، العالم الإسلامي 28 (1938): 247، مقدّماً دليل لغوي بالنّسبة لمصطلح الله: «لا أحد يشكّ في أنّ هذا الاسم الثّيفوريّ يرتبط بكلمة «الله»عندما نشاهد أسماءً مثل W-h-b-'-l-h و W-h-b-'-l-h-y في النّبطيّة، لكنّه لا يُعبّر عن كلمة الإله بشكلٍ جيّدٍ، لأنّ الكلمة النّبطيّة «allāhā» هي الّتي تشير إلى الله، وهي تحتاج إلى الألف في نهايتها بعد ha كما في النّقش. كما أنّ التّرجمات اليونانيّة لهذه الأسماء السّاميّة تُعدّ دليلاً آخر على الأسماء الثّيفوريّة الّتي ينبغي أنّ تُقرأ (الله). و إذا اعترفنا بأنّ هذه الأسماء هي أسماء الله كما تظهر في النّبطيّة، فعلى أيّة قاعدةٍ نستطيع إنكار هذه الأسماء بما أنّها ظهرت أيضاً في تفسير النّقوش اللّحيانيّة أو الثّموديّة؟ عندما يتمّ العثور على الأسماء العربيّة في النّصوص والنّقوش اليونانيّة، يتضاعف الحرف λ. وهذا يعني مضاعفة اللّام العربيّة، كما في كلمة الله. وعلى سبيل المثال، يبيّن العثور على الاسم العربيّ الشّائع 'wahab allâh' أي وهب الله كما هو مكتوبٌ في العربيّة القديمة whb'lh، ولكن في اليونانيّة Ουαβαλλας، بوضوح تضاعف اللّام في وقتٍ مُبْكِرٍ. انظر أيضاً أنتونين جوسن ورفائيل سافيناك، Mission archéologique en Arabie، المجلّد 4، (باريس، Leroux، 1914)، 264، مُقتبسة في مايكل أ. سـ. ماكدونالد، "الأسماء الشّخصيّة في العالم النّبطي"، مجلة الدّراسات السّاميّة 44، رقم 2 (1999): 275.

(2) هناك أدلّةٌ أدبيّةٌ حول استخدام عبارة al-ʾilāh "الإله" للدّلالة على الكائن الأسمى في العصر الجاهليّ، ولكنّ هذا لا يظهر في الأدلّة الكتابيّة الجاهليّة، أو في

لا يوجد أيّ دليلٍ لمصطلح آخر يشير إلى الله ليُستخدم في هذا الموضع، مثل الكلمة اليونانيّة (ثيوس) أو العبريّة (أدوناي) أو (إلوهيم) على الرّغم من وجود اسم يهوه في بعضٍ من الأحيان، كجزءٍ من الأسماء اليهوديّة.[1]

يتضمّن جدول هاردينغ[2] للأسماء والنّقوش ما قبل الإسلام الملحوظة التّالية: هناك ميزةٌ تبرز بوضوحٍ جداً في هذه القوائم (الأسماء الثّيوفوريّة) وهي الأسماء الشّعبيّة المهيمنة ['l] و ['lh]، في حين تحمل العديد من النّقوش الإحفوريّة أسماءً ثيوفوريّةً رُكّبت مع أسماء الآلهة الوثنيّة، وكان هناك عددٌ "هائلٌ" من الأسماء الثّيوفوريّة الّتي أُدرجت['lh] [ałłâh] وأيضاً الشّكل المختصر['l]. ويُظهِرُ الاستخدامُ الشّائع لهذه المصطلحات قبل قرنين من الزّمن ربط الإسلام لهذه الأسماء بالانتشار الموثّق للمسيحيّة

الأسماء ما قبل الإسلام. في وقتٍ لاحقٍ نجد اسم al-'ilāh" "عبد الإله"ومعناه خادم الله الحقيقيّ.

(1) تلحظ جين تايلير في البتراء ومملكة الأنباط المفقودة لندن: Tauris، 2001، 168، أنّه من بين 7000 نقشٍ نبطيٍّ في سيناء (معظمهم من القرن الأوّل والثّاني بعد الميلاد)، لا يذكر أيّاً من الأسماء الثّيفوريّة آلهة نبطيّة تقليديّة. هناك أسماءٌ تندمج مع مصطلح الله مثل الأسماء الّتي تندمج مع مصطلح el' "ايل" أو ba'al "بعل" (الّتي قد تعني لإله الكنعانيّ "بعل" ولكن من المرجّح له أحياناً أنّ يكون بمعناه العاديّ المتمثّل في "الرّبّ" أو "الزّوج").لكنّها تلحظ أيضاً أسماء مثل: "abd›hyw"، «bdyw‹«"،"šm›yw"، الّتي يبدو أنّها "تتعلّق بعبادة يهوه". إضافةً إلى النّبطيّة، وفي مراجعة «Les religions arabes préislamiques"، مجلة الجمعية الشرقيّة الأمريكيّة 72، رقم 4 (1952): 178، يستشهد فريدريك فيكتور وانيت (1952) بالأدلّة الكتابيّة في شمال المنطقة العربيّة بالنّسبة للأسماء الثّيفوريّة الّتي تنتهي بـ -yah (أي يهوه)، وكذلك الله. انظر "Review of Les religions arabes préislamiques by G. Ryckmans"، مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية 72، رقم 4 (1952): 178. يلحظ المرء أنّ أيّاً من هذه الأسماء أو كلّها يمكن أنّ تكون أسماءً يهوديّةً، بما فيها تلك الّتي تندمج مع بعل، وحتّى أنّها قد تنتمي إلى اليهوديّة أو المسيحيّة أو اليهود المسيحيّين العرب.

(2) جيرالد لانكستر هاردنغ، فهرس وتوافق الأسماء والنّقوش قبل الإسلام (تورونتو: مطبعة جامعة تورونتو، 1971)، 907.

في معظم أنحاء المنطقة العربيّة خلال المدّة ذاتها.[1] وقد استخدم العرب عدداً من المخطوطات، لكنّ النّصوص الّتي نطلق عليها الآن تسمية "المخطوطات العربيّة" لم تكن قد تطوّرت حتّى القرن الخامس أو السّادس الميلاديّ، حيث إنّ الأقرب تاريخيّاً من النّقوش المؤرّخة بالعربيّة هو نقش زبيد، وقد أُدرج هذا النّقش في شاهدة قبرٍ لأحد الشّهداء المسيحيّين عام 512 م، حيث خُطّت النّصوص باللّغة اليونانيّة والسّريانيّة والعربيّة.[2] وتضمّن النّصّ العربيّ اسماً أو عنواناً فيه إشارةٌ للخالق على أنّه الله،[3] وذلك

---

(1) راجع جيوم و ابن إسحاق، حياة محمّد (السيرة)، 18. من المفيد لو قام أحدهم بصنع خريطةٍ تصف المواقع العربيّة قبل الإسلام، لربط توزّع المسيحيّين مع الأدلّة الكتابيّة من الأسماء الثّيفوريّة الّتي تستخدم مصطلح الله. غير أنّ هذا الأمر معقد لأنّ الوثائق المتعلّقة بالنّقوش موزعة على مجموعة كبيرة، بحيث ترقى قائمة الكتب والمقالات ذات الصّلة ــ كينيث أ. كيتشن، توثيق المنطقة العربيّة القديمة، الجزء الأوّل: الإطار الزمني والمصادر التاريخية (ليفربول: مطبعة جامعة ليفربول، 1994) ــ لتصل إلى 821 صفحةً، وفهرس الأسماء ــ هاردنغ، فهرس وتوافق ــ ترقى لتصل إلى 943 صفحةً.

(2) لمراجعة التّواريخ والأدب، انظر بياتريس غروندلر، تطوّر المخطوطات العربيّة: من الحقبة النّبطيّة إلى القرن الأوّل الإسلامي وفقا لنصوصٍ مؤرّخة (أتلانتا: علماء، 1993). وهناك أيضاً نقشٌ على كنيسةٍ في جبل رم يُعتقد أنّه من القرن الرّابع أو الخامس، ولكنّه ليس مؤرّخاً ولا يشتمل على كلمة «الله». أيضاً هناك نقشان عربيّان مبكّران مكتوبان بالحروف النّبطيّة، وهما نقش عين عبدات من القرن الثّاني الميلاديّ، ونقش النّمارة أو حجر نمارة للملك المسيحي العربيّ بنقش إمرئ القيس من حراء، المؤرَّخ 328 م، ولكن لا يشتمل النّقش على إشارةٍ إلى الإله. وتوجد نقوشٌ عربيّةٌ مبكّرة مثل نقشٍ يعود للقرن الأوّل مكتوباً بالخطّ المسند في الفاو، في جنوب المنطقة العربيّة، ولكنّها لا تتضمّن مصطلح الله أو أيّة إشارةٍ أخرى إلى الله. طلاع على فهرس من النقوش واللهجات العربية في وقت مبكر، انظر مايكل سـ. أ. ماكدونالد، «تأمّلات عن الخريطة اللّغوية في المنطقة العربيّة قبل الإسلام»، علم الآثار العربيّة والنّقوش 11، رقم 1 (2000): 28-79.

(3) تمّ العثور على ألواح تصويريّة في أدولف غرومان، Arabische paläographie II: Das schriftwesen und die lapidarschrift (فيينا: Hermann Böhlaus Nochfolger ، 1979)، 6-8. قد يُلفظ الحرف "ل" مضعّفاً. تمّ العثور على مصطلح الله في بداية قائمة أسماء الشّهداء المسيحيّن، ولكن ليس من الواضح ما إذا كان هو جزءاً من اسم يعني "بعون الله"، أو مجرّد عنوانٍ للقائمة،

يبيّن أنّ المسيحيّين قبل الوجود الإسلاميّ، استخدموا هذا المصطلح عند الإشارة إلى الخالق باللّغة العربيّة، وتمّ ذلك بالطّريقة ذاتها الّتي استخدموا فيها كلمة alâh(â) للإشارة إلى الله في السّريانيّة.

يتقاطع هذا الدّليل الأثريّ أيضاً مع المصادر التّاريخيّة، فعلى سبيل المثال، يقال: إنّ اسم أحد القادة المسيحيّين الذي استُشهد في نجران في عام 523 م كان "عبد الله بن أبي بكر بن محمّد"، إن "عبد الله" لا يحمل اسماً ثيوفوريّاً فقط، بل يُقال أيضاً: إنّه كان يلبس في يده خاتماً نُقش عليه عبارة "الله هو سيّدي"،[1] و بالمثل عندما قِام أربعةٌ من أهمّ الرّجال في مكّةَ بنبذ عبادة الأصنام، من أجل عبادة الله وحده، ضمن بحثهم عن الدّين الحقّ، كان الله مقصدَهم، و وجده ثلاثةٌ منهم في المسيحيّة.[2]

يوجد دليلٌ آخر على أنّ الهينوثيّة / الهينموسيزم كانت منتشرةً بين الوثنيّين العرب، ومثال ذلك، اعترافهم بأنّ الله المذكور في الإنجيل هو سيّد وخالق الكون، لكن مع استمرارهم في استرضاء بقيّة الآلهة الأدنى بدلاً من عبادة الله وحده، وبطبيعة الحال، كان الوثنيّون يسمّون أبناءهم بأسماءٍ مسيحيّةٍ، حيث أنّ وجود الأسماء الثّيوفوريّة مثل عبد الله و دانيال، لا يعني بالضّرورة أنّ حامليها من صُلب أبوين يهوديّين أو مسيحيّين.

ينعكس ذلك في القرآن في آياتٍ مثل (سورة العنكبوت، الآيات 61-63) والتي تتكلّم عن الوثنيّين العرب الذين رفضوا رسالة محمّدٍ:

"من خلال مساعدةٍ من الله". إنّ لفظ "الله" هو صوتيٌّ، مع حرف العِلّة الثّاني الطّويل الألف: 'l'h (الكتابة العربيّة: إلاه)، وهو أمرٌ طبيعيٌّ لحروف العِلّة الطّويلة في اللّغة العربيّة. لكنّه في أماكن أخرى يُكتب من دون وضع حرف العِلّة الطّويل، ربّما لأنه لم يُلحظ في اللّغة الآراميّة اليهوديّة والمسيحيّة السّريانيّة.

(1) جيوم وابن إسحاق، حياة محمّد (السيرة)، 18.

(2) المصدر ذاته، ص. 98-103.

{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ، اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ! قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ! بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}.

وعلى سبيل المثال، فقد كان اسم والد محمّدٍ عبد الله، يبدو أن جدّ الرّسول عبد المطّلب، كان هينوثيّاً أكثر من كونه توحيديّاً، وهو الشّخص الذي قام بتسميته عبد الله.(1)

باختصارٍ، هناك أدلّةٌ مكتوبةٌ حول استخدام المسيحيّين قبل الإسلام لمصطلح "الله" في الإشارة إلى الخالق، حيث لا يوجد أيّ دليلٍ على استخدامهم أسماءً أخرى بدلاً من اسم الله، كما أكّد كوكس،(2) على أنّ «الله» هو الكلمة الوحيدة في العربيّة للإشارة إلى الخالق، وهذه الكلمة متشابهةٌ أيضاً مع العبريّة والآراميّة المستخدمة في الإنجيل، و قد تمّ استخدامها من اليهود، والمسيحيّين النّاطقين بالعربيّة للإشارة إلى الخالق ضمن الوثائق المتوافرة لدينا.(3)

---

(1) راجع المرجع السّابق أيضاً، 66 ـ 68.

(2) بوب كوكس، «إتيمولوجيا».

(3) يمكن لحظ الكلمة ʻilāh و ʻelāh الّتي تشير إلى الإله في اللّغة العبريّة الأولى، لكنّ حرف العِلّة تمّ تحويله ومضاعفته ليصبح /o/ في المقاطع المشدّدة، ممّا أدّى لتغيّر الشّكل إلى ʻeloh. وهي كلمة شائعة عن الله في النّصوص المقدّسة العبريّة، كما هو الحال في المزمور 18: 31 (لأَنَّهُ مَنْ هوَ إلهٌ غيرَ الرَّبِّ؟)، على الرّغم من استخدام هذه الكلمة في سفر أيّوب وسفر الأمثال 30 للإشارة إلى الله. أمّا في الآراميّة فنجد أنّ تحوّل حرف العِلّة أقلّ تشديداً ولفظاً من الصّوت الطّويل /ā/ إلى صوت /a/، والمكتوب هنا على أنّه /â/. وفي بعضٍ من اللّهجات يُلفظ على أنّه[] كما هو الحال في البريطانيّةʼoughtʻ و تمّ بعدها لفظه[o] كما في "كودا". لكن في العربيّة بقيت كلمة ʻilāh للإشارة إلى "الله". لكن للإشارة إلى الإله الحقيقيّ الواحد، تمّ استخدام الكلمة الآراميّة "الله". وتضاعف حرف اللّام في مرحلةٍ مُبْكِرَةٍ، ممّا أدّى إلى الشّكل الحاليّ وهو "الله"، لكن مع كلا اللّفظين كُتبت الكلمة كـ "ʻlh"، على الأقلّ حتّى القرن السّابع لميلادي.

تُظهر التّرجمات العربيّة للإنجيل الاستخدام المسيحيّ لمصطلح «الله» قبل الإسلام، وقد نشر «برونو فيولت»[1] جزءاً ثنائيّ اللّغة من المزمور 78 [77 في LXX]، المكتشف في دمشق، والمتضمّن عموداً واحداً لنصّ يونانيٍّ، وعموداً آخر موازياً له لترجمةٍ عربيّةٍ بالحروف اليونانيّة. أمّا "ميشيل ماكدونالد"[2] وهو عالمٌ في الباليوغرافيا" وخبيرٌ في المخطوطات العربيّة القديمة، حيث قيّم هذا النّصّ على الشّكل الآتي:

بعد دراسةٍ مفصّلَة لهذا النّصّ، وأنا مقتنعٌ بأنّه يرجع لما قبل الإسلام. نجد أنّ هذا النّصّ هو الأكثر قيمةً في اللّغة العربيّة القديمة والمكتشفَة إلى الآن، حيث إنّ الحروف اللّاتينيّة بدت مخطوطةً بعنايةٍ فائقةٍ ومنسّقةً بطريقة الإلقاء الشّفوي على الخطّاط، وهي غير معقّدةٍ نسبةً إلى الطّريقة الإملائيّة في وثائقَ أخرى".[3]

نجد ضمن هذا السّياق المصطلح اليونانيّ ho theos في الفقرات 22-31-59، و قد تمّت ترجمته إلى العربية ليصبح αλλαυ (الله)؛ (حيث إنّ حرف الهاء في العربيّة تُرجم بوساطة حرف /υ/ إبسلون اليونانيّ، كما يظهر في هذه المخطوطة)، و يلحظ المرء أيضاً حرف /ā/ لامبدا اليونانيّ بشكلٍ مكرور؛ يدلّ ذلك على أنّ حرف اللّام العربيّ، يجب أنّ ينطق بشكلٍ مكرورٍ منذ ذلك الوقت، مع علم عدم وجود أيّ تضاعفٍ للأحرف، أو

(1) برونو فيولت، «Ein zweisprachiges Psalmfragment aus Damascus A Bilingual Psalm Fragment from Damascus]]"، Orientalistische litteratur zeitung 4، رقم 10 (1901): 384-403.

(2) مايكل ماكدونالد، «الشّمال العربيّ القديم»، في موسوعة كامبريدج للغات العالم القديمة، محرر. ر. د. وودورد (كامبريدج، مطبعة جامعة كامبريدج، 2004)، 50.

(3) وتماشياً مع أطروحة سيدني غريفِث العامّة، في»الإنجيل بالعربيّة»، Cristianus 69 (1985): 134، اقترح تاريخ القرن الثّامن.

ما يشبه حرف العِلّة / a/[1] في اللّغة العربيّة القديمة، ويوفّر هذا الدليل اليونانيُّ المزيدَ من الدّعم لمزاعم وانيت[2] بأنّ lh في الأدلّة المنقوشة تلفظ على أنّها "الله".

تُرجم العهدُ الجديدُ أو بعضٌ من أجزائه إلى اللّغة العربيّة مرّاتٍ عدّة، وقد قارن "قشوع"[3] في مئتين وعشر نسخةٍ قديمةٍ مترجَمةٍ، ومتنوّعة للأناجيل من العصور الوسطى، وميّز بينها اثنتين وعشرين ترجمة مختلفة من حيث التّراث المستخدَم، ويعود تاريخ هذه المخطوطات لما بعد عصر الإسلام، لكن وعلى الرّغم من اختلاف الباحثين حول هذه المسألة، فهناك أدلّةٌ على وجود ترجمةٍ للإنجيل قبل الإسلام.[4]

يُقال: إنّ ورقة بن نوفل قد ترجم العهد الجديد وأقساماً أخرى مقدّسة من الإنجيل إلى اللّغة العربيّة، وذلك في مكّةَ حوالي القرن السّادس الميلادي. وكتب بن إسحاق (المتوفّى عام 761.م): إنّه في عام 570.م تم العثور على حجر من حجارة الكعبة وقد كُتب عليه، وهو يظهر بوضوحٍ أنّ مصدر

(1) ماكدونالد، «الأسماء الشّخصيّة»، 271.

(2) وانيت، «الله قبل الإسلام»، 247

(3) حكمت قشوع، مراسلات شخصيّة، 2006. إنظر قشوع، الأناجيل العربيّة: تصنيف ووصف وفحص نصّي لمخطوطات الإنجيل العربيّ (بيريمغهام: جامعة بيريمغهام، 2007)

.http: //syneidon.org.uk /Hikmat.htm

(4) يقول المستشرق انطون بومشتارك، «أقدم نص يوناني عربي محفوظ عن المزمور 110 [109]"، Oriens Christianus 31، 1934، إنّ الإنجيل وسفر المزامير تُرجما إلى العربيّة قبل الإسلام. ولكن غريفِث لم يوافق على ذلك في كتابه "الإنجيل بالعربيّة"، 166، مشيراً إلى أنّه نظراً لعدم وجود مخطوطات عربيّة مؤرّخة من الحقبة السّابقة للإسلام، "فيمكن لأيّ شخصٍ القول عن إمكان وجود النّسخة المسيحيّة من الإنجيل باللّغة العربيّة ما قبل الإسلام، لكن لا يوجد أيّة علامةٍ تؤكّد الوجود الفعليّ حتّى الآن". يبدو أنّ حكم غريفِث رافضٌ جدّاً، ومع ذلك، لأنّ وجود بعضٍ من المخطوطات المؤرّخة في تلك الحقبة وبلغاتٍ أخرى، وتأريخ مخطوطاتٍ لاحقةٍ أيضاً، فإنّه عادةً ما يكون تاريخ النّسخ بدلاً من تاريخ التّرجمة الأصليّة.

الكلمات المقتبسة في النّقش المذكور هو إنجيل مَتَّى 7: 16.[1] ويقدّم عرفان شهيد[2] دليلاً على امتلاك المسيحيّين في نجران لإنجيلٍ مكتوبٍ بلغتهم قبل عام 520 م، أي إنّه مكتوبٌ بلهجتهم العربيّة، وقد كُتب بالخطّ المُسنَد. ويستشهد «تريمنغهام»[3] بميخائيل السّريانيّ، بوقائع القرن الثّاني عشر الّتي تفيد بأنّ يوحنّا سدرة بطريرك أنطاكيّة، قام في أوائل القرن السّابع الميلاديّ بترتيب الإجراءات اللّازمة لإصدار «أوّل ترجمةٍ للأناجيل الأربعة» إلى اللّغة العربيّة لتُستخدم من العلماء المسلمين، لكنّ ترجمته لم تصمد إلى وقتنا الحاضر، ربّما باستثناء رسالةٍ من يوحنّا والّتي اقتبس منها ابن إسحاق.[4]

---

(1) جيوم وابن إسحاق، حياة محمّد (السيرة)، 86.

(2) شهيد، شهداء نجران، 249–250.

(3) تريمنغهام، المسيحيّة بين العرب، 225.

(4) لمناقشة الاقتباس الموجود في ابن إسحاق، وعلاقته بفصول الإنجيل الفلسطيني السرياني، والعلاقة الممكنة مع ترجمة يوحنا سدرة، انظر غريفث، «الإنجيل بالعربيّة»، 137؛ (1985: 137)، جيوم وابن إسحاق، حياة محمّد، 104؛ جيوم، " نسخة الأناجيل المستخدمة في المدينة حوالي عام 700 ميلادي»، الأندلس 15 (1950): 289–296. وفقاً لميشيل، فقد طلب علماء المسلمين من يوحنا سدرة أنّ يستخدم المصطلحات الّتي كانت مقبولة لهم في الترجمة؛ و يقول مايكل أنّ يوحنا قاوم، لكن المقطع الّذي رُوي عن ابن إسحاق واضح سياقيّاً، في أنّ كلمة "الأب" تمّت ترجمتها لتصبح "رب"، والّتي أصبح معناها فيما بعد "الرزاق أو البطريرك أو رب الأسرة"، في حين أنّ المعنى الصحيح للكلمة والموجود في المخطوطات المسيحية العربيّة يؤكد أنّ كلمة"رب" تُرجمت عن κύριος والّتي تعني "سيد/ Lord". ورغم أنّ تريمنغهام يستشهد بكلام مايكل كجزء من حجته في أنّ الكنائس العربيّة قد استخدمت الطّقوس الدّينيّة الآرامية ونصوصها المقدّسة بدلاً من العربيّة، إلّا أنّه من غير الواضح ما يكمن في أصل هذه الرّواية، من المحتمل أنّ تعتبر أول ترجمة للأناجيل الأربعة في اللغة العربيّة، أو الترجمة الأولى الّتي استخدمت الخط العربي الجديد، أو الّتي اعتُمدت من الكنيسة السّريانيّة الأرثوذكسية، أو الأولى لعلماء المسلمين، أو أول ترجمة تضمنت «الأناجيل الأربعة منفصلة»، على عكس الإنجيل الرّباعي. حيث أنّ توافق الإنجيل الرّباعي كان النموذج القياسي للإنجيل باللغة السّريانيّة حتى القرن الخامس، أما الإنجيل الرّباعي العربي الّذي نجا حتى اليوم تمّت ترجمته أو تنقيحه من عبد الله بن الطيب في القرن العاشر.

يُعدّ تدمير الأديرة من أهم الأسباب لفقدان العديد من التّرجمات، لكنّ نسخ كثير من التّرجمات قد نجت، ويمكن الاطّلاع عليها في العديد من المكتبات والمتاحف.

يقدّم الجدول التّالي قائمة بالتّرجمات العربيّة الأساسيّة للإنجيل ضمن العصور القديمة والوسطى، الّتي قمت بفحصها،[1] ونجد تاريخ هذه المخطوطات الباقية، والمصدر الواضح، ولغة المصدر في التّرجمة،[2] حيث التّرجمة الأقرب تاريخيّاً في البداية.

(1) أشكر كينيث بيلي لإقراضي نسخاً و أفلام تصورية للكثير من هذه المخطوطات، ذلك لأحصل على نسخة عنهم. وأيضاً لبريند-جان ديكن، لأنه زودني بنسخ رقمية و أفلام تصورية عن بعضٍ من المخطوطات المكتبية.

(2) لمناقشات عن الأصل انظر جورج غراف، Die Christlich-arabische literatur bis zur fränkischen zeit (ende des 11. jahrhunderts): Eine literarhistorische skizz (فرايبورغ في بريسغاو، ألمانيا: Hercer، 1905)؛ بروس ميتزجر، «الإصدارات العربيّة الأولى للعهد الجديد»، في اللغة والثقافة والدين؛ تكريماً ليوجين أ. نيدا، محررون. مـ. بلاك و و. أ. سمولي (لاهاي: Mouton، 1974)، 157-68؛ كينيث بيلي، إيجاد المفقود: مفاتيح ثقافيّة إلى الفصل 15 من إنجيل لوقا (سانت لويس: Concordia، 1989)؛ وأيضاً غريفث، "الإنجيل بالعربيّة".

الجدول أ. التّرجمات العربيّة الباقية للعهد الجديد أو أجزاءٍ منه:

اسم النسخة العربيّة	اللّغة المصدر	مكان المصدر	تاريخ المصدر	تاريخ المخطوط
الأناجيل الفلسطينيّة (١)	يونانيّ	فلسطين	ربّما قبل الإسلام	القرن التّاسع حتّى الحادي عشر
مخطوطة الإنجيل - لايدن (2)	سريانيّ	غير مؤكّدٍ	على الأرجح قبل الإسلام	القرن العاشر
الفاتيكانيّة العربيّة (3)	سريانيّ	غير مؤكّدٍ	على الأرجح قبل الإسلام	القرن الثّامن حتّى التّاسع
الفاتيكانيّة العربيّة 13 الرسائل	يونانيّ	غير مؤكّدٍ	ربّما قبل الإسلام	القرن التّاسع
رسالة في الثّالوث القدّوس (٤)		فلسطين	776م	القرن التّاسع
مخطوطة دير جبل سيناء151 (٥)	سريانيد	دمشق	867م	867م
الفاتيكانيّة 71 (٦)	سريانيّ و يونانيّ	دمشق	القرن العاشر	القرن الحادي عشر
مخطوطة عبد الله بن الطيّب (7)	سريانيّ	بغداد	980م	عددٌ كثيرٌ
اللاتينيّة الاسكندرانيّة (٨)	قبطيّ	الإسكندريّة	غير مؤكّدٍ	1202م
مخطوطة دير جبل 71 سيناء	يونانيّ	غير مؤكّدٍ	غير مؤكّدٍ	القرن الثّالث عشر
مخطوطة عبد يشوع (٩)	سريانيّ	الشّرق الأوسط	1299م	الكثير

مضت سنون عديدةٌ وأنا أجدول المصطلحات الأساسيّة والمستخدمة في هذه التّرجمات بطريقة المقارنة، حيث تعرض هذه التّرجمات شيئاً من

التّنوع في الصّيغ، والتي تجبر المرء على استنتاج أنّها تمثّل عدداً من التّقاليد المستقلّة في التّرجمة، وبعبارةٍ أخرى، يبدو أنّ التّرجمة تمّت بشكلٍ مستقلٍّ بعضها عن بعضٍ، وذلك من كنائس مختلفةٍ في مواقعَ متعدّدةٍ، و نصوصٍ مختلفة المصدر.

واحدةٌ من الأشياء ذات القواسم المشتركة، هي استخدام كلّ التّرجمات لمصطلح «الله» عند الإشارة إلى الله، بما أنّ المسيحيّين العرب انتشروا في سائر أنحاء المنطقة العربيّة، وكانوا ينتمون إلى كنائسَ مختلفةٍ ومتناحرةٍ قبل مدّةٍ طويلةٍ من ظهور الإسلام، والحقيقة هي أنّ كلّاً منهم قد استخدم كلمة «الله» للإشارة إلى الله، وذلك في أقرب التّرجمات الباقية والمستخدَمَة على نطاقٍ واسعٍ من المسيحيّين العرب قبل الإسلام.[1]

وقد قدّم «حكمت قشوع» مؤخراً بعض الدّراسات حول المخطوطة السّينائيّة (موجودات سيناء العربيّة الجديدة 8 و28) وهي المخطوطة العربيّة للإنجيل والمكتشفة حديثاً. حيث وضّح في مقالةٍ ستصدر في «Novum Testamentum"، أنّ هذه المخطوطة تمثّل ترجمةً فريدةً للنّص اليونانيّ وتُسمى (Greek vorlage) وهي تداخل لنوعيّة النّصّ بين السّينائيّة والبيزنطيّة،[2] ونبالغ لو اعتقدنا بأنّ مترجم هذا النّصّ قد

---

(1) ومن غير المعروف متى تّمت أولى التّرجمات للإنجيل من اليهوديّة إلى اللّغة العربيّة، لكن نجت أجزاء قديمة استخدمت لفظ ما قبل الإسلام لمصطلح الله مع حرف لام واحدٍ، كما في אלה. قدّم سعيد بن يوسف أبو يعقوب الفيّومي والقرّاؤون/ العنّانيّون الإصداراتِ اليهوديّة العربيّة الرّئيسة في العصور الوسطى في القرن العاشر. وكُتبت كلمة al-lâh أحياناً بالشّكل العبريّ אללה، لترجمة كلّ من(-hâ elohîm) "الله" ويهوه. ميرا بولياك، رواية القرّائين عن ترجمة الكتاب المقدّس العربي: دراسة تفسيريّة ولغوية لترجمات القرّائين لأسفار موسى الخمسة من القرنين العاشر والحادي عشر قبل الميلاد (لايدن: بريل، 1997).

(2) حكمت قشوع، «مخطوطة سيناء العربيّة. 8 و28: إسهامها في النّقد النّصّي لإنجيل لوقا»، 50 Novum Testamentum/ 1 (2008): 28-57.

استند في عمله على مصدرٍ غير مستخدم في ذلك الوقت، حيث أنّ النّصّ السّريانيّ البيزنطيّ للأناجيل، عُدّ المعيار الأساس في الشّرق الأوسط بحلول القرن السّادس الميلاديّ، وقد استُخدم بدلاً من النّصوص السّابقة، فكانت هذه التّرجمة العربيّة وبكلّ تأكيد قد تمّت في وقتٍ سابقٍ، وحيث كانت هذه التّرجمة تُستخدم في محتواها مصطلح «الله» للإشارة إلى الله، أصبحت شاهداً آخر على استخدام هذا المصطلح من المسيحيّين النّاطقين بالعربيّة.

يُظهر القرآن الاستخدام المسيحيّ لمصطلح الله قبل الإسلام، وقد تفاعل محمّدٌ قبل بعثته، مع عددٍ من المسيحيّين واليهود النّاطقين بالعربيّة، لاسيما الرّاهب بحيرا الأردنيّ[1] والرّاهب النّسطوريّ المكّيّ ورقةَ بنِ نوفل، وهو أكبر أقرباء زوجته خديجة،[2] ووفقاً لجوزيف قزّي، فإنّ إبيونيّة القّس ورقة واضحةٌ في حياته وممارساته الرّوحيّة، وتعاليمه، وهو الذي اختار محمّداً وتبنّاه، وعلّمه التّوراة، ونقل إليه الإنجيل العبرانيّ؛[3] وقد حضر محمّدٌ أيضاً محاضرةً لمعلمٍ مسيحيّ مجهول الاسم قرب مكّة.[4] إذاً ربّما كان

---

(1) جيوم وابن إسحاق، حياة محمّد (السيرة)، 89-91.

(2) يوضّح الحديث (صحيح البخاري، المجلّد 9، الكتاب 87، الرّقم 111) وكتاب الأغاني أنّ ورقة بن نوفل، ابن عمّ خديجة زوجة محمّد، كان مسيحيّاً درس الكتاب المقدّس و ترجم الإنجيل إلى اللّغة العربيّة. و يشير مثل هذا الأمر إلى أنّ محمّداً كان قادراً على الوصول إلى المصطلحات المسيحيّة العربيّة عن الله.

(3) جوزيف قزي، القسّ والنّبيّ: القسّ المسيحيّ، تأثير ورقة بن نوفل العميق على محمّد، نبي الإسلام، محرر. ديفيد بنتلي، مترجم. موريس صليبا (لوس أنجلوس، 2005). إنّ المسيحيّة الأبيونيّة مستمَدّة من المسيحيّة اليهوديّة المبكّرة. رفضوا بولس، وأطاعوا التّوراة، واستخدموا إنجيلاً وحيداً، مستمَدّاً من إنجيل متّى، على أنّه كتاب العهد الجديد الوحيد بالنّسبة إليهم. وقد رفضوا الثّالوث واعتبروا يسوع إنساناً بدلاً من تجسّد الله. واصلت تعاليم محمّد هذا التّقليد المذهبي. فيما يتعلّق بالمناقشة عن المسيحيّة اليهوديّة في المنطقة العربيّة، انظر شلومو بينس، المسيحيّون اليهود في القرون الأولى (القدس، 1966).

(4) وفقاً للتكهّنات يُعتقد أنّ بحيرا هو المعلّم، كما هو مذكور في توماس باتريك هيوز، قاموس الإسلام (نيودلهي: الخدمات التعليمية الآسيوية، 2001 [1885])، 30:

منغمساً في المصطلحات الدّينيّة المستخدَمَة من العرب المسيحيّين لتلك المنطقة، وبعد بدء دعوته، غالباً ما جادل محمّدٌ اليهود والمسيحيّين، بمن في ذلك وفدُ مسيحيٌّ من نجران، و لابدّ للمشاركين في مثل هذه المناقشات من استخدام أسماءٍ واضحةٍ للطّرفين في الإشارة إلى الله. في حين أنّ بعضاً من النّبوءات القرآنيّة كانت موجّهةً إلى المسيحيّين، وتعلن مراراً وتكراراً أنّ القرآن هو «كتاب الله» باللّغة العربيّة و(تَفْصِيلَ الْكِتَـٰبِ، الذي لَا رَيْبَ فِيهِ).[1] بعبارةٍ أخرى، يقول القرآن: إنّه يكرّر ما ذُكر في الإنجيل عن الله والأنبياء، و لا يُقدّم القرآنُ على أنّه معارضٌ لله أو الإنجيل، بل كآخر الكتب السّماويّة، والمتضمّنة للأسفار المقدّسة اليهوديّة والمسيحيّة؛ وقد كان هذا الادّعاء مستحيلاً فيما لو صرّح القرآن بأنّ الله هو إلهٌ آخر، أو لو أنّه استخدم مصطلحاتٍ مختلفةً جذريّاً عن تلك المستخدَمَة في التّراث المسيحيّ العربيّ لتلك المنطقة.

يقول بعضٌ من الباحثين الغربيّين: إنّ العديد من السّور المكّيّة تستند إلى التّراتيل، والشّعر في التّراث المسيحيّ العربيّ قبل عصر الإسلام، وقد استندوا في ذلك - في جزءٍ منه - على وجود الكلمات السّريانيّة، و الّتي استخدمها المسيحيّون دون غيرهم، ولم تكن مفهومةً لغير المسيحيّين من العرب، وأكّد كلٌّ من لوكسنبوغ[2] و لولينغ[3] أنّه عندما يتمّ تفسير الكلمات

يعتقد سبرينغر أنّ بحيرا بقي مع محمّدٍ، وقيل: إنّ هناك إشارةً إلى هذا الرّاهب في القرآن في: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} (سورة النحل، الآية 103). ويقول حسين تعليقاً على هذا المقطع: إنّ النّبيّ كان يذهب عادةً إلى مسيحي في كلّ مساءٍ ليستمع إلى التّوراة والإنجيل.

(1) سورة يونس، الآية 37.

(2) كريستوف لوكسنبرغ، Die syro-aramäische lesart des Koran: Ein beitrag zur entschlüsselung der Koransprache، الطّبعة الثّانية (برلين: Verlag Hans Schiler، 2004).

(3) غونتر لولينغ، تحدّي الإصلاح الّذي يواجهه الإسلام: إعادة الكشف والبناء بشكلٍ

مع مراعاة المعنى في اللّغة السّريانيّة، فمن الممكن لبعضٍ من الإجراءات التّحريريّة، استردادُ أجزاءٍ من التّراتيل المسيحيّة والشّعر من اللّغة الأصليّة؛ ويستند ذلك على أوجه الشّبه بين الشّعر قبل عصر الإسلام والآيات القرآنيّة، كما يوضح أبو قاسم.[1]

تنصّ أطروحة «لولينغ»[2] في كتابه بحزم جدّاً على: النّصّ القرآنيّ المنقول عبر مسلم يتضمّن الأرثوذكسيّة، مخبّأةً في طيّاته كطبقةٍ خلفيّةٍ، و منتشرةٍ بكثرةٍ في جميع زواياه (نحو ثلث القرآن)، وهو نصٌّ مسيحيٌّ في الأصل قبل وجود الإسلام». والجدير بالذّكر أنّ مصادر المسيحيّة في القرون الوسطى، تدّعي أنّ أجزاءً من القرآن الكريم كانت مكتوبةً من الرّاهب النّسطوريّ بحيرا؛[3] فإذا كانت أكثر السّور المكّيّة مستمدّةً بالفعل من الشّعر المسيحيّ، فإنّ جميع ما استخدمته من مصطلحات بما فيها مصطلح «الله» قد تبدو جذورها موجودةً في المصادر العربيّة المسيحيّة. ومع ذلك فثمّة تفسيرٌ مرجَّحٌ أكثر، هو أنّ الكلمات الواضحة من اللّغة الآراميّة المستعارة، والمصطلحات التّوراتيّة الأخرى، هي ـ وبكلّ سهولةٍ ـ عبارةٌ عن مصطلحاتٍ دينيّةٍ عربيّةٍ عاديّةٍ، كالتي استخدمها ورقة بن نوفل وغيره من المسيحيّين واليهود في مكّة. وقد وُجِدَت هذه المصطلحاتُ على سبيل المثال في الشّعر المقتبَس عن اليهود والمسيحيّين في كتاب «سيرة رسول الله» لابن إسحاق.

واجه نبيّ الإسلام في مراحلَ لاحقةٍ من بعثته، مقاومةً متزايدةً ومناظراتٍ

شموليٌّ للتّراتيل المسيحيّة قبل عصر الإسلام والمخفيّة في القرآن نسبةً إلى أوائل التّفسيرات الإسلاميّة (دلهي: Motilal Banarsidass، 2003).

(1) أبو قاسم، «من ألف القرآن؟» (سيدني، 2005)، http://www.islam-watch.org/AbulKasem/WhoAuthoredQuran/who_authored_the_quran.htm.

(2) لولينغ، تحدّي الإصلاح الّذي يواجهه الإسلام، 1.

(3) أرماند أبل، «بحيرا»، في موسوعة الإسلام، المجلّد. 1، محرر. بـ. جـ. بيرمان (لايدن: بريل، 1999)، 921-23.

من المسيحيّين. وهناك عددٌ من المقاطع في القرآن تذكر هذه النّزاعات، وقد اقتبست بعضٌ من هذه المقاطع التّصريحات الّتي أدلى بها النّصارى، واقتبس عن المسيحيّين أنّهم استخدموا مصطلح الله. ومن الأمثلة على ذلك ادّعاؤهم بأنّ "اللهَّ هُوَ الْمَسِيحُ" (سورة المائدة، الآية 17)، وأنّ المسيحيّين هم «أبْناء اللهَّ» (سورة المائدة، الآية 18)، وأنّ يسوع هو «ابْنُ اللهَّ» (سورة التّوبة، الآية 30). حيث لا يوجد أيّ دليلٍ في القرآن على أنّ المسيحَيّين العرب، واليهود، يشيرون إلى الله باسمٍ آخر غير المستخدم في القرآن، لكن هذه المقاطع تعكس لنا مواقف المناظراتِ على أنّ طريقة العرض هي ذاتها، نسبةً إلى الأساسيّات المستخدمة في آراء المتناظرين حول الله نفسه.

يمكننا في ضوء هذه الأدلّة من النّقوش والوثائق التّاريخيّة، والتّرجمات العربيّة للإنجيل أنّ نستنتج أنّ مصطلح "الله" قد تمّ استخدامه قبل عصر الإسلام من اليهود والمسيحيّين العرب للإشارة إلى الخالق،[1] وفي المقطع

(1) استخدم المسيحيّون في اليمن وأجزاءٍ أخرى من جنوب شبه الجزيرة العربيّة مصطلح الرّحمن للإشارة إلى الله، والمعادل لتسمية الرّحمن في شمال المنطقة العربيّة، ولكنّ هذه الإشارة هي بمعنى «الأب» وفي عام 541 م، قام الملك أبرهة، الحاكم المسيحيّ لليمن وجنوبِ المنطقة العربيّة، بوضع نقشٍ على سدّ مأرب (بالخطّ المسند) وبدأ النّقش بعبارة الثّالوث: «من خلال قوّة ونعمة الرّحمن ومسيحه والرّوح القدس». Académie des Inscriptions et Belles-lettres, Corpus. Inscriptionum Semiticarum; Pars Quarta: Inscriptiones Himyariticas Et Saboeas Continens (باريس: Académie des Inscriptions et Belles-Lettres، 1911)، الشّكل. 541، 278. كما وضع أبرهة نقشاً على منحدر في مرجان، وبدأ النّقش بعبارة "من خلال سلطان الرّحمن ومسيحه" (ويكنز وآخرون. 1954). انظر أ. جـ. مـ. ويكنز، والفريد فـ. بيستون، وج،. دانييلز، "ملحوظات عن نقش مرجان"، نشرة كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، 16/ 2 (1954)، 389-94. كان المصطلح الآراميّ اليهوديّ الرّحمن רחמנא يعبّر عن لقب مشترَكٍ للإشارة إلى الله بين اليهود، ويجد المرء نقوشاً عربيّةً يهوديّةً في جنوب المنطقة العربيّة تستخدم هذا المصطلح (عبد الله 1987)، ذلك هو المصدر الواضح للمصطلح العربيّ. يـ. مـ. عبد الله، "النّقش CIH 543: قراءة جديدة تستند إلى الأصلي المُكتشف حديثاً"، في كريستيان روبن ومحمّد

التّالي سوف نناقش نقل اليهود والمسيحيّين بأنفسهم لهذا المصطلح من الآراميّة إلى اللّغة العربيّة.

مصطلح "الله" اشتُقّ على الأرجح من الكلمة الآراميّة alâh

قال "دادلي وودبيري": إنّ مصطلح "الله" اشتُقّ من السّريانيّة، حيث تُعَدّ السّريانيّة شائعةً في الآراميّة في مجال الأدب والنّصوص المقدّسة في الشّرق الأوسط من القرن الرّابع وحتّى التّاسع الميلاديّ (تُعدّ اللّغة الآراميّة بأشكالها لغةً مشترَكَةً، واستمرّت كذلك لقرون، أمّا السّريانيّة فقد لعبت دورها كلغةٍ أدبيةٍ) وقد دعم كتاب "كينيث توماس"[1] مزاعمَ «وودبيري» من خلال العبارة التّاليّة: إنّ الباحثين الغربيّين متّفقون إلى حدٍّ ما حول مصدر كلمة «الله» وعلى الأرجح الكلمة السّريانيّة «alâhâ" قد اشتُقّت من خلال الآراميّة". أمّا "آرثر جيفري"[2] فقد كتب أنّه «ربّما يوجد بعضٌ من الشّكّ» حول هذه المسألة، وشاركه «فريدريك وانيت»[3] الخبير في اللّغة العربيّة القديمة، والذي وصل أيضاً إلى ذات النّتيجة؛ حيث يتشارك المسيحيّون النّاطقون بالسّريانيّة مع هذا الرّأي، ومعظمهم يتكلّم العربيّة بشكلٍ جيّدٍ،

بافقيه، محرران. Sayhadica: Recherches Sur Les Inscriptions De l'Arabie Préislamiques Offertes Par Ses Collègues Au Professeur A.F.L. Beeston (باريس: 4، 1987، Geuthner-5.

يعني الجذر "رحم"، ويصف الرحمن رجلاً عطوفاً مثل الأب. وبالنّسبة للّغة الآراميّة فتعني كلمة rahīm-â "المحبوب". فمن الممكن لمصطلح الرّحمن والمستخدم من المسيحيّين في جنوب المنطقة العربيّة أنّ يشير إلى يسوع محبوب الله وحاملاً لمحبّته. في هذه الحالة تكون البسملة مستمَدّةً من صيغةٍ مسيحيّةٍ الأصل المقصود بها "باسم الله والحبيب الرّحيم والرّوح القدس". لكن من دون الأدلّة، تبقى هذه التّكهّنات أسيرةً للتّحقق أو التّزييف.

(1) توماس، «الله»، 171.

(2) جيفري، مفردات دخيلة، 66.

(3) وانيت، «الله قبل الإسلام»، 247.

وهو أنّ مصطلح «الله» العربيّ، هو لفظٌ دخيلٌ من السّريانيّة، و دعم «عماد شحادة»[1] هذه الحجّة من خلال وجهة نظره كباحثٍ عربيٍّ مسيحيٍّ. لكن بما أنّ هذا البيان يتعارض مع ادّعاءات كلٍّ من التّراث الإسلاميّ والمجادلين ضدّ الإسلام، ويبدو أنّ أيّ دليلٍ دامغٍ حول هذه المسألة سيكون جديراً بالاهتمام، وهو ما سنأتي عليه لاحقاً.

كانت الآراميّة لغة الكتاب المقدّس واللّيتورجيا لمعظم المسيحيّين العرب، وكانت اللّغة الأدبيّة الرّئيسة في معظم المنطقة العربية، سواءٌ في الخطّ السّريانيّ و النّبطيّ أو غيرهما، وممّا نعرفه حول الطّقوس اليّهوديّة في القرن السّادس، أنّ النّصوص المقدّسة تمّت قراءتها بصوتٍ عالٍ في اللّغة العبريّة، وتلتها تلاوةٌ بترجمةٍ آراميّةٍ، و ربّما تلتها أخرى بترجمةٍ عربيّةٍ. (تمّ تدوين هذه الممارسة لاحقاً ضمن الإصدارات الثّلاث من الإنجيل اليهوديّ). أمّا المسيحيّون العرب، وبعضٌ من سكّان الشّمال الغربيّ للمنطقة العربيّة، فقد كانوا من الرّوم الأرثوذكس، وتشير السّجلّات التّاريخيّة إلى أنّ أكثر أو معظم المسيحيّين العرب، استخدموا اللّغة السّريانيّة في قراءة النّصوص المقدّسة إضافةً إلى أنواعٍ من الآراميّة.

إنّ معظم النّقوش الموجودة في المنطقة العربيّة والمؤرّخَة ضمن الحقبة الزّمنيّة من الميلاد إلى الإسلام، خُطّت بآراميّةٍ متنوّعةٍ، وعلى الرّغم من ذلك، يوجد أيضاً نقوشٌ باللّغة اليونانيّة والعربيّة و العربيّة الجنوبيّة. وعندما هُدمت الكعبةُ وأُعيد بناؤها في 605 م، قبل خمس سنواتٍ من بداية بعثة النّبيّ محمّدٍ، وُجِدَ نقشٌ آراميٌّ على حجر الأساس للكعبة،[2] (في عام

(1) شحادة، «المسلمون والمسيحيّون».

(2) وفقاً لابن إسحاق، سيرة رسول الإسلام (جيوم وابن إسحاق، حياة محمّد (السيرة)، 85-86)، عندما هُدّمت جدران الكعبة استعداداً لإعادة بناءها وتسقيفها، وجد البُناة نقشاً باللّغة السّريانيّة عند حجر الزّاوية. قام يهوديٌّ متعلّمٌ بقراءة هذا النّقش لهم على النّحو الآتي: "أنا الله سيّد بكّة (اسم سابق لمكّة). لقد بنيتها في اليوم الّذي

570 م كما وُجدت آيةٌ من إنجيل متّى (7: 16) على حجرٍ آخر، لكن لم يُسجّل إذا كانت بالآراميّة أو العربيّة).[1]

نجد في المنطقة العربيّة الكثير من النّقوش المهمّة باللّغة الآراميّة (واليونانيّة) والمؤرّخة قبل الإسلام، وقد نجت حتّى يومنا، وتشتمل معظم هذه النّقوش على أسماءٍ عربيّة الشّكل، على الرّغم من أنّها مكتوبةٌ بخطٍّ يونانيٍّ أو سريانيٍّ. إذاً فقد استخدم العرب هذه اللّغات لأغراضٍ أدبيّةٍ، وقد استُخدمت إحدى المخطوطات السّريانيّة النّبطيّة، من العرب في الشّمال الغربيّ للمنطقة ضمن نقوشهم الآراميّة، ويُعتقد أنّ هذه المخطوطة ساهمت لاحقاً في تطوّر الخطّ العربيّ من المسيحيّين في بلاد ما بين النّهرين.[2]

يُدعى الله في الآراميّة بكلمة alâh-â ، ويمكن حذف الحرف الأخير منها (â)، و ربّما هي الكلمة ذاتها الّتي استخدمها سيّدنا يسوع في حديثه بالآراميّة، حيث وُجدت هذه الكلمة في الأجزاء الآراميّة من دانيال وعزرا، وفي التّرجمات اليهوديّة الآراميّة للعهد القديم (Targums)، والتّرجمة الآراميّة السّريانيّة لكامل الإنجيل، وهي متشابهةٌ مع نظيرتها العبريّة «elōh".

وقد اقترضت اللّغة العربيّة قبل الإسلام العديد من الأسماء والمصطلحات الآراميّة. كما يتوقّع المرء، فعندما يريد النّاطقون بالعربيّة أنّ يشيروا إلى المفهومات وأسماء الشّخصيّات الواردة في الإنجيل، فإنّهم

خَلقتُ فيه السّماء والأرض وشكّلت الشّمس والقمر، وأحطتها بسبعة ملائكةٍ أتقياء».

(1) جيوم وابن إسحاق، حياة محمّد (السيرة)، 86.

(2) راجع بيلامي «الأبجديّة العربيّة». هناك اعتقادٌ واسعٌ بأنّ الأنباط تحدّثوا اللّغة العربيّة كلغتهم الأمّ، ويشير ماكدونالد في «تأمّلات»، 47، إلى أنّ متحدّثي اللّغة العربيّة سكنوا شمال المنطقة العربيّة فقط (سوريا الحاليّة)، في حين كان سكان البتراء وسيناء يتحدّثون الآراميّة.

غالباً ما يقترضون هذه المصطلحات من اللّغة الّتي سمعوها بها، أيّ باللّغة الآراميّة واليونانيّة، وباللّغة الإثيوبيّة في بعضٍ من الأماكن؛ و قد وضع وودبيري[1] عدداً من المصطلحات الدّينيّة الرّئيسة، والتي اقترضها الإسلام من العرف المسيحيّ، حيث يمكن الرّجوع لبحث جيفري[2] المعروف حول هذه النّقطة. وكما هو الحال مع الكلمات المستعارَة بشكلٍ عامٍّ، فإنّ هذه الكلمات تمّ صوغها لتتوافق مع الأنماط الصّوتيّة في العربيّة، حيث تُستخدم جذور التّريكونسونانتال ولها ثلاثٌ فقط من صفات أحرف العِلَّة.

على سبيل المثال، الكلمة اليونانيّة «diabol-os" أصبحت إبليس، والكلمة اليونانيّة الآراميّة euangeli-on أصبحت "ingīl" الإنجيل ولُفظت لاحقاً (injīl)، والآراميّة sâtân-â أصبحت saytān "الشّيطان" ولُفظت لاحقاً (šaytān وšētān). ويجب على المرء أن يلحظ أنّه عند استعارة الكلمات من اللّغة الآراميّة إلى اللّغة العربيّة، يتمّ إسقاط اللّاحقة "â" وهي أصغر وحدةٍ ذات معنى في اللّغة (علم الصّرف) ويتمّ ذلك بشكلٍ منتظم. وتُعَدّ هذه الوحدة في الأصل أداة التّعريف في اللّغة الآراميّة، لكن بحلول القرن الرّابع فُقدت هذه الوظيفة في معظم أصنافها، وتمّ الاستغناء عنها! إذاً فإنّ كلماتٍ آراميّةً مثل كلمة alâh-â قد تمّ اقتراضها إلى العربيّة، لكن بدون اللّاحقة الأخيرة '-â'، ونظراً لانتشار اليهوديّة والمسيحيّة في المنطقة العربيّة، فإنّ المصطلح alâh-â كان معروفاً، ويمكن للمرء أنّ يتوقّع منهم عمليّة التّعريب من خلال إسقاط اللّاحقة الأخيرة ''â" ويمكن العثور على مزيدٍ من الأدلّة من خلال لفظ هذه المصطلحات، وهو أمرٌ غير شائعٍ في اللّغة العربيّة.

---

(1) وودبيري:
.Contextualization among Muslims" 173- 174"

(2) جيفري، مفردات دخيلة.

كان مصطلح الله في العربيّة كما في نظيرتها الآراميّة له حرف عِلّةٍ خلفيٌّ منخفضٌ وصوتُ «el" مفخمةٍ. وتشتمل طريقة اللّفظ القياسيّة البريطانيّة والأمريكيّة للّغة الإنكليزيّة على كلٍّ من اللّام الرّقيقة [l] واللّام المفخّمة [ɫ]، ويتمّ الاختيار بينهما اعتماداً على موقعهم في المقطع اللّفظيّ، أو على حرف العِلّة المرافق. (الإنكليزيّة بأصنافها في ايرلندا ومينيسوتا و ويلز تستخدم اللّام الرّقيقة فقط، بينما تستخدم الإنكليزية الأستراليّة اللام المفخّمة فقط). والفرق هو أنّ اللّام المفخّمة تُلفظ من مركز اللّسان بشكلٍ منخفضٍ، ثمّ يُرفع الصّوت بالجزء الخلفيّ من اللّسان، حيث يمكن مشاهدة هذا اللّفظ في كلمة ’pill‘، مقارنةً مع لفظ اللّام الرّقيقة كما في ’lip‘. وعادةً ما يكون لفظ اللّام الرّقيقة في بداية المقطع اللّفظيّ، أمّا لفظ اللّام المفخّمة فيكون في نهايته. ويمكن في طريقة النّطق الأمريكيّ العثور على أيٍّ منهما بين حرفين من حروف العِلّة؛ مثال ذلك كلمة "elicit" الّتي تحتوي على لفظ اللّام الرّقيقة وكلمة "illegal" الّتي تحتوي على لفظ اللّام المفخّمة، والأهم من ذلك لاحتياجاتنا، أنّ لفظ اللّام المفخّمة يُتبعُ بحرف عِلّةٍ خلفيٍّ منخفضٍ، كما هو الحال في طريقة النّطق الأمريكيّ لكلمة "Ought»[ɒt] (والبريطانيّة[ɔt]). ويتمّ حرف العِلّة هذا بخفض مركز اللّسان وتحريك الجزء الخلفيّ منه باتجاه الجزء الخلفيّ الطّريّ من الحلق، وفي النّتيجة إنّ حُكم el في كلمة "law" هو التّفخيم، وتُلفَظُ على أنّها [ɫɒ]، مع لام التّفخيم.

إنّ صوت "el" في الآراميّة يُكتب بحرف اللّام "lâmad" والأصل في اللّام التّرقيق، ولكن يتمّ تغليظ اللّام لتُكتب مفخّمةً إذا كانت متبوعةً بحرف العِلّة كما في zqâpâ[1] في حين يُلفظ حرف العِلّة الذي يُنطق [ɒt] أو [ɔt] برفق، ويتوقّف ذلك على اللّهجة، ومن ثمّ نجد حرف اللّام في

---

(1) يؤكد د. عبد المسيح السّعديّ أستاذ السّريانيّة والعربيّة في جامعة نوتردام ضمن مراسلاته الشّخصيّة تفخيم الحرف lâmad. ويُدعى حرف العِلّة qâmets في المنظومة الطّبريّة، ولكن منذ ذلك الحين تُلفظ وتُدمج مع pataḥ و ḥolem.

الكلمة السّريانيّة الّتي تشير إلى الله تُلفظ على أنها [ałâhâ]، حيث تكون [ł] متمثلة في حرف اللّام المفخّمة ويتشابه نطق [â] مع صوت حرف العلّة الحلقيّ المنخفض[ɒ]. ويُسمّى حرف العِلّة الأوّل في هذه الكلمة ptâhâ في السّريانيّة، ويبدو الصّوت مشابهاً في النّطق مع "map" الإنكليزيّة.[1]

تحتوي اللّغة العربيّة الفصحى على ثلاثٍ فقط من المزايا المميّزة لحروف العِلّة، على الرّغم من أنها تميّز اثنين من أطوال حرف العِلّة، فإنّها تحتوي على حرف العِلّة ptâhâ بما يُعرف بتشكيل الفتحة، ولكن ليس لديها حرف العِلّة zqâpâ[2] كما في الآراميّة، ونجد حرف اللّام في العربيّة الفصحى رقيقاً دائماً، غيرَ مفخّم. لكن هناك استثناءٌ لهذه القاعدة في اللّغة العربيّة بخصوص مصطلح "الله"، حيث تحتوي هذه الكلمة على اللّفظين الرّقيق والمفخّم لحرف اللّام معاً، ويتمّ العثور على طريقة اللّفظ نفسها في الكلمة السّريانيّة [ałâh(â)]. وهذا يتناقض مع كلمة [ʾilāh] ilāh "الله" والتي تتضمّن لاماً رقيقةً وحرف عِلّةٍ منخفضَ الجبهة، كما يشير "شحادة"[3] إلى أنّ اللّغة العربيّة لا تملك حرف العِلّة «ought" مثل ptâhâ السّريانيّة، والمستخدَمَة في alâh(â)، والتّفسير المنطقيّ الوحيد لوجودها في مصطلح "الله" هو أنّ حرف العِلّة هذا قد تمّ اقتراضه من السّريانيّة إلى جانب كلمة

---

(1) تُكتب كلمة alâhâ في الخطّ السّريانيّ كما في alâhâ كما ܐܠܗܐ. في النّظام السّريانيّ الغربيّ لتشكيل حرف العِلّة، يتمّ تمثيل ptâhâ بحرف ألف اليونانيّ alpha و zqâpâ بحرف أوميكرون اليونانيّ omicron. ويبدو أنّ zqâpâ السّريانيّة الغربيّة، و qâmets العبريّة/ الآراميّة، ويُلفظ حرف أوميكرون اليونانيّ في ذلك الوقت، بصوتٍ خلفيٍّ منخفضٍ مدوّر كما في عمليّة النّطق لكلمة 'law' البريطانيّة، بينما في السّريانيّة الشّرقيّة، تكون zqâpâ غير مدوّرة، كما في عمليّة النّطق لكلمة 'law' الأمريكيّة.

(2) على الرّغم من أنّ اللّغة العربيّة لديها حرف عِلّةٍ منخفضٌ واحدٌ فقط، الفتحة، لكن يمكن أن يتشابه لفظه إلى حدٍّ ما مع حرف العِلّة السّريانيّ zqâphâ إذا تبعه حرف حلقيٌّ ساكنٌ، ومن المألوف أن يتبعه تشكيل الفتحة.

(3) شحادة، «المسلمون والمسيحيّون»، 19.

alâh(â)، ممّا يجعل حرف العِلّة الثّاني في مصطلح الله "فريداً من نوعه".

وبما أنّ كلمة ałâhâ السّريانيّة كانت معروفةً للعرب، واستعملوها في حديثهم بالسّريانيّة، فمن الطّبيعيّ لهم استخدامها باللّغة العربيّة أيضاً، (بطريقة التّعريب) وإنّ وجود هذا الصّوت السّريانيّ في المقطع الثّاني من كلمة "الله" العربيّة دليلٌ لا يمكن إنكاره على أنّ الكلمة السّريانيّة ałâhâ تمّت استعارتها إلى اللّغة العربيّة لتصبح "الله"، حيث لا يوجد أيّ تفسير منطقيٍّ آخر لهذه المسألة.

من الطّبيعيّ للكلمات أن تخضع لبعضٍ من التّعديل عندما تقترضها لغةٌ أخرى، والتّعديل الواضح في هذه الحالة، هو في مضاعفة لفظ el ضمن كلمة ałłâh، في حين لا وجود للتّضعيف في السّريانيّة؛ و نقترح ممّا سبق أنّ العرب بلغتهم الوحيدة، وعند استماعهم لطريقة لفظ اللّام المفخّمة، والموجودة في المصطلح المذكور، قاموا باستعمالها بصوتٍ أطولَ من اللّام الرّقيقة ولُفظت مع التّضعيف، ويحدث ذلك أيضاً في الانكليزيّة البريطانيّة والأميركيّة، ومع ذلك يعود في جزءٍ منه إلى حركة المقطع اللّفظيّ. على سبيل المثال، نجد اللّام المفخّمة في كلمة 'Bill' و'Phil' مدّتها أطول من اللّام الرقيقة كما في 'billet' و'Philip'.

ويوجد دّليل تّاريخيّ على مضاعفة حرف اللّام في كلمة «الله»: كما في كلّ اللّهجات السّاميّة الأخرى، ففي اللّغة العربيّة عند مضاعفة حرف ساكنٍ، يُكتب مرّةً واحدةً فقط. ويتمّ في المخطوطات أحياناً وضع علامة التّشكيل "الشّدّة" على الحرف المُضعّف، لكن ليس في النّقوش، ولا سيّما القديمة منها، كما هي الحال في نقش زبد، وهناك حرف لامٍ واحدٌ في كلمة "الله" ولا يكشف لنا هذا عمّا إذا كان نطقها في ذلك الوقت مضعّفاً أم لا، بينما يمكن العثور على دليل المضاعفة، في التّرجمات الحرفيّة اليونانيّة القديمة في كتابة الحرف اليونانيّ لامدا مرّتين، وفي التّرجمة العربيّة للنّصّ اليونانيّ من

المزمور 78 [77 في LXX]، فإنّ المصطلح اليونانيّ الله "θεός" تُرجم إلى اللّغة العربيّة على الشّكل "αλλαυ" وهذا يبيّن أنّ صوت "el" لُفظ بشكلٍ مطوّلٍ.

وفي المقابل تتمّ كتابة العبارة العربيّة "الإله" من دون مضاعفة حرف لامدا، كما في ελιλευ (مز.78: 56). مع الملحوظة أنّ التّدقيق الإملائيّ يشير إلى تفاوتٍ في نوعيّة حرف العِلَّة في ε مقابل α. ونجد أيضاً مضاعفة لفظ اللّام في بعض الأسماء الثّيفوريّة العربيّة قبل الإسلام، المكتوبة بالحروف اليونانيّة، مثل ουαβαλλας، أي ما يعادل وهب الله "هبة الله".

أُعيد صوغ مضاعفة حرف اللّام، مع مرور الزّمن، بحيث يُكتب الحرف مكروراً مرّتين بشكلٍ مستقلٍّ، ويُكتب حرف اللّام الأوّل بعدّه منتمياً لأداة التّعريف، وهكذا تمّت إعادة صوغ مصطلح "الله" على أنّ يتكوّن من جزأين: كما يشير شحادة.[1] وفي حوارٍ مع كريستوف هيغر، يؤكّد على أنّ هذا الصّوغ لحرف اللّام، حدثت أيضاً مع كلماتٍ مستعارَةٍ أخرى، مثل اسم الكسندر، والذي تمّ صوغه ليصبح الإسكندر.

بما أنّ اللّام في أل التّعريف تُكتب بشكلٍ مستقلٍّ في اللّغة العربيّة، فإنّ هذا يؤدّي إلى أنّ اللّام في مصطلح الله كُتبتً مرّتين، فالأولى على أنّها لام أداة التّعريف. وبعبارةٍ أخرى، تغيّرت الكتابة الإملائيّة للكلمة من "إلهٖ" إلى "الله" وتُنطق الكلمتان بلفظ الله، ويمكن رؤية هذه الطّريقة في إعادة الصّوغ والإملاء لحرف اللّام لكونه أداةً للتّعريف في بعضٍ من النّقوش المبْكِرة.

كُتبت كلمة ałłâh في نقش زبد (512 م) بلامٍ واحدةٍ، ولكن بعد الحقبة الإسلاميّة، وفي نقشٍ آخر على قبرٍ في قبرص، بتاريخ 29 .هـ (649

(1) المرجع نفسه، 19-20.

م)، كُتب حرفُ اللّام في كلمة ałłâh مرّةً واحدةً أيضاً، كما هي الحال في كلمة البسملة "باسم الله"[1] وبعد مدّةٍ قصيرةٍ نجد نقشاً آخر يتضمّن صلاةً مؤرّخةً في 46 .هـ (666 م)، ويبدأ النّصّ بالتّوجه إلى الله بصيغةِ المنادى «يا الله» مكتوبةً بلامٍ مكرورةٍ (اللّهم)، ولكن عندما يكتب المُصَلّي اسمه وهو «عبد اله» تكون الكتابة بالطّريقة القديمة، مع لامٍ واحدةٍ: عبد اله،[2] و تمّت مضاعفة حرف اللّام في النّقوش اللّاحقة.

نرى الطّريقة ذاتها في مخطوطات التّرجمات للإنجيل العربيّ اليهوديّ، وقد تمّ الحفاظ عليها في الأجزاء القديمة من الثلاثيّة العبريّة - الآراميّة - العربيّة في الجيزة بالقاهرة، وتُرجم اسمُ الله كما אלה بحرف لامدا واحد، ولكن في ترجمات الإنجيل الّتي قام بها سعيد الفيّومي وآخرون في القرن العاشر، كُتب حرف lamed مرّتين، كما في אללה ał-łâh[3]. لذا يمكننا أنّ نرى تطوّراً في المصادر اليهوديّة من الآراميّة אלהא ałâhâ إلى أوائل اليهوديّة -العربيّة אלה ałłâh إلى اليهوديّة-العربيّة الكلاسيكيّة אללה ał-łâh "الله".

وإعادة التّفسير لكلمة ałłâh بوصفها ał-łâh كان سببه ـ على الأرجح ـ وجودَ تشابهٍ مع العادات العربيّة في استخدام الألقاب / النّعوت للإشارة إلى الآلهة، لأنّ هذه الألقاب عادةً ما تبدأ مع أداة التّعريف «ال»[4].

(1) أدولف غرومان، Arabische paläographie II، 71.

(2) المرجع نفسه، 124.

(3) انظر على سبيل المثال، ترجمة سفر الخروج 29: 39 في مخطوطة القاهرة جنيزة تايلور شيشتر ب 1. 17، حيث تُترجم يهوه كما אלה.

(4) أعني بكلمة «لقب» عبارة الاسم النّكرة الّتي تعمل عمل الاسم، أي تُستخدم عادةً في إشارةٍ إلى مرجع فريدٍ من نوعه، على الرّغم من أنّه ليس اسم صحيح. وعلى سبيل المثال، في العهد الجديد اليونانيّ، (ho) kurios تعني "الرّب" و ho christos تعني "المسيح" وهي ألقابٌ مشتركةٌ ليسوع. في العهد القديم العبريّ، أدوناي "ربي"، والتي تُترجم إلى الإنكليزيّة "الرّب" وهو لقبٌ يدلّ على الله، كما هو yisrâ›ēl

على سبيلِ المثال، ما يُسمّى «أسماء الله الحسنى التّسعة والتّسعون" جميعها ألقابٌ؛ كلّ واحدٍ منها يبدأ مع "ال" التّعريف، وتتّصل باسمٍ يصف بعضاً من سمات الله، ومن الأمثلة على ذلك "القدّوس" و"الخالق"، وكان لبعضٍ من الآلهة الوثنيّة التّقليديّة أسماءٌ تُعدّ على أنّها ألقابٌ أكثر من كونها أسماءً صحيحةً. فالآلهة اللّات والعزّى، على سبيل المثال، سُمّيت على التّوالي بألقابٍ تعني "العجان" و "الجبارة". من الطّبيعيّ لهذه العادة في استخدام الألقاب للأسماء الإلهيّة أن تدفع النّاس إلى تفسير كلمة ałłâh على أنّها -al łâh، أي بعدّ أنّ الكلمة تتألّف من آل التّعريف -al مع الإسم łâh.

إنّ إعادة تقسيم هذه الكلمة ałłâh لتصبح ał-łâh جعلت الجزء łâh لقباً ومصدراً للمزيد من الاشتقاقات المعجميّة، وقد أثار أيضاً مسألةً حول معنى كلمة łâh. هذا الأمر حيّر علماء اللّغة العربيّة. ووفقاً لماكدونالد[1] وآرثر جيفري[2]، فقد تمّ اقتراح عشر اشتقاقاتٍ مختلفةٍ، أبرزها اشتقاقٌ من الجذر «لاه» بمعنى «أن تكون عالي المقام»، لكنّ قلّةً من العلماء قالوا: إنّ مصطلح الله في الواقع هو لفظٌ دخيلٌ من السّريانيّة، ولكنّه قوبل بالرّفض من رجال الدّين المسلمين! حيث إنّهم يفضّلون النّظريّة القائلة: إنّ ałłâh كان دائماً اسماً لله وإنّ هذا السّبب وراء استخدامه أيضاً في الآراميّة. وفي نهاية المطاف، كان التّفسير الذي تبنّاه الكثيرون هو أنّ łâh كانت كلمة خاصّةً ترمز إلى جوهر الله، حيث الطّبيعة الإلهيّة الفريدة والأبديّة، في حين أنّ غيرها من الأسماء التّسعة والتّسعين تدلّ فقط على خصائص لله. وبالفعل فقد كسبت łâh هذا المعنى؛ وبعد ذلك استخدم اللّاهوتيّون المسيحيّون مصطلح lāhūt المشتقّ من łâh، "الطّبيعة الإلهيّة" و"اللّاهوت" و مصطلح

qdosh "قدّوس إسرائيل". وفي اللغة العربيّة، "كلمة الله" لقبٌ معروفٌ ليسوع.

(1) ديفيد بروس ماكدونالد، «إله»، في موسوعة الإسلام، المجلّد. 3، محرر. بـ. جـ. بيرمان (لايدن: بريل، 1999)، 1093-1094.

(2) جيفري، مفردات دخيلة، 66.

lāhūtiyya "علم اللّاهوت" ولكن على عكس أداة التّعريف، فإنّ حرف al في ałłâh لا يمكن فصله؛ حيث يتمّ عادةً حذف أداة التّعريف بعد «يا»، ولم يحدث ذلك مع ałłâh. فإنّ المرء يقول: يا الله، ولا يقول: يا لاه؛ وذلك يدلّ على أنّ الكلمة "الله" تقوم مقام كلمةٍ مفردةٍ بدلاً من أن تكون مجرّد لقبٍ، تماماً كما تفعل في الآراميّة، وهي أساساً الكلمة ذاتها، و نشر المسيحيّون النّسطوريّون الشّكل الآراميّ للاسم شرقاً حتّى الهند والصّين، و تمّ تعميم الشّكل العربيّ على نطاقٍ أوسعَ مع انتشار الإسلام.

مصطلح الله ليس انكماشاً لكلمة الإله

كثيراً ما يُقال: إنّ الكلمة العربيّة "الله" هي مجرّد تقلّصٍ لكلمة الإله. والدّليل المعتمَد في ذلك، أداة التّعريف ذاتها في بداية كلٍّ منهما، واحتواؤهما على حرف اللّام والهاء، مع حرف عِلَّةٍ طويلٍ بينهما؛ لكن في القسم السّابق من المقال، أوضحت عدمَ تشابه اللّفظ في حروف اللّام؛ فهي مختلفةٌ، وكذلك أحرف العِلَّة بينها. إضافةً إلى ذلك، فإنّ كلمة «إله» تبدأ بحرف ابتدائيٍّ أساسيٍّ، وهو ألفٌ مهموزةٌ، بخلاف الكلمة "له» وبناءً على أنّ المعنى الحقيقيّ للكلمة العربيّة يعتمد على جذرها، فإنّ هذا الحذف يُعدُّ إشكاليّةً كما يلحظ شحادة:[1] حيث يقول: هذه النّظرة الشّائعة [من التّقلّص] لا تفسّر حذف المقطع الثّاني ʾel (أو ʾil)، بما أنّه المقطع الأكثر أهمّيّةً في المصطلح "al-ʾilah" حيث أنّ el) أو il) هي الكلمة السّاميّة للإشارة إلى الله منذ القدم. وإذا كانت هذه الطّريقة شائعةً، فإنّ الجذر قد يكون قابلاً للاسترداد، ولكن على حدّ علمي، لا يوجد أيّ دليلٍ على مثل هذه الطّريقة باللّغة العربيّة الفصحى، أي في حذف حرفٍ استهلاليٍّ يتضمّن همزة قطعٍ من أصل الكلمة إلى جانب حرف العِلّة، ويتبع أداة التّعريف

(1) شحادة، «المسلمون والمسيحيّون»، 18.

(ال). حتّى وإن وُجد التّشابه بين العبارتين في الكتابة الإنكليزيّة، لكنّها ببساطة مختلفتان جدّاً في العربيّة.

أحد الأسباب الّتي أدّت بالجدليّين نحو هذا الادّعاء، يكمن في الحصول على مطالبَ إضافيّةٍ في أنّ (1) كلمة الإله يمكن أنّ تسمّي أيّ إلهٍ بالتّحديد، بما في ذلك الآلهة الوثنيّة، و(2) كلمة «الله» كانت تقلّصاً لكلمة الإله ومن ثمّ يمكن تصنيف الله على أنّه إله وثنيّ.[1]

لم يتمّ مع ذلك إثبات هذه المزاعم. فبالنّسبة للحالة الأولى، لا يوجد دليلٌ واضحٌ على أنّ كلمة «الله» كانت تُستخدم أبداً كبديلٍ لكلمة «الإله» وإذا كانت كلمة "الله" مجرّد تقلّصٍ لكلمة «الإله» فسيتوقّع المرء حينئذٍ أن يجد تقلّصاً في سياقاتٍ لكلمة الإله ضمن حالتها العاديّة، أي ضمن وظائف اسم النّكرة، مثل الجناس أو البدل/ التّصنيف، أو كجزءٍ محدّدٍ من التّركيب التّقييديّ للاسم.

هذا مثالٌ على استخدام الجناس في سفر يونان 1: «6فَجَاءَ إِلَيْهِ رَئِيسُ النُّوتِيَّةِ وَقَالَ لَهُ :مَا لَكَ نَائِمًا؟ قُمِ اصْرُخْ إِلَى إِلهِكَ!عَسَى أَنْ يَفْتَكِرَ الإِلهُ فِينَا فَلاَ نَهْلِكَ». هنا كلمة "الإله" هي تكرار للكلمة، لأنّها تعني الإله الذي ذُكر مسبّقاً، وهو في هذه الحالة الإله الذي يعبده يونان. وبعبارةٍ أخرى، إنّه الإله نفسه تماماً كما ذكر مسبّقاً. ولا نجد كلمة "الله» تقع موقع هذا الاستخدام، ونجده فقط في « الإله» أمّا بالنّسبة إلى البدل، فنقدّم مثالاً في سفر أعمال الرّسل 7: «43بَلْ حَمَلْتُمْ خَيْمَةَ مُولُوكَ، وَنَجْمَ إِلهِكُمْ رَمْفَانَ، التَّمَاثِيلَ الَّتِي

---

(1) حسب علمي، صدرت هذه الآراء أوّل مرّة من قبل يوليوس فلهاوزن في Reste Arabischen heidentums برلين: Reimer، 1897، 218 وما يليها. تماشياً مع هدفه الأكاديميّ العامّ لتفسير التّاريخ الدّينيّ بحيث ينظر إلى أنّ الهينوثيّة والتّوحيد من التّطوّرات المتأخّرة للتّطوّر الدّينيّ. وقد فنّد هذا الرّأيَ من خلال الأبحاث الأنثروبولوجيّة المكثّفة في جميع أنحاء العالم، والتي وجدت أنّ الهينوثيّة أمرٌ شائعٌ جدّاً، حتّى في الثّقافات الّتي يعدّها فلهاوزن من النّاحية التّطوريّة "بدائية".

صَنَعْتُمُوهَا لِتَسْجُدُوا لَهَا. فَأَنْقُلُكُمْ إِلَى مَا وَرَاءَ بَابِلَ». تأتي هنا أيضاً كلمة "إِلهِكُمْ" لتحدّد رَمْفَانَ على أنّه واحدٌ من تصنيفات الكيانات الّتي تدعى "الآلهة" حيث لا نجد كلمة "الله" تعمل عمل البدل، ونجده فقط في «الإله» ومثالٌ للتّركيب التّقييديّ، هو في إشارة إيليًا الدّلاليّة عن «الْإِلَهُ الَّذِي يُجِيبُ بِنَارٍ» في سفر الملوك الأول 18: 24، وفي حالة إيليًا فإنّ التّركيب التّقييديّ يشير إلى أنّ أحدهما هو من "الآلهة" بناءً على النّتيجة؛ وتوجد مثل هذه العبارات في النّصوص العربيّة أيضاً، ولكن يعبّر عنها بكلمة al-ʾilāh، وليس ałłâh.[1]

ويمكن لعبارةٍ اسميّةٍ معرّفةٍ أنّ تُستخدم لتقديم مرجعٍ ضمن صيغة التّفضيل أو التّفرّد، كما على التّوالي في «الشّمس» و السّيّد». إنّها فريدةٌ لأنّها تنتمي إلى فئةٍ فرديّةٍ (أي: فئة تتضمّن عضواً واحداً فقط). تستمرّ قصّة إيليًا لتستخدم العبارة الاسميّة المعرّفة hâ-ʾelohîm "الإله" بمعنى: فريدٌ أو متفوّقٌ:

«ثُمَّ تَدْعُونَ بِاسْمِ آلِهَتِكُمْ وَأَنَا أَدْعُو بِاسْمِ ٱلرَّبِّ [يهوه]. وَالْإِلَهُ الَّذِي يُجِيبُ بِنَارٍ فَهُوَ اللهُ [الحق]. فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ وَقَالُوا:» الْكَلَامُ حَسَنٌ»» (سفر الملوك الأول 18: 24)[2].

---

(1) مثالٌ من نصٍّ خارج الكتاب المقدّس: «أطلس هو الإله اليونانيّ الذي يحمل الأرض»، تمّت كتابة هذه الكلمة الإله اليونانيّ، ولم تُكتب أبداً على أنّها الله اليونانيّ، ولكن لو كانت كلمة «الله» هي تقلّص أو انكماش لكلمة الإله، يتوقّع أن يعثر المرء على استخدام الكلمة الأخيرة أيضاً.

(2) لقد نُقلت هذه الآية من التّرجمة الإنكليزيّة الجديدة، إلاّ النّقاط الآتية:
(1)لقد وُضعت بين قوسين كلمة]الحقّ[لتُفهم على أنّها وُضعت من قبل المترجمِين، (2) كُتبت كلمة"يهوه" بدلاً من "السّيّد"، و(3) وضعت المثيل الثّاني من[god] بالأحرف الصّغيرة للكلمة الإنكليزيّة، حيث يُستخدم هنا كاسم عامٍّ بدلاً من اسم علم (تمّت ترجمتها لتصبح "الإِلَهُ" كما هي في الإنجيل باللّغة العربيّة). الحَظْ أنّ كلمة [الحقّ] هنا ضروريّةٌ في اللّغة الإنكليزيّة لإخراج شعور التّفرد الّتي تنطوي عليه المادّة في هذا السّياق. معظم التّرجمات الإنكليزيّة حذفت مادّة التّفرّد واستخدمت

إنّ الأنموذج الثّاني من hâ-ʾelohîm هو "الإله" ونجد في هذه الآية تفرّداً، أو شعوراً بالتّفوّق "الإله الحقيقيّ الوحيد" حتّى لو كان يهوه أو بعل. ويمكن العثور على هذا الاستخدام في العربيّة أيضاً، وذلك في النّصوص والقواميس الّتي تقول الله ałłâhu smu al-ʾilāh أي إنّ "الله هو اسم الإله [الواحد الحقيقيّ]". إنّ مثل هذه التّصريحات لا معنى لها إذا كان مصطلح الله مجرّد تقلّصٍ لكلمة الإله. كأننا نقول "إن الإله هو اسم الإله" أو "الله هو اسم الله". ومع ذلك، يستشهد ديفيد بروس ماكدونالد[1] بآيتين من القرآن حيث يقول: إنّ كلمة «الله» يمكن أنّ تكون تقلّصاً لكلمة الإله، أي بتفرّده وتفوّقه على أنّه «الإله الحقيقيّ الوحيد» وتظهر هذه الآيات أدناه.

(سورة الأنعام، الآية 3): {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ}.

(سورة القصص، الآية 70): {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

ولو استُخدمت كلمة al-ʾilāh في هذه الآيات، فيمكن للمرء حينئذٍ أن يؤكّد المعنى بأنّه "الإله الأعلى" أو "الإله الحقيقيّ الوحيد" وإلّا فإنّ المرجعيّة تكون غيرَ واضحةٍ، لكن في الواقع لم تُستخدم al-ʾilāh في هذه الآيات، واستُخدم مصطلحُ ałłâh، حيث لا يقتضي السّياق شيئاً أكثر من معنى الكلمة المعتاد بكونها صفةً لله. إذاً لا يوجد شيءٌ يوضّح تقلّص الكلمة من al-ʾilāh.

إنّ استخدام صيغة التّفضيل، أو التّفوق هو أمرٌ شائعٌ في التّوراة العبريّة،

اسم "الله"، ممّا يؤدّي لقلّة الإحساس ضمن السّياق، لأنّ الاسم باللغة الإنكليزيّة "الله/ God" لا يمكن مقارنته مع اسم "يهوه".

(1) ديفيد بروس ماكدونالد، «إله»، في بيري جـ. بيرمان، محرر. موسوعة الإسلام، (المجلّد. 3، لايدن: بريل، 1999)، 1093-1094.

حيث أنّ أكثر الألقاب شيوعاً لكلمة "الله" هو "الإله" hâ-'elohîm، بمعنى "الواحد الحقّ، والإله الأعلى"[١] يوجد ما يعادل الألقاب في النّصوص المقدّسة الآراميّة واليونانيّة، ألا وهي المصطلحات alâh-â و ho theos، على التّوالي؛ وتُترجم هذه العباراتُ عادةً إلى اللّغة الإنكليزيّة كاسم صحيح: "الله" وبالمثل في العديد من اللّغات الأوروبيّة الأخرى، ولكنّ المصطلحات الأصليّة تشبه الألقاب إلى حدٍّ كبيرٍ، وذلك باستخدام "تعبير التّفرّد". يرى المرء أنّ هذا الاستخدام موجودٌ في العربيّة أيضاً، بين المسيحيّين والمسلمين، قديماً وحديثاً، في استخدامهم لمصطلح الإله. هذا الاستخدام غير شائعٍ، ولكن يمكن العثور عليه، ولا سيّما في أبيات الشّعر ذات الهيكل الموزون لكلمة الإله وهو يتناسب بشكلٍ أكبر ممّا تفعله كلمة «الله» ومثال ذلك موجودٌ في فقرةٍ استشهد بها زويمر[2] من الشّاعر النّابغة الذّبيانيّ، والتي تعود لعصر ما قبل الإسلام، حيث وُجد مصطلحان:

لهمٌ شيمةٌ لم يعطها اللهُ غيرَهمْ قويم فما يرجونَ غيرَ العواقبِ

رقاقُ النعالِ طيبٌ حجزاتهمْ يُحَيّوْنَ بالريحانِ يومَ السَّباسِبِ[٣]

*****

(1) إنّ صفة التّفرّد تأتي من امتلاك مادّة التّفرّد. على الرّغم من أنّ الكلمة تشبه صيغة الجمع في الشّكل، لكن لا يتمّ تفسير ذلك نحوياً على أنّه جمع. يصبح الشّكل مفهوماً أكثر عندما يدلّ على الجوهر، كما في «الإله». وعلى سبيل المثال إنّ الكلمة العبريّة الّتي تعني العذريّة، تبدو مشابهةً لكلمة العذراء، لكنّها مجرّدة بدلاً من جمع. انظر جويل س. بورنيت، إعادة تقييم إلوهيم التّوراتي (أطلانطا: مجتمع الأدب الإنجيلي، 2001).

(2) صموئيل م. زويمر، عقيدة المسلمين في الله: مقالٌ عن صفات وسمات الله وفقاً للقرآن والعرف الأرثوذكسيّ (نيويورك: American Tract Society، 1905، 25.

(3) يلحظ زويمر استخدام الشّعراء مثل النّابغة و لبيد لمصطلح الله، لكنّه يظلمهم بوصفهم أنّهم "الوثنيّون".

ويستشهد زويمر بهذا المقطع كدليلٍ وحيدٍ لادّعائه بأنّ مصطلح الله مشتقٌّ من الإله، لكنّ هذا المقطع بكامله يدلّ على أنّ كلمة الإله يمكن استخدامها للإشارة إلى الله، وما تمّ للتّو ذكره، ليس له أيّ تأثيرٍ على مسألة الاشتقاق هذه.

أخيراً، لا يوجد دليلٌ واضحٌ على أنّ كلمة «الله» تُستخدم بمثل تقلّصٍ مفصليٍّ لعبارة الاسم النّكرة الإله، ولا حتّى في معانيه المتفوّقة؛ في حين أنّ كلا المصطلحين يمكن استخدامهما في الإشارة إلى الله، إلّا أنّها تختلف قليلاً في النّحو، و المعنى، و في النّظام الصّوتيّ، وأصلِ الكلمة. وبالنّسبة لما يتعلّق بالنّحو، نجد كلمة "الله" تمثّل لقباً فريداً للإشارة إلى الله، ومن ثمّ تعمل عمل الاسم، بينما تُعَدّ كلمة الإله عبارةً عن اسمٍ نكرةٍ، ويمكن استخدام كلمة «الإله» في سياقاتٍ مشابهةٍ لوصف أيّ إلهٍ مفترَض، كما في التّرجمة العربيّة لسفر الأعمال 7: 43 «إِلهِكُمْ رَمْفَانَ» في حين لا يوجد دليلٌ واضحٌ على أنّ اللّقب «الله» قد استُخدم أكثر من أيّ وقتٍ مضى للإشارة إلى إلهٍ وثنيٍّ. وفيما يتعلّق بعلم الأصوات، نجد لفظ المقطع الأخير من كلمة «الله» يتمّ مع التّفخيم (أي، كما اللّام المفخّمة وحرف العلّة الخلفيّ) في حين أنّ لفظ «الإله» لا يحتوي على التّفخيم، أمّا فيما يخصّ أصل الكلمة، فإنّ لفظ "الله" هو دخيلٌ من الآراميّة، في حين أنّ كلمة "الإله" عربيّة، يمكننا أن نستنتج إذاً أنّ مصطلح "الله" هو لفظٌ دخيلٌ مشتقٌّ من اللّغة الدّينيّة الآراميّة الّتي كانت تُستخدم من اليهود العرب، والمسيحيّين، وليس تقلّصاً لكلمة (الإله).

بعض من الادّعاءات الغامضة حول مصطلح «الله»

حثّ دادلي وودبيري المسيحيّين الذين يتحدّثون مع المسلمين على احترام الأسماء والمصطلحات المألوفة للمسلمين،[1] وأشار إلى أنّ معظم

(1) وودبيري، «السّياق بين المسلمين»، 173

هذه المصطلحات، بما في ذلك الاسم العربيّ في الإشارة إلى الله، يكون مصدرها في المجتمعات الدّينيّة لليهود والمسيحيّين العرب قبل الإسلام. ويسعى وودبيري لتبديد المفهومات الخاطئة الّتي تزعم:

(1) لم يستخدم اليهود والمسيحيّون العرب قبل الإسلام مصطلح «الله» في الإشارة إلى الله قبيل الإسلام، ولكنهم توصلوا بشكلٍ ما إلى تسويةٍ حتّى قاموا بذلك.

(2) نشأ مصطلح «الله» على أنّه اسم أحد الآلهة الوثنيّة العربيّة بدلاً من اسم الله العليّ؛ وفي الأقسام السّابقة، قدّمتُ الأدلّة التّاريخيّة واللّغويّة في دعم تصريحات «وودبيري» حول الأصول اليهوديّة والمسيحيّة لهذا الاسم، أملاً في إزالة هذه الخرافات من الأجواء، حتّى يتمكّن المسلمون والمسيحيّون من الحوار بنزاهةٍ واحترامٍ متبادَل (رسالة بطرس الرّسول الأولى 3:15). وفي هذا القسم سوف نقدّم دليلاً ضدّ الفكرة الخاطئة الثانية، وهي أنّ مصطلح "الله" نشأ على أنّه للإشارة إلى واحدٍ أو أكثر من الآلهة الوثنيّة، وأنّ هذا يجعله غير ملائمٍ كاسمٍ للإشارة إلى الله.

وخلافاً للادّعاءات فإن حقيقة أنّ اسم الإلهة الوثنيّة اللّات لا يعني أنّ الله كان إلهاً وثنيّاً، حيثُ تمّ العثور على اللّقب السّريانيّ والعربيّ / ałâh(â) ałłâh في المنطقة العربيّة بالتّزامن مع انتشار النّفوذ اليهوديّ والمسيحيّ في المنطقة، بدءاً من الأنباط في سيناء والضّفة الشّرقيّة لنهر الأردنّ.[1] وأقرب

(1) هناك الآلاف من النّقوش الآراميّة النّبطيّة ما قبل الإسلام في شبه جزيرة سيناء والضّفة الشّرقيّة من الأردن. لقد تمّت صياغتها باللّغة الآراميّة/ السّريانيّة باستخدام الأبجديّة النّبطيّة، لكن نظراً لأنّ الأنباط كانوا عرباً، فإنّ العديد من الأسماء المدرجة هي كلماتٌ عربيّةٌ، وتتضمّن بعضٌ من الأسماء أداةَ التّعريف العربيّة ألـ. ويجد المرء العديد من الأسماء المركّبة مع عناصر ثيفوريّة تستخدم ، (al(l)âh(â، ممّا يدلّ على الاعتراف بالله اليهوديّ المسيحيّ. لكن مع مرور الزّمن، واندماج الأنباط بثقافة الإمبراطوريّة البيزنطيّة والأرثوذكسيّة اليونانيّة، شرعوا في استخدام الأسماء اليونانيّة أكثر وأكثر. تظهر الأسماء التّوراتيّة أيضاً، مثل dny›l (دانيال) وywsf

إفادةٍ باقيةٍ للمصطلح في النّقش العربيّ الصّحيح هو نقش زبيد المسيحيّ 512 م، في حين أنّ أقرب دليلٍ مخطوطٍ، هو التّرجمة العربيّة للمزمور 78 في النّصّ اليونانيّ؛ من ناحيةٍ أخرى يشهدُ للإلهةِ اللّات في أنحاء الشّرق الأدنى القديم منذ ألفي سنةٍ. والإشارة الأقدم الباقية واضحةٌ في الوثيقة الأوغاريتيّة منذ حوالي 1200 ق.م[1] حيث الإلهة الكنعانيّة عشيرة، زوجة إيل، ويُشار إليها على أنّها إيلات، بمعنى "إلهة" أو ربّما بمعنى "زوجة إيل"[2] ويشير "فهد"[3] إلى أنّ شكل الاسم elat قد ذُكر في الأبحاث اليونانيّة عن هيرودوتس، ضمن النّصوص الأكّاديّة والصّفائيّة والتّدمريّة والنّبطيّة والآراميّة القديمة؛ فكتب يقول: إنّ الشّكل العربيّ من اسمها يعود تاريخه على الأقلّ، إلى زمن عمرو بن لحيٍّ الخزاعيٍّ، الذي أدخل العبادة الوثنيّة إلى مكّة في بداية القرن الثّالث الميلاديّ، هذه المدّة هي الّتي تشير إلى دليلٍ على عبادة اللّات في النّبطيّة، وفي الصّفا و تدمر.[4] ويضع ماكدونالد[5] ملحوظةً مماثلةً حول العثور على الاسم في بعضٍ من النّقوش الآراميّة القديمة في

(جوزيف). انظر جـ. ستتينيو، النبطيون (أوسنابروك، ألمانيا: Otto Zeller، 1932 [1978])؛ أبراهام النّقبي، الأسماء الشّخصيّة في المملكة النّبطيّة (القدس: الجامعة القدس العبريّة، 1991)؛ وماكدونالد، "الأسماء الشّخصيّة"، 251-90 (إلحظ أنّ ماكدونالد نقدي جدّاً لعمل النّقبي).

(1) يعود تاريخ النّصوص الأوغاريتيّة للحقبة بين 1300- 1190 ق.م، ومعظمها من القسم الأخير لها.

(2) انظر وليام. ج ديفير، هل الله له زوجة؟ علم الآثار والدّيانة الشّعبيّة في إسرائيل القديمة (غراندرابيدز، 226 ،Eerdmans، 2005)؛ وجوديث م. هادلي، عبادة عشيره في إسرائيل القديمة ويهودا: الدّليل على وجود آلهة عبريّة (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 2000). يلحظ هادلي (206) أنّ "إنّها [عشيرت في الأدب الأوغاريتيّ] عُرّفت على أنّها حرم الإله الرّئيس أيل. و خالقة الآلهة. ومربّية الآلهة. وتتضمّن ألقابها ilt "آلهة"، و qdš "المقدّسة".

(3) توفيق فهد، «اللاّت»، في موسوعة الإسلام، المجلّد. 5، محرر. بـ. جـ. بيرمان (لايدن: بريل، 1999)، 693.

(4) المرجع نفسه، 692.

(5) ماكدونالد «الشّمال العربيّ القديم».

مصر.

إذاً لا علاقة لهذه الحالة باشتقاق المصطلح »الّلات" من الصيغة "الله" أو العكس، أو أنّ مصدرها يتمثّل بشراكةٍ أو زواجٍ ميثولوجيٍّ. حتّى إنّها لا تُعَدّ من الأزواج اللّغويّة؛ ويلحظ فهد[1] أنّ "مؤلّفي المعاجم العربيّة بالإجماع يعتقدون بأنّ كمة "الّلات" مشتقّةٌ من الفعل لتَّ، الّتي تعني "بَلَّلهُ بشيءٍ من الماء ليعجنه"، فهم لا يعدّون اللّات كشكلٍ أنثويٍّ من الله. حيث إنّ الشّكل الأنثويّ لكلمة "الله" سيكون ألاها، وليس الّلات. ولا يرون اللّات على أنّها مشتقّةٌ من «الإله»، وهذه الأسماء ليست أزواجاً صوتيّةً، على الرّغم من وجود الحرف السّاكن وحرف العلّة في المقاطع التّالية، ويتمّ عادةً نقلها إملائيّاً إلى الإنكليزيّة بالطّريقة ذاتها، مثل la، فإنّها تختلف في اللّفظ العربيّ.

إنّ الكلمة الّتي تشير إلى الله تتضمّن لاماً مفخّمةً، وحرفَ علّةٍ خلفيٍّ، في حين لا نجد ذلك في اسم اللّات؛ ولا يوجد ترابطٌ صوتيّ لهذه الأسماء في اللّغة العربيّة. ومن ثمّ بصرف النّظر عمّا قد يتخيّله بعضُ من النّاس، والحقيقة هي حتّى لو كانت الآلهة الوثنيّة لشمال المنطقة العربيّة لها اسم اللّات فإنّ ذلك لا يؤدّي لعلاقةٍ بالاشتقاق، أو المعنى، أو المضمون المرجعيّ لمصطلح الله.

دعونا مع ذلك في سبيل الحُجة، نفترض أنّ بعض العرب المزعومين قد ادّعوا بأنّ اللّات كانت زوجة الله أو ابنته،[2] وذلك لا يثبت أنّ الله لم يكن

(1) فهد، «اللاّت» 693.

(2) المؤرّخ المسلم من العصور الوسطى هشام بن الكلبيّ يربط في كتاب الأصنام، (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، 1952)، أنّ بعضاً من المتعبّدين الوثنيّين قديماً للآلهة اللّات والعزّى ومناة وأطلقوا عليهم تسمية «بنات الله». حيث يبدو هذا الادّعاء قد ظهر واستهزأ به القرآن ضمن (سورة الإسراء، الآية 40) و(سورة النّجم، الآية 21 وما يليها)، حيث سخِر المكّيّون من ابتكار الملائكة الإناث لأجل

الخالق، إنّما تظهر فقط أنّ هؤلاء الأفراد لهم مفهومٌ مخالفٌ للتّوراة عن الله، وتشير المقاطع في الكتاب المقدّس والنّقوش العبريّة القديمة إلى أنّ بعضاً من اليهود اعتقدوا أنّ ليهوه زوجةً اسمها عشيرة،(1) ولا يعني هذا أنّ يهوه كان إلهاً وثنيّاً، فهو يشير فقط إلى أنّ لبعضٍ من العبرانيّين مفهومٌ مخالفٌ للتّوراة عن يهوه. أمّا بالنّسبة لمصطلح العهد الجديد في الإشارة إلى الله، «الإله» هوثيوس، وقد استخدم الفلاسفة اليونانيّون القدامى هذا المصطلح ذاته في الإشارة إلى الكائن الأسمى، الخالق، والأب، وملك كلّ الأشياء، ولكنّهم نسبوا إليه الآلاف من الأبناء الذين حكموا معه على أنّهم آلهةٌ.(2)

لدى المورمون وجهة نظر مماثلةٌ اليوم، وهي أنّ الله لديه زوجاتِ الرّوح، يولد من خلالها ملايين الأرواح من ذريته، وهذه الآراء عن الله مخالفةٌ للتّوراة، ومع ذلك، لا تلزم مسيحيّي نيقيّة بحذف كلمة يهوه وهوثيوس، و «الله».

وخلافاً للادّعاءات، لا يوجد دليلٌ على أنّ الله كان صنماً وثنيّاً في الكعبة، حيثُ حوّل تجّار مكّة مدينتهم لتصبح مركزاً للحجّ، وذلك عن طريق وضع مقدّساتهم ضمن الكعبة وحولها، عبر صورةٍ أو رمزٍ لكلّ إلهٍ يعبده النّاس في أنحاء المنطقة العربيّة،(3) والأهمّ بين هذه الرّموز كان "هبل" المعبود الرّئيس

الله.

(1) رافائيل باتاي، الآلهة العبريّة، مع مقدّمةٍ كتبتها ميرلين ستون (نيويورك: Ktav، 1968)؛ وهادلي، عبادة عشيره.

(2) انظر على وجه الخصوص العمل القديم ما هو الله وفقاً لأفلاطون الّذي كتبه ماكسيموس الصوري، والذي يؤكّد أنّ «الله واحدٌ» (θεος εις) وهو "الأب"، "الملك"، و"الخالق" لكلّ الأشياء، وتابع قائلاً: إنّ الله يحكم مع "أبنائه" (παιδες)، وهم "آلهة"، عددهم "ثلاثون ألفاً". انظر أطروحات ماكسيموس الصوري، المترجمة من اليونانيّة من قبل توماس تايلور (المجلّد 1؛ لندن: Whittingham، 1804)، 16.

(3) لم تكن الكعبة في ذلك الوقت معبداً. فقد كانت سياجاً حول بئرٍ غير مسقوف، ولكن

لأهل مكّة ومع ذلك، كانت مكّة في تنافسٍ مع الكاتدرائيّة في صنعاء، لأنّها جذبت الكثير من الحجّاج المسيحيّين لاحتوائها على رموزٍ أو تماثيل ليسوع ومريم، وغيرهما. حتّى إنّها اشتملت في لوحات الكعبة على يسوع ومريم والنّبيّ إبراهيم وغيره من الأنبياء، وقد تضمّنت أيضاً على حمامةٍ خشبيّةٍ، يمكن أنّ تمثّل الرّوح القدس.[1]

اللّافت للنّظر، عدم وجود أيّ دليلٍ لصنمٍ عن الله في الكعبة، ولكن من أجل الحُجّة، لنفترض ذلك! فلو وُجد رمزٌ عن الله في الكعبة، فذلك يشير إلى أنّ الله إلهٌ وثنيٌّ، إذاً فهل وجود صورٍ ليسوع ومريم، وإبراهيم لا يعرّفهم أيضاً بأنّهم آلهةٌ وثنيّةٌ، ولكن على الرّغم من المزاعم الحديثة المعارضة، لا يبدو أنّ أيّ دليلٍ على وجود صورةٍ لله في الكعبة، أو في أيّ مكانٍ آخر في مكّة.

كان هبل رئيس الآلهة في مكّة،[2] وقد ظنّ فلهاوزن أنّ هبل كان يُسمى الله، وأنّ محمّداً أعلن هبل ليكون السّيّد وخالق الكون، ومع ذلك، لم يقدّم فلهاوزن أيّة أدلّةٍ تثبت ذلك! ونجد أمام زعمه حقيقةً تاريخيّةً، هي اضطهاد المكيّين لمحمّدٍ بسبب معارضته لدينهم، ولو أنّه نادى بهبل ليكون السّيّد وخالق الكون، لكان على المكيّين أنّ يتغاضوا عنه بدلاً من كرههم له ومحاولة قتلِه، وكان هبل يملك مكانةً رئيسةً بين أصنام الكعبة، ولكن عندما غزا محمّدٌ مكّة، يُقال: إنّه قد حطّم كلّ الأصنام، واحتفظ فقط بصورٍ

عُلّقت أشياءَ قيّمةً على جدرانها، مثل الشّعر واللّوحات والأيقونات، وما شابه ذلك. أمّا الأصنام، الّتي كان معظمها ألواحاً حجريّةً مع رموزٍ للآلهة، فقد وُضعت بالقرب منها. وكان هناك داخل السّياج بئرٌ خُبّيء فيه كنزٌ. جوميير وفينسينك، «الكعبة»، في موسوعة الإسلام، المجلّد. 4، محرر. بـ. جـ. بيرمان (لايدن: بريل، 1999)، 317-322؛ جيوم وابن إسحاق، حياة محمّد (السيرة)، 84.

(1) جوميير وفينسينك، «الكعبة»، 317-322.

(2) فلهاوزن، 75-76، Reste Arabischen heidentums.

للسّيّد المسيح ومريم،[1] ولو أنّ هبل كان ربّ محمّدٍ، لكان أنقذ صورته أيضاً بدلاً من تحطيمها.

وخلافاً لادّعاء فلهاوزن، فليس هناك دليلٌ لأيّة قبيلةٍ عربيّةٍ على أنّها أشارت لإله قبيلتها بكلمة «الله»، وقد ظنّ فلهاوزن[2] أنّ كلّ قبيلةٍ عربيّةٍ تشير إلى رئيس آلهة قبيلتها باسم «الإله»، وأنّهم يختصرون هذه الكلمة بمفردهم لتصبح «الله»، وتستند ظنون فلهاوزن على الافتراض الخاطئ بأنّ القبائل العربيّة قبل الإسلام، كانت شبه مشركةٍ كلّيّاً بدلاً من كونها توحيديّةً، ولذلك فهو يفترض خطأً أنّها لم تمتلك مصطلحاً للإشارة إلى الكائن الأسمى؛ ويمكن لهذا أن يحدث في عصر ما قبل التّاريخ، لكنّه غير ممكن في العصور التّاريخيّة، وذلك عندما تمّ استخدام مصطلح "الله" و "الرّحمن" للإشارة إلى الله العليّ.

قدّم فلهاوزن افتراضاً إضافيّاً بأنّ كلّ قبيلةٍ قامت بتسمية معبودها الرّئيس "الإله"، وهو زعمٌ مشكوكٌ فيه. وأخيراً، كان يفترض أنّ كلّ قبيلةٍ ربطت "الإله" بمصطلح "الله"، وذلك في إشارةٍ إلى المعبود الرّئيس لقبيلتهم. ولا يوجد أيّ دليلٍ على الإطلاق لاستخدام مصطلح «الله» بالنّسبة للآلهة القَبَلِيّة، ولقد رأينا بالفعل عدم وجود أدلّة على الادّعاء بأنّ الله هو تقلّصٌ لـ «الإله» ومع ذلك، لا تزال ادّعاءات فلهاوزن تؤثّر على المناقشات المرتبطة بهذا الموضوع، على الرّغم من أنّها مجرّد ظنونٍ لا تدعمها الأدلّة ويمكن مراجعة أندريه[3] للحصول على نقد منهجيّةِ وافتراضاتِ فلهاوزن.

---

(1) جيوم وابن إسحاق، حياة محمّد (السيرة)، 552.

(2) المرجع نفسه، 218-202.

(3) تور يوليوس إفرام أندريه، محمّد: الإنسان وإيمانه، مترجم. تـ. (نيويورك: Dover، 2000 [1936])، 25.

وخلافاً لبعضٍ من الادّعاءات، فإن استخدام مصطلح الله في الإشارة إلى الله لا يتعارض مع استخدام اسم يهوه في الإنجيل، وقد وضع موقعٌ على شبكة الإنترنت يُسمّى «ArabBible" ترجمة فان دايك العربيّة[1]، ولكن مع استثناءٍ واحدٍ: لقد استبدلوا كلّ مثيل لمصطلح «الله» بكلمة «الإله» وقد فعلوا ذلك من دون موافقة جمعيّات الكتاب المقدّس، وعلى الرّغم من استخدام ملايين المسيحيّين العرب لمصطلح الله في الإشارة إلى الله.

يوفّر الموقع السّابق مبرّراتٍ قد يتمّ تلخيصها على النّحو التالي:

- الله لديه اسمٌ واحدٌ فقط، وهو «يهوه».
- لا يجب استخدام أيّ اسمٍ آخر للإشارة إلى الله باستثناء «يهوه».
- الكلمة العربيّة «الله» هي اسمٌ صحيحٌ بدلاً من كونها اسماً عامّاً.
- ينطبق اسم الله فقط على «إله الإسلام».
- يجب من ثمّ شطب اسم الله من الإنجيل.

اسمحوا لي بتدوين بعضٍ من الاعتراضات على هذه المزاعم:

1) كتب ماكلولين و آيزنشتاين[2] وفقاً لحسابات اليهود: إنّ عدد الأسماء الإلهيّة الّتي تستلزم اهتمام الكتبة الخاصّ هو سبعةٌ: {إيل، إلوهيم، أدوناي، يهوه، إهيه أشير إهيه، شدّاي، ظباؤوت}. إنّ كلّ هذه الأسماء باستثناء إهيه و يهوه و شدّاي فهي ألقابٌ مشتقّةٌ من الأسماء العامّة العبريّة، وبالنّسبة ليهوه وإهيه فهما شكلان للفعل ذاته، وفيما يتعلّق بهذه الأسماء السّبعة فإنّ كلمة إهيه "أنا» تُعدّ بالنسبة للبعض على أنّها الاسم الأكثر

(1) http: //www.arabbible.com.

(2) جـ. فـ. ماكلولين ويهوذا ديفيد آيزنشتاين «أسماء الله»، في الموسوعة اليهوديّة، محرّرون. يـ. سينغر وسـ. أدلر (نيويورك، 1901- 1906).

قدسيّة، ويتبعها يهوه «إنّه هو» وتأتي بقيّة الأسماء بعدها. وإنّ معنى الكلمة شدّاي يبقى غير معروفٍ، ولكن يُفترض من شكله أنّه كان لقباً في الأصل؛ إذاً فإنّ مزاعم الموقع الإلكترونيّ المذكور غير صحيحةٍ، في أنّ الله له اسمٌ واحدٌ، وأنّ أسماءه العبريّة هي مجرّد ألقابٍ.

2) لا يوجد أيّ نصٍّ مقدّسٍ يقول إنّ على المرء عدمَ استخدام أسماءٍ أخرى، في الإشارة إلى الله، فهناك أكثر من ستّة آلاف لغةٍ في العالم، ومعظمها تتضمّن اسماً للكائن الأسمى. هذا ما يتوقّعه المرء في ضوء سفر المزامير 19 و رومية 1: 19-21. وفي معظم هذه اللّغات، الّتي تُرجم إليها الإنجيل، قد استُخدم الاسم المحلّيّ للكائن الأسمى للإشارة إلى الله، وفي الإنجليزيّة كلمة «God" هي الاسم الصّحيح الذي يتمّ استخدامه كاسم الله؛ غير أنّ المؤلّفين في هذا الموقع، أنكروا أنّ "الله" هو الاسم الصّحيح، وقالوا: إنّ على المرء ألّا يستخدم أسماءً للإشارة إلى الله ضمن أيّة ترجمةٍ للإنجيل. ويبرّرون فعلتهم بسابقةٍ مفادها أنّ مترجمي السّبعينيّة استخدموا كلمة Kurios "السّيّد" بدلاً من يهوه، وأنّ Kurios هو اسمٌ عامٌّ.[1] مع ذلك تجدر

(1) () في الواقع، إنّ أقدم المخطوطات الباقية من السّبعينيّة لم تترجم كلمة يهوه على الإطلاق، لكنّها كُتبت بالحروف العبريّة فقط. في المخطوطات LXX pOx3522، LXX نحال هيفر حبقوق، وفي LXX نحال هيفر زكريّا، اسم يهوه مكتوبٌ بالأحرف العبرانيّة القديمة (Paleo-Hebrew)، بينما في LXX pFouad 266b تمّت كتابة اسم يهوه بالأحرف العبريّة الحديثة. أمّا مخطوطة LXX pOxy1007 فتستخدم اختصاراً للاسم من الأحرف العبرانيّة القديمة. في مخطوطةٍ لاحقةٍ، LXX 4QLevB، تُرجم اسم يهوه إلى اليونانيّة على الشّكل IAΩ (iaō). أمّا الكتبة المسيحيّون فقد كتبوا اسم يهوه الموجود في العبريّة باستخدام الأحرف اليونانيّة الّتي تشبه الأحرف العبريّة وذلك حتّى القرن الرّابع، تحديداً على الشّكل ΠΙΠΙ (pi iota pi iota) بدلاً من יהוה (yod he waw he). في القرن الثّالث انتقد العلّامة أوريجانوس استخدام Π Ι Π Ι في مكان الأحرف العبريّة، ولكن بحلول القرن السّادس كان الكتبة يستخدمون الشّكل ΠΙΠΙ في نِسَخ طبعة السّداسيّات الخاصّة بأوريجانوس من LXX. ومع ذلك، في القرن الرّابع، أصبح من الشّائع استخدام اختصارٍ لمصطلح Kurios اليونانيّة كاسم الله في التّرجمة السّبعينيّة، كما رأينا في المخطوطات الفاتيكانيّة والسّينائيّة وفي القرن الخامس الإسكندرانيّة.

الإشارة إلى أنّ كلمة Kurios تُرجمت في التّرجمة السّبعينيّة وفي الاقتباسات عن التّرجمة السّبعينيّة ضمن العهد الجديد كاسمٍ صحيح وليس كاسمٍ عامٍّ. وكثيراً ما يمكن تمييزها من صوغ الكلمة kurios على أنّها اسمٌ عامٌّ بحذف أداة التّعريف،[1] وذلك في اللّغة الإنكليزيّة، وليس اليونانيّة، وإنّ كلمة يهوه تُرجمت بصورةٍ منتظمةٍ بكونها صفة "السّيّد". أمّا في اليونانيّة فكان اسماً صحيحاً [2] Κύριος. ومن ثمّ فإنّ البيان المنشور على الموقع يفتقر إلى مبرّرات الإنجيل فيما يزعم.

3) ترتبط كلمة "الله" العربيّة - كما بيّنّا مسبّقاً - مع الاسم العامّ في الإشارة إلى الله، و فسّر الكثيرون على أنّه لقبٌ خاصٌّ يدلّ على الله في جوهره الإلهيّ.

4) على عكس ما تضمّنه الموقع، فإنّ اللّقب "الله" ليس اسماً لبعضٍ من الكيانات المختلفة عن الله؛ على العكس من ذلك، هو الاسم المستخدَم للنّاطقين بالعربيّة من اليهود والمسيحيّين للإشارة إلى الله في الإنجيل، ويعرّف المسلمون "الله" أيضاً على أنّه الله في الإنجيل، خالق الكون، و أنّه

هذه هي الممارسات المستخدمة في جميع المخطوطات الموجودة في العهد الجديد اليونانيّ. وبعبارةٍ أخرى، احتفظ مترجمو السّبعينيّة في البداية بالشّكل العبريّ لاسم يهوه ولكنّهم ترجموا بقيّة الأسماء الإلهيّة الأخرى، بينما استخدم كتبة العهد الجديد مصطلحاتٍ يونانيّةً لجميع الأسماء، بما في ذلك استخدام الاسم الصّحيح Kurios. ويمكن رؤية ممارساتٍ مماثلةٍ في ترجماتٍ في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك اللّغة العربيّة واللّغات الّتي تحتوي على كلماتٍ مقترَضَةٍ من العربيّة.

(1) () أداة التّعريف غير موجودةٍ إلاّ عند الحاجة، وذلك لتتوافق مع حروف الجرّ العبريّة مثل -l أو et أو لفكّ التباس دلالة الكلمة؛ تُستخدم هذه الطّريقة مع كلّ الأسماء الصّحيحة في التّرجمة السّبعينيّة.

(2) () يوجد سياقات نحويّة في اللّغة اليونانيّة حيث تتطلّب الأسماء الصّحيحة أداة تعريفٍ، لاسيّما إذا كانت أسماءً أجنبيّة جامدة (كما كان اسم يهوه في الأصل ضمن LXX)، وهناك أيضاً سياقات نحويّة حيث تسقط أداة التّعريف من الاسم المعرّف النّكرة. وهو خارج نطاق الحاشية، باستثناء الإشارة إلى أنّ هذه الاختلافات يمكن أن تربك الباحث الّذي لا يفهم الأعراف اللّغويّة اليونانيّة المتعلّقة بهذا الأمر.

اختار إبراهيم، وبعث الأنبياء، وبعث المسيح، وسيحكم على الأمم في اليوم الأخير. ويضيّق هذا الوصف الإشارة المحتملة لمصطلح "الله" وصولاً إلى كيانٍ واحدٍ فقط: الله.

٦) في الختام، لم يعد هناك أيّ مبرّرٍ لحذف "الله" من الإنجيل باللّغة العربيّة أو غيره من الموادّ كمصطلحٍ غير لائقٍ الإشارة به إلى الله.

إنّ رفض مصطلح "الله" في الواقع، يُعدّ شيئاً من الإهانة للملايين من المسيحيّين النّاطقين بالعربيّة الذين يعبدون الله باسم "الله" منذ عصور ما قبل الإسلام، وإلى الملايين من المسيحيّين الذين يستخدمون مصطلح "الله" كاسمٍ للإشارة إلى الله في لغاتٍ أخرى.

الخاتمة

قام اليهود بنشر الدّيانة اليهوديّة ومصطلحهم الآراميّ (في الإشارة إلى الله) بين العرب، في القدس يوم العنصرة، وسمع الحجّاج اليهود من المنطقة العربيّة اسم الله بالعربيّة، والذي سُبِّحَ بقوّة الرّوح القدس (أعمال الرسل 2: 11) ونشرت المسيحيّة اليهوديّة هذا الاسم فيما بعد في المنطقة العربيّة، وكذلك مع بقيّة الطّوائف المسيحيّة اللّاحقة، وقد استُوعِب الاسمُ الآراميّ بشكلٍ جيّدٍ في اللّغة العربيّة، وأخذَ شكلَ "الله".

نشر المسيحيّون النّسطوريّون في الوقت ذاته إيمانهم شرقاً عبر آسيا، وذلك باستخدام الإنجيل السّريانيّ، ونشروا المصطلح السّريانيّ للإشارة إلى الله: ałâh-â، وعندما انتشر الإسلام في أنحاء المنطقة ذاتها، شاع الشّكل العربيّ للمصطلح نفسه، الله؛ ونتيجةً لذلك، تمّتْ استعارة أشكال هذه الكلمة، ودخلت إلى العديد من اللّغات على أنّها اسم الكائن الأسمى، وهكذا تمّ نشر هذا المصطلح الذي استخدمه سيّدنا يسوع المسيح للإشارة إلى الله في معظم أنحاء العالم.

يبقى اسم "الله" في صفوف العرب من اليهود والمسيحيّين والمسلمين المستخدَمَ لعبادة الله، ويُستخدم بصورةٍ مكرورةٍ في كلامهم تبجيلاً له واعترافاً به، و في مقالةٍ مؤثّرةٍ بعنوان "الله والمسيّحيون العرب"، يحاول أحد المسيحيّين البروتستانت من الشّرق الأوسط أن يشرح للمسيحيّين الغربيّين أهمّيّة اسم الله للمسيحيّين في العالم العربيّ. و قد يكون من المناسب أن أختتم بتصريحاته الختاميّة، والتي هي في شكل نداءٍ:

الرّجاء عدم الحديث أبداً أبداً ضدّ اسم الله الأعظم، وهو الاسم الذي أَحَبَّه وبَجّله الملايين من أبناء الله على مرّ العصور.[1]

---

(1) رفيق، «الله والمسيحيّون العرب»، 13/ 1 (1998)، 7.

الفصل الثالث

العلاقة بين الله في العربيّة

واللّاها في السّريانيّة

العلاقة بين الله في العربيّة واللّاها في السّريانيّة

ديفيد كيلتز [1]

ملخَّص

يخبرنا علم أصول الكلمات "Etymology" أو الإيتيمولوجيا بتنوّعه عن كلمة "الله" العربيّة و"اللّاها" السّريانيّة، وغالباً ما يُقترح أنّ الكلمة العربيّة "الله" قد تمّت استعارتها من السّريانيّة، ويحتوي هذا المقال على نظرةٍ شاملةٍ في الأدلّة اللّغويّة المتوافرة، خصوصاً أنّه يأخذ بعين الاعتبار الموادّ المخطوطة الأكثرَ حداثةً والّتي تسلّط الضّوء على تطوّر اللّغة العربيّة، فالتّحليل الصّوتيّ والصّرفيّ للبيانات، يؤكّد الأصل العربيّ لكلمة "الله" ثمّ نوضح في هذا المقال المشاكل في صوغ كلمة "اللّاها" السّريانيّة، واختلافَ الهيئة السّريانيّة للكلمة مع اللّهجات الآراميّة الأخرى، ونقدّم تفسيراً لذلك، حيث نناقش أيضاً إمكان اقتراض الكلمة السّريانيّة من اللّغة العربيّة.

أمّا الجزء الأخير، فيتحدّث عن كلمة "الله" في القرآن ضمن سياقها الثّقافيّ والأدبيّ، ودورِ الكلمة السّريانيّة في هذا السّياق.

ثمّ تنتهي هذه المادّة إلى أنّ كُلّاً من التّحليل اللّغويّ الدّقيق للكلمة، وكذلك الثّقافيّ والأدبيّ... يكشفون لنا عن وجود ترابطٍ متعدّد الطّبقات بين المصطلَحَين في سؤالنا، ويظهر أنّ كلمة "الله" يجب أن تكون كلمةً

---

(1) أودّ أن أشكر كرستيان جـ. روبن لإشارته إلى مادّة هامّة حول هذه القضية. و أودّ أيضاً أن أشكر د. نيكولاي سيناي، و د. جـ. ويتزتم وميشائيل ماركس لتدقيق النّصّ في اللّغة الانكليزيّة والمساهمة بملحوظاتهم القيّمة وبالتّأكيد فإنّ أي أخطاء هي على عاتق الكاتب.

عربيّةً صحيحةً، في حين إنّ لكلمة "اللّاها" في السّريانيّة وجهين على حدٍّ سواءٍ، إمّا بالاستعارة، وإمّا نتيجةً لتطوّرٍ آراميٍّ ضمنيٍّ جرى استحضاره؛ لكن وبغضّ النّظر عن اهتمام اللّغة بالحالة التّاريخيّة والثّقافيّة في شمال بلاد الرّافدين، فإنّ الوجود العربيّ المُبْكِر في تلك المنطقة يحتاج للتّدقيق! وفي المقابل، يُعدّ التّأثير اللّاحق لاستخدام كلمة "اللّاها" السّريانيّة بارزاً في استخدامها ضمن القرآن الكريم، ونودّ التّأكيد على أنّنا قدّمنا حالةً من التّواصل المطوّل والمتبادل أكثرَ من أن تكون حالةَ استعارةٍ من طرفٍ واحدٍ.

أكاديميّة العلوم، براندنبورغ برلين / ديفيد كيلتز

ملحوظاتٌ تمهيديّةٌ

تُستخدم كلمة "الله" في القرآن كتسميةٍ للإله الواحد في حالتين، فالأولى كاسمٍ عامٍّ غير عَلَم، والأخرى كاسمٍ صحيحٍ، وقد فُسّرت الكلمة بطرائقَ مختلفةٍ لتداخلها بين الإله والله،[1] وأيضاً بالتّشابه الواضح بين الكلمتين كاستعارةٍ من كلمة اللّاها السّريانيّة.[2]

---

(1) راجع جيرهارد بويرينغ: «الله وصفاته»، في: موسوعة القرآن، المجلد. 2(لايدن / بوسطن، 2001)، ص. 316-331، الّذي ينصّ على رأي الأكثريّة في عقد اليوم. وبويرينغ بعد يشوع بلاو: «سومريّات المعجم العربيّة»، في: مجلّة الدّراسات السّاميّة، المجلد. 17، 1972، ص. 173-190، ص. 175 وما يليها، يفترض اللّاها «الآراميّة» (أي السّريانيّة) كمصدرٍ لكلمة الله في العربيّة، وأود أن أضع الكلمة الآراميّة إيلاها أو السّريانيّة اللاها، ولكن راجع الفرع الثّاني C لمناقشةٍ كاملةٍ، لاسيّما "أطروحات" بلاو، وراجع "سومريّات" بلاو، ص.155 وما يليها، والّتي اعتمد عليها بويرينغ في تصريحاته.

(2) راجع مثلاً آرثر جفري، المفردات الخارجيّة للقرآن (بارودا، 1938)، ص. 66 مع الآداب القديمة. كارل أهرينس، «المسيحيّة في القرآن»، في المجلة الألمانيّة المجتمع الشّرقيّ، المجلّد. 84، 1930، ص. 15-68، ص. 35 يفترض أنّ كلمة الله في اللّغة العربيّة «تأثّرت بشدّةٍ» من كلمة اللّاها في اللّغة السّريانيّة ودائماً يوجد احتمال موازاة تطوّرٍ داخليّ - عربيّ على ذلك من اللّات آل - إيلات.

نجد في هذا المقال نظرةً حديثةً في جذور العلاقة بين الله العربيّة واللّاها السّريانيّة خصوصاً، وتحتمل إعادة النّظر في المسألة وجودَ لفظٍ دخيلٍ من السّريانيّة إلى العربيّة، أو من العربيّة إلى السّريانيّة، ويكون الاتّجاه عادةً من السّريانيّة إلى العربيّة وذلك عندما يكون اللّفظ الدّخيل موجوداً، لأنّ السّريانيّة لغةٌ أدبيّةٌ يُشهد لها منذ القِدم.(1) ولو أمعنّا النّظر في الحالة اللّغويّة فإنّ ذلك يستدعي وضع افتراضنا هذا موضع التّساؤل.

الأدلّة اللّغويّة

أ- التّشارك في السّاميّة:

نجد في السّاميّة المصطلَحَ الأكثرَ شيوعاً للدّلالة على خالق الكون في الإشارات التّالية:

يُسمّى في الأكاديّة ((ilu ilu(m)) وفي الأوغاريتيّة‘lhm ‘lm) ‘l بمعنى ilu‘iluma‘lVhuma وبالنّسبة للعبريّة نجد ’el، أمّا في الفينيقيّة والآراميّة والعربيّة والعربيّة الجنوبيّة فهي ’l (2). وهذا الاستخدام مبرّرٌ شكلاً كما في اللّغة السّاميّة الأولى - ’il والسّاميّة الوسطى، ونجد أيضاً امتداداً آخر للشّكل في اللّغة العبريّة إلوهيم(3) (وعلى الأكثر ‘elohim

(1) إينو ليتمان، «النّقوش النّبطيّة من مصر - الثّانية»، في نشرة مركز الدّراسات الشّرقيّة والأفريقيّة، 16 (02)، 1954، ص. 211-246، وسوزان كرون، اللّات الإلهة العربيّة القديمة، Frankfurt A.M. et (فرانكفورت، 1992)، إعطاء الحجج لاتجاهٍ عكسيّ في الاقتراض، من العربيّة إلى السّريانيّة. هذه الحجج و أمورٌ أخرى تتمّ مناقشتها في هذه المقالة، كصعوبة تفسير شكل اللّفظ السّريانيّ. لأنّ الشّكل العربيّ أمرٌ طبيعيٌّ في اللّغة العربيّة للناطقين بالعربيّة والسّريانيّة.

(2) نجد أيضاً Ηλ و Ιλος المنقولة عبر اليونانيّة.

(3) إنّ أصل العنصر الثّاني -ah ليست واضحةً تماماً وقد فُسّر ذلك كعنصرٍ موجّهٍ. راجع مثلاً هانس باور، "مشاكل اللّغة السّاميّة"، في المجلّة الألمانيّة المجتمع الشّرقيّ، المجلد. 69، 1915، ص. 561-563، كما ترتبط صيغ الجمع الأوغاريتية ‘ -lht

في حالة الجمع)، أمّا الآراميّة 'elah' lhl والعربيّة 'ilah' والعربيّة الجنوبيّة القديمة 'lh، ونجد في الكتابة المسماريّة الأشكال ilu(h)a -ila(h)i-(i)lu(h)a- الّتي تُظهِر الصّوتيّاتِ الكنعانيّةَ والآراميّة على التّوالي.

بناءً على ما سبق، نستخلص مصطلح *ilah'- في اللّغة السّاميّة الأولى، واستخدامه بشكلٍ متباينٍ في العربيّة والسّريانيّة الله و allaha، ومن الواضح اختلافُهما في حروف العِلّة في الصّوت الأوّل[1] وتكرار الجذر الثّاني. بينما نجد في السّريانيّة[2] allaha كمصطلح وحيد الاستخدام، لأنّ العربيّة تستخدم (الإله) و تستخدم أيضاً (الله)،[3] لذا دعونا نلقي نظرةً فاحصةً على اللّغتين العربيّة والسّريانيّة.

ب ـ الله: الحالة في اللّغة العربيّة:

ربّما يكون البرهان الأقدم لمصطلح "الله" موجوداً في قرية الفاو في النّقش

'lhm، على الرّغم من إمكان قراءتها / ilahatu‚'ilahuma›، أي بمعنى تخفيف الحرف المتحرّك الثّاني، انظر في العربيّة أمّ «ummu»، أمهات ummahat ›، و راجع أيضاً جـ. هيونيغارد، «ملامح السّاميّة الوسطى»، في المقالات التّوراتيّة والشّرقيّة في ذكرى وليام لـ. موران، (روما: معهد الكتاب المقدّس البابويّ، 2005) ص. 192. وعلى أيّة حالٍ بما أنّه من النّادر وجود جذرين للأسماء في السّاميّة، ومع أفضليّة الاقتصاص، فإنّه لمن غير المستغرب وجود ثلاثة جذور. وبالنّسبة للعلاقة بين 'el و 'elohîm في الكتاب المقدّس العبريّ انظر ثيودور نولدكه، «Elohim El"، في الأعمال البروسية في الأكاديميّة الملكيّة للعلوم، (برلين، 1982) ص. 1175-1192.

(1) أيضاً في البونيقية لدينا: alonim، alonuth لكنّ هذه الاشتقاقات مختلفةٌ بشكلٍ واضحٍ عن الجذر -il* ايل.

(2) هناك أيضاً إيل في السّريانيّة (السّريانيّة الغربيّة أيل، تكتب 'YL) ويتمّ استخدامه فقط في أسماء العلم أو يُوصف كترجمةٍ افتراضيّةٍ من اللّغة العبريّة' أيل، عدا عن كونه عنصراً معجمياً، ربّما يظهر استعمالاً أقدم أيضاً، كما الحال في العنصر -'/ il il- الموجود في أسماء كلّ من الشّمال وجنوب المنطقة العربيّة.

(3) بالنّسبة للفارق الدّلاليّ بين السّريانيّة والعربيّة، وانظر أدناه في الفقرة (ج).

العائد للقرن الأوّل قبل الميلاد،[1] ونظراً لأهمّيّته سنورد هذا النّقش هنا بالكامل.

1_ ‘gl bn Hf m bn l-’ h -h Rbbl bn H=

2_ f’ m qbr w-l-hw w-l-wld-hw w-m=

3_ r’t-h w-wld-hw w-wld wld-hm

4_ w-ns1y-hm hryr dw-’l Glwn f-

5_ d-h b-Khl w-Lh w-’ tr

6_ S2rq mn‘zzm w-wnym w-

7_ s2rym w-mrthnm ‘bdm

8_ bn wks1 md-ky tmt=

9_ r ‘-s1my dm w-l-’r=

10_ d s2‘r

هذا النّصّ ـ وهو نقشُ "عجل بن هفعهم" تخليدٌ لأخيه ربيئيل بن هفعهم ـ ويجعل استخدام أداة التّعريف - ’l (ال) تُظهر السّلوك نفسه، كما هو معروفٌ عن اللّغة العربيّة الفصحى، وهو ما يعني الإدغامَ قبل الحروف السّاكنة «الشّمسية»، كما الحال في كلمة سارق و سماء \ السّارق و السّماء.[2]

وكما هو متوقّعٌ، لا تتمّ الإشارة لتَضاعُف عددِ الحروف السّاكنة، وزِدْ على ذلك، فإنّ أوّلَ ألفٍ من أداة التّعريف هي همزة وصلٍ يتمّ إسقاطها إذا سبقها حرفٌ صوتيٌّ آخراً كما في كلمة الأرض - ال أرض w-l-’rd

(1) كريستيان جوليان روبن: «أقدم المعالم الأثريّة في العربيّة» وفي المصدر نفسه: L’Arabie antique de Karib ’il à Mahomet: بيانات جديدة عن تاريخ العرب من خلال النّقوش، مجلة العالم الإسلاميّ والبحر الأبيض المتوسّط، المجلّد 61 (إيكس إن بروفنس، 1991) ص. 113-125، ص. 115.

(2) أو بالأحرى /as´-s´ariq/ و /as-samay/.

/wa-l-'ard =/ ومن ثمّ يمكن لكلمة (والله) المذكورة أعلاه أن تُقرأ (وا للاه) / /wa-Lah / (وا لله) بدلاً من /wa-Llah/ . و هذا ما أكّده مخطوطٌ آخرُ من قرية الفاو:(1)

1- [......ft 'q= [......]ft a dé-

2-]ny mr]'-hw 'lh f-s1m= [diéà son seign]eur Allah]et Il les a

3-]l-hm]w exaucé]s

نجد هنا الشّكل (lh/ allah/ الله) بدون أيّ تعديلٍ، و يمكن للمرء - نظريّاً - أن يقرأ لاه "lah" في النّقش الأوّل و"ilah" إله في الثّاني، وفي الأحوال كلّها فإنّ النّقوش تتنوّع في اللّغة العربيّة، وبالرّجوع لشيفرة أوغام، يجب أن نفترض صوابيّة المصطلح (allah) في كلتا الحالتين؛ وإنّ هذا النّقش في المرحلة المُبْكِرَة لشمال المنطقة العربيّة، بجانب عددٍ قليلٍ من النّقوش الأخرى، مثل نقش النّمارة و نقش حرّان... قد تمّ فيه استخدام أداة التّعريف (ال)،(2) وإضافةً لما ذُكر أعلاه، فإنّ هذه الأداة تسلك سلوك اللّغة العربيّة الفصحى، ولدينا عددٌ كافٍ من الأدلّة المتعلّقة بمصطلح «الله» والـ (إله) من خلال الأبيغرافيا (علم النقائش) وغيرها.

وبالإضافة إلى النّقوش المذكورة مسبّقاً، هناك تدوينٌ لأسماءٍ عربيّةٍ موجودةٍ بشكل نصوصٍ ثنائيّةِ اللّغةِ، ومكتوبةٍ بالعربيّة و باليونانيّة، وهي

---

(1) جون ريكمانز، «الأبجديّات والمخطوطات واللّغات في المرحلة ما قبل الإسلاميّة بدليل النقوش العربيّة»، وانظر عبد الرّحمن النّاصري، «صورة للحضارة العربيّة قبل الإسلام في المملكة العربيّة السّعوديّة»، (جامعة الرّياض، 1984م) ص. 73-86 ص75..

(2) راينر ماريا فويت، في «المقالات في السّاميّة»، مجلة الدّراسات السّاميّة، المجلّد. 43، 1998، ص. 221-258، ص. 225.

تؤكد على وجود مصطلح الله حتّى في الصّفويّة،[1] كذلك في نقوش الصّحراء الأردنيّة (WH 1894) الّتي نجد بداخلها (WHB'LH) محوّلةً لليونانيّة على هيئة (OYABAAC) ممّا يدلّ على أنّ الشكل العربيّ الأساسيّ هو / وهب الله/ . وقد تمّ العثور على أدلّةٍ مشابهةٍ في النّبطيّة،[2] ونجد في تدمر اثنين من الأسماء السّليمة الّتي يمكن أن تُفسّر على أنّها مثل (زبد الله) و (نابو الله) أي إنّ زبد هو إلهٌ، و نابو هو إلهٌ أيضاً.[3] وفي المدّة نفسها نجد مصطلح «الإله» في زبد (60 كم جنوب شرق حلب) ضمن نقشٍ مؤرّخٍ بعام 512.م:[4]

d](k)r ʻl-ʼlh Srgw bn ʻmt Mnfw w-Tlhʼ bn Mrʼ]
l-Qys w-Srgw bn

.Sʻdw w-Strw w-Sy[.]thw

"بنصر الإله شرحو بدمع منفو (برمر، بن مر) القيس وسرحو بن سعد وستر وشريحو».[5]

---

(1) مسألة أوائل الشّمال العربيّة بالنّسبة لأداة التّعريف هي معقدة، ولهذه الدّراسة يكفي أن نلحظ أن (ال) موجودةٌ في المجالات ذات الصّلة، على الأقل في الأسماء الشّخصيّة. لمعرفة المزيد عن هذه المسألة انظر ألفريد بيستون، «اللّغات العربيّة قبل الإسلام»، في المنطقة العربيّة 28، ص. 178-186؛ فويت، «مقالات في السّاميّة»، وكريستيان جوليان روبن، «النّقوش العربيّة القديمة والدّراسات العربيّة»، في العربيّة، المجلد. 48، ص. 509-577، ص. 541.

(2) مكتوبة WHB‹LHY، راجع أيضاً ليتمان، "نقوش النّبطيّة"، ص. 222.

(3) راجع سوزان كرون، «اللات»، ص. 463.

(4) بعد كريستيان جوليان روبن، «La réforme de l'écriture arabe à l'époque du califat médinois"، في Mélanges de l'Université Saint-Joseph المجلد. 59، ص. 319-364، ص. 337.

(5) التّرجمات الّتي قدمها روبن، «La réforme"، ص. 337.

يوضح هذا النّقش الأخير استخدام مصطلح الإله في السّياق المسيحيّ، وهذا يعني أنّنا حين نستخدم أداة التّعريف (ال) مع مصطلح (إله) فإنّه يُنظر إليها على أنّها مناسبةٌ للدّلالة على الله في المسيحيّة. و إنّ استخدام مصطلح «الإله» إلى جانب مصطلح «الله» في إطار التّوحيد، نراه أيضاً في شعر النّابغة الذّبيانيّ[1]:

لهُمْ شيمة ٌ لم يعطها اللهُ غيرهمْ ... منَ الجودِ والأحلامُ غيرُ عَوازِبِ

محلتـــــــهمْ ذاتُ الإلهِ ودينـــهمْ ... قويمٌ فما يرجونَ غيرَ العواقـــبِ[2]

*****

حيث يصف النّابغة الذّبيانيّ أخلاقَ قومه الفاضلةَ، وعقولَهم الحاضرة الّتي وهبها الله لهم دون بقيّة الشّعوب، وأنّ إلههم هو الله، ودينهم هو الدّين القويم الصّحيح، و لذلك فإنّهم يرجون خير العواقب.

كما أسلفنا، يوجد أبحاثٌ قديمةٌ جدّاً حول اشتقاق مصطلح «الله» من مصطلح «الإله» وإذا ما تمّ استثناء فرضيّة وجود الإعارة أو الاقتراض من لغةٍ مختلفةٍ، فإنّه يبدو أنّ احتمال تقلّص المصطلح المذكور، هو الطّريقة الوحيدة لشرح سؤالنا، مع العِلم أنّ هذا التّقلّص أو الانكماش موجودٌ بشكلٍ منتظمٍ في أجزاءٍ من المنطقة العربيّة، حيث نجد في كلام بروكلمان: (بروكلمان: النّحو المقارن ص. e 54) ما يلي:

التّكرار اللّفظيّ في العربيّة مزعجٌ في حال وجود حرف عِلّة بين الأحرف المراد تكرارها لفظاً.

---

(1) النّابغة الذّبيانّي، ديوان النّابغة الذّبيانّي (مصر، 1911) ص. 15؛ راجع أيضاً توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن [طبع دير أوسغابي طوكيو،1964]، نيويورك 1980، ص. 116.

(2) ترجمة غسان المصري.

{ال إلهُ تصبح اللهُ} و{الـ - إلات تصبح اللّات} و{الـ - ناس تصبح النّاس}.

وكان ديفيد تيستين [1] من لحظ أنّ 'al-} + u /iCaC تصبح al- CaC}[2] وهذا تطوّرٌ لغويٌّ حجازيٌّ معتادٌ، حيث لا يوجد في اللّهجات المحلّيّة كلّها،[3] وتؤكّد التّحليلات الأخرى لمصطلح الله، أنّه من المصطلح (الـ - إله) كما التّالي:

1) استخدام الصّوت الأوّليّ يماثل استخدام (ال) التّعريف في اللّغة العربيّة الفصحى.

2) 'al-} + u /iCaC تصبح al-CaC}هو تطوّرٌ صوتيٌّ معروفٌ - على الأقلّ - في بعضٍ من اللّهجات العربيّة.

3) مضاعفة حرف اللّام لا يمكن أن يُفسّر في اللّغة العربيّة بغير هذه الطّريقة.

4) هناك حالةٌ موازيةٌ مع ما يُقال في قاعدة -ilatal' <alla[4]

5) يُستخدم مصطلح الله بالتّوازي مع مصطلح الإله. [5]

---

(1) ديفيد تيستين، «النّصوص الأدبيّة في العربيّة والحجازيّة القديمة: التّناقضات في تحديد الحقائق»، في Elabbas Benmamou، المحرّران. مشيرة عيد، ونيلوفر حايري، "وجهات نظر حول اللّسانيّات العربيّة"، المجلد. 11، أتلانتا، 2005، ص. 209-225.

(2) في هذا الصّدد، المحرف التخطيطيّ C يقع بكونه صاحب المقام لأيّ ساكنٍ، والصّوت الأوّليّ يمكن أن يكون إما i أو u ولكنّها ليست a.

(3) من المرجّح أنّ هذا التّطوّر ليس حكراً فقط على منطقة الحجاز، في الواقع تتميز بانتشاره المنطقة الغربيّة لتؤمن استمرارية اللهجات.

(4) مصطلح آلات بالطّبع لم يكن فقط الشّكل المؤنّث من «الإله»، بل هو تشكيلٌ قديمٌ لحالة دمج بين الأوغاريتية ilat'/ ilt /، ديل أولمو وليته و سان مارتن (2003:66) والفينيقيّة lt' /ilot'/ Krahmalkov2000 ص. 56 وما يليها.

(5) للنّقطة الخامسة والسّادسة انظر أدناه.

6) مصطلح الله يعني "إلهاً واحداً فقط / خالق الكون".

يبدو أنّ المصطلح "الله" استُخدم للدّلالة على إلهٍ معيّنٍ كما هو واضحٌ في نقش قرية الفاو إلى جانب آلهةٍ أخرى. فهو الإله الذي يعبده ويرتبط معه برابطٍ مقدّسٍ، ومن الممكن أنّ له أسماءً مفضّلةً كما هو "ناب الله" وحتّى الاسم "وهب الله" له القدسيّة نفسها، ومن ثمّ لا يُؤخذ مصطلح "الله" للإشارة لخالق الكون فقط، بل من الممكن أن يعطي معنى وهب الله (هدية الله) "لله الذي أعبده"، كما كُتب في نقش قرية الفاو، ونعدّ مصطلح الله في هذه الحالة مصطلحاً عامّاً، وتفسيراً للأسماء الكثيرة الّتي تشير إليه على الرّغم من شحّ الأدلّة في هذا المجال.(1)

ويوجد تشابهٌ لِما سبق في المنطقة العربيّة الجنوبيّة، لكنّ أهمّ الأدلّة نجدها في القرآن، فقد وُصِفَ اللهُ بأنّه «الإله العالي» حتّى قبل تبنّي الإسلام له، كما في قوله: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ} (سورة الزخرف، الآية 87)؛ وقوله: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} (سورة يونس، الآية 31)؛ وقوله: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} (سورة الزمر، الآية 38).

ويبدو أنّ هذه الآيات تعالج مسألة «المشركين» بدلاً من الوصف المباشر للمسيحيّين أو اليهود، فهذه الآيات تشير ـ فيما يبدو ـ إلى الاعتقاد بالخالق

(1) تذكر هيلاري (2001:29) في نقشٍ آخر يعود لمدّةٍ لاحقةٍ للنّبطيّين نفياً في تكرار لفظ الإله يؤكّد وفقاً للمؤلّف الاشتقاق العربيّ لمصطلح الله من الآراميّة، وفي هذه الحالة يبدو استخدام مصطلح الله أفضل الأسماء الشّخصيّة لخالق الكون.

الأسمى «الله» بين الوثنيّين العرب،[1] ثمّ باختصارٍ نجد استخدام مصطلح «الله» يدلّ إمّا على «إله» في سياقٍ محدّدٍ أو إلهٍ بشخصه المتفرّد، ويُنظر إليه فيما سبق أنّه «الإله الأعلى» قبل الإسلام، كما يُستخدم هذا المصطلحُ من المسيحيّين للدّلالة على إلههم.[2]

جـ ـ الله: الحالة في اللّغة السّريانيّة:

إنّ المصطلح العامّ في اللّغة السّريانيّة في الإشارة لخالق الكون هو "الله"، ويُستخدم على الأخصّ لا على سبيل الحصر للإشارة إلى إله اليهود والمسيحيّين، أمّا في إطار الوثنيّة، فنجد على سبيل المثال: الله الّذي يكره أولاده (allaha sane bnayya) ، بإشارةٍ إلى ساتورن (كورنس) الإله الذي يبتلع أبناءه، ونجد أيضاً هيكل الآلهة ("haykla d-metqre d-kul allah ")، وأيضاً البانثيون، وفي صيغة الجمع، نجد (أيّام الآلهة) أي أيّام الأسبوع السّبعة في السّياق اليهوديّ والمسيحيّ، وعلى سبيل المثال "الله الأبديّ" (allaha d- ‘alme، وفي العبريّة elolam‘) وأمّا في المسيحيّة فنجد القول الواضح "الله العظيم يسوع المسيح"،[3] وأيضاً «باسم الآب والابن والرّوح القدس الإله الواحد»، مع العلم بأنّ الشّكل السّريانيّ الدّقيق كان محلّ نقاشٍ، وقد وجد أحدُهم أنّ كلا الشّكلين صحيحٌ، وهما

(1) حول هذه المسألة انظر بيترسون (2004)، و قارن أيضاً مع كرون، «اللات»، ص. 467. و وليام مونتغمري وات، «القرآن والإيمان بالله العليّ»: مكّة ما قبل الإسلام»، مجلّة الدّراسات السّاميّة، المجلّد. 16 (1)، 1971، ص. 35-40، والمرجع نفسه، «القرآن والإيمان في «الله العليّ»، في الإسلام، المجلد. 56، 1979، ص. 205-211؛ انظر أيضاً إيزوتسو، «الله والإنسان»، ص. 96-119. إذا كانت موجهةً للمسيحيّين، كان لابدّ من إيضاح فكرة «توحيد الله».

(2) لمعرفة الوجود المسيحيّ في المنطقة العربيّة والمناطق المجاورة راجع مثلًا جون سبنسر ترمنغهام (1979) و تريزا هانثيلير، «المسيحيّين العرب قبل الإسلام: النّشر والانتماء الدّينيّ». مقدّمة لوفين وآخرون 2007.

(3) تُؤخذ الأمثلة السّريانيّة من ريتشارد باين سميث، كنوز السّريانيّة، المجلّد. 1، هيلدسهايم وآخرون، 1981، ص. 195.33).

«الله» و«اللّاها» لكنّنا وجدنا إشارة المضاعفة واضحةً في القواعد العامّة مثل (بروكلمان، القواعد السّريانيّة، ص 135 ؛ نولدكه: (Kurzgefasste Syr.Grammatik. 14/§ 21)، وقد كان "بلاو" هو من جادل بقوّة لقراءة (alaha).[1]

وعلى الرّغم ممّا سبق، فإنّ هذا الشّكل نسبةً لعِلم الصّرف أو اللّسانيّات في السّريانيّة يسبّب إشكاليّةً لغويّةً، ويجب على الأنموذج أو الشكل البدائيّ -alah** أن يصبح elah(a) في السّريانيّة، بناءً للقاعدة الشّهيرة... حذفُ حرف العِلّة فيتمّ حذف الحرف (a)، مثل ʿamara*>(ə)ʿemar>mar، والمشابهة لكلمة qatala*>qətal. وأمّا بلاو، فإنّه يزعم أنّ الألف الزّائدة تمّ الحفاظ عليها بناءً على ما سبقها. و بالنّسبة للسّريانيّة، لا يجب الحفاظ على (الألف) في بداية الكلمة، بغضّ النّظر عن نوعيّة حرف العِلّة الصّوتيّ، حيث يمكن الحصول عليها من الصّوتيّات السّريانيّة، ويشير بلاو بذلك إلى نولدكه،[2] على سبيل المثال للحفاظ على الألف بدون حذفٍ (من أصل الكلمة) ونجد akol /akul بالإشارة لكلمة أَكْل في العربيّة؛ وقد لحظ بروكلمان وآخرون الدّليل السّريانيّ (بروكلمان، القواعد السّريانيّة، ص 135)، في وجود تكرارٍ لفظيٍّ في حرف اللّام، وفي السّريانيّة الغربيّة «allaha" يتمّ لفظها أيضاً بطريقةٍ ثانيةٍ هي (alaha /aloho) كما يتمّ تخفيف الحروف السّاكنة المضعّفة جميعها في تلك اللّهجة؛ غير أنّ ذلك لا يؤثّر على إنشاء الشّكل بصيغته الأصليّة، وهو تطوّرٌ لاحقٌ، وليس لكلمةٍ محدّدةٍ بذاتها كما في سؤالنا، ويبدو أنّ "بلاو" اعتمد على "بار هيبراوس"،[3] الذي لحظ في استخدام السّريانيّة المدنيّة الشّرقيّة عدم مضاعفة حرف اللّام ((al(l)aha) لكنّ هذه النّظريّة غير واضحةٍ فيما لو كانت تظهر الحالة الحقيقيّة

---

(1) راجع بلاو، «سومريّات»، ص. 155.

(2) ثيودور نولدكه، موجز في قواعد اللّغة السّريانيّة (ليبزيغ، 1908) ص. 24، 34

(3) موبيرج (1922: 227).

لشكل المصطلح، وذلك لأنّها من الممكن أن تندرج في إطار الصّوت الحلقيّ بانقباض الحنجرة، وضمن المرجع نفسه أكّد بار هيبراوس وجود التّكرار أو المضاعفة في السّريانيّة المدنيّة الشّرقيّة،[1] لهذا اللّفظ على الأقل في الاسم الإلهيّ، حيث يمكن بالطّبع أن يكون نتيجةً لتأثير اللّغة العربيّة فقط، وليس نتيجة لغةٍ أقدمَ. غير أنّه من اللاّفت للنّظر، كما أكّد «بار هيبراوس» على أنّ هذا اللّفظ يمنح حالاتٍ (ثانويّةً) لتضاعف حرف اللاّم في السّريانيّة الغربيّة، في حين أنّه من غير الممكن الاستدلال على اللّفظ الأصليّ لمصطلح الله (allaha) في السّريانيّة الغربيّة، وبالإشارة أيضاً إلى التّراث اليهوديّ البابليّ في استعمال النّطق للكلمة المقدّسة الله،[2] تبدو عمليّة النّطق محفوفةً بالصّعوبات، ونلحظ أنّ أكثر الكلمات شيوعاً في التّراث اليهوديّ البابليّ هي (elaha /ʼylh) وهذه الكلمات موجودةٌ بشكلٍ عامٍّ من دون اليهود، ومن هنا، وبصرف النّظر عن الصّعوبات في النّطق، فإنّه لمثيرٌ للشّكوك لو كان مصطلح "الله" يمثّل في اللّهجات المستقلّة للسّريانيّة تطوّراً صوتيّاً عامّاً، أو مصطلحاً لمن هم ليسوا بيهودٍ، ويتحدّثون بالسّريانيّة أو العربيّة.

فمن أجل هدف هذه الدّراسة، سوف نفترض أنّ الشّكل العامّ والأصل هو الله، ونؤكّد على أنّ العديد من النّقاط الرّئيسة الواردة فيما سيأتي لاحقاً هي ممكنةٌ، مع الأخذ بعين النّظر وجود إشكاليّةٍ صوتيّةٍ في السّريانيّة فيما أسلفنا، حيث إنّ اللّهجات الآراميّة جميعها لديها استمراريّةٌ في السّاميّة الوسطى المبكرة، ʼilah* المسمّاة elah(a)، وهذا يؤدّي إلى استنتاج أنّ السّريانيّة تختلف في نقطتين هامّتين هما:

1) الصّوت الأوّليّ a- بدلاً من e-.

2) مضاعفة أو تكرار الحرف الثّاني.

---

(1) يستخدم بار هيبراوس مصطلح (ḥwiṣa) للدّلالة على "التّضعيف" في اللّغة العربيّة راجع أيضاً موبيرج (1907-1913: 38).

(2) راجع سوكولوف (2002: 133).

ويمكن للمرء أن يعلّل الظّاهرة الثّانية بالإشارة إلى مضاعفة أو تضاعف الحرف السّاكن بعد حرف العِلّة كما هو الحال في بعضٍ من الكلمات السّريانيّة،> les̆s̆ana < *lis̆an-|attana *'atana' 'she-ass(1).

ويترك لنا ذلك ثلاثة احتمالاتٍ هي:

1) نوعٌ ما من التّشبيه.

2) التّعديل المورفولوجيّ أو الصّرفيّ.

3) الاقتراض أو الاستعارة.

ونجد بالنّسبة لاحتماليّة التّشبيه مشكلةً تتمثّل في جاذبيّة الدّلالات اللّغويّة، الّتي تتلخّص في عدم وجود أيّ مرشّحٍ من شأنه أن يكون قريباً لغويّاً بما فيه الكفاية، لبدء مثل هذا التّطوّر،(2) ووجود ما يُعزى للتّعديل الصّرفيّ في السّريانيّة، كما هو الحال في pə'al(a) (<pa'al*)، حيث إنّ ارتباط الشّكل يكون مع اسم الفاعل أو الأسماء المجرّدة pa''al(a)، ونلحظ أنّ المصطلح الآراميّ (elah) يُلفظ (pi'al*) وليس (pa'al*) إلّا أنّ النّمطين اندمجا في السّريانيّة ليصبحا p(ə)'al>، وتزامناً مع ذلك لانجد اختلافاً واضحاً بالنّسبة للمتحدّثين بالسّريانيّة. ويمكن أن يحدث هذا التّوافق بعد تشديد الجذر الثّاني (elah*) ليصبح (ellah*) أو بدون هذه الخطوة الوسيطة، لأنّ من شأنها تبسيط مرور النّمط pə'al > pa''al، أمّا الحالة الثّالثة فيمكن للمرء أن يفترض فيها استعارة مصطلح «الله» من اللّغة العربيّة على عكس السّريانيّة المشتقّة من مصطلحٍ أقدمَ أو المبنيّة على

(1) راجع كارل بروكلمان، قواعد اللّغة السّريانيّة: الأنموذجات الأدبيّة، كريستومات وجلوسر (برلين، 1991) ص. 18.

(2) الجذب الدّلاليّ يشير إلى حقيقة أنّ الكلمات تكون قريبةً من المتضادّات أو من المترادفات، وخلاف ذلك يكون بتجمّعها معاً لغويّاً، وغالباً ما يظهر التّوافق المورفولوجي الثّانويّ.

علم الصّرف.[1]

المناقشة

سوف نواصل فيما يلي البحث في مصطلح "الله" باللّغة السّريانيّة، وإمكان كونه لفظاً دخيلاً من اللّغة العربيّة، والتّأثير المحتمَل للسّريانيّة على الكلمة العربيّة، والتّأثيرات الواردة في القرآن، في حين يستخدم متحدّثو اللّغة العربيّة (ال) التّعريف في لهجاتهم، ويستخدمون مصطلح "الله" بدلاً من "الإله" المستقرّ على مسافةٍ قريبةٍ من مراكز اللّغة السّريانيّة، اللّغة الرّسميّة في إيديسا عاصمة أسروينا (مملكة الرّها)[2] والّتي تأسّست من قِبَل أسرةٍ عربيّةٍ في 132 قبل الميلاد، فلا أقلّ من أنّ بعضاً من أفرادها يحملون أسماءً عربيّةً من مثل: أبجر، وائل، معن؛[3] وهناك عددٌ من الكلمات باللّغة السّريانيّة الّتي يمكن أن تكون من العربيّة، مثل: كلمة «والي» والّتي تتناسب في العربيّة مع كلمة (وليّ)، وكلمة (وعد ـ wa'da) كما في اللّهجات الآراميّة، حيث نجد الاقتراض في العربيّة من لهجاتٍ آراميّةٍ متعدّدةٍ أبرزها النّبطيّة، وربّما الأهم من ذلك هو وجود عددٍ من أسماء آلهةٍ عربيّة المنشأ في

---

(1) أُشير إلى إشكالية شكل الكلمة السّريانيّة بالفعل من قبل جورج فيشر وإمكان الحصول على اقتراضٍ من بعضٍ من اللّهجات العربيّة إلى السّريانيّة ونُوقش ذلك من قِبَل كرون، اللّات، ص. 464 وما يليها.

(2) راجع جان ريستو، العرب في العصور القديمة: تاريخهم من الآشوريّين إلى الأمويّين (نيويورك، 2003) ص. 440 وما يليها.

(3) راجع كلاوس باير، النّصوص الآراميّة من البحر الميّت: إلى جانب نقوشٍ فلسطينيّةٍ، لفتةً سريعةً على الشّواهد التّلموديّة القديمة: مدخل في الآراميّة للنّصّ والتّرجمة، التّفسير والنّحو/ القاموس (غوتنغن، 1984) ص. 46، وارنست أكسل كناوف، «العربيّة والآراميّة في المنطقة العربيّة: من العربيّة القديمة الى اللّغة العربيّة الفصحى 200 م – 600 م"، وفي أنجيليكا نويفيرت / نيكولاي سيناي/ ميشائيل ماركس (محررون)، القران في السّياق: التّاريخي و التّحقيقات الأدبيّة (ميليو، لايدن، 2010) ص. 197-254، ص. 212 الشّكل. 8

إيديسا، إضافةً إلى غيرها من مدن سوريا الكبرى، من مثل الحضر وتدمر، و من ثمّ فإنّ كلمة عزيز (إله نجمة الصّبح التّدمريّ في الميثولوجيا السّوريّة) "zyzw" نجدها باللّفظ اليونانيّ (Azizos) إلى جانب الإله (منعم) وباللّفظ اليونانيّ (Monimos) والمؤيّدة بأدلّةٍ واضحةٍ في أوديسا.[1]

أمّا الأهمّيّة الكبيرة في نقوش أسماء الآلهة السّوريّة التّدمريّة من مثل (وهب اللات) و(عبد اللات) على التّوالي،[2] والّتي تعكس اسم اللّات في أسماء الآلهة العربيّة... فإنّها أيضاً إشارةٌ إلى أسماء الآلهة العربيّة، وزِدْ على ذلك، هي أيضاً إشارةٌ لكيفيّة تشكّل مصطلح «الله» مثل اللّات والإله كما أسبقنا، وذلك نسبةً إلى بروكلمان،[3] وندرك من مجمل ما سبق أنّ هناك وضوحاً لعنصر اللّغة العربيّة في مملكة الرّها أو أسروينا، كما لحظنا أنّ معظم النّصوص المسيحيّة الأولى المؤيّدة بأدلّةٍ باللّغة العربيّة، تَستخدم مصطلح الإله، وأيضاً الله؛[4] ونظراً للاستخدام في السّيّاق الوثنيّ، فإنّه من الممكن القول: إنّه لو كان مصطلح «الله» مستعاراً من العربيّة فيجب أن يكون مستوى استخدام هذه الكلمة يدلّ على شيءٍ أقلّ قيمةً من خالق الكون، حتّى إنّه في السّريانيّة، يمكن أن يُستخدم هذا المصطلحُ للإشارة إلى أنّه إلهٌ دون أيّ وضوحٍ مرتبطٍ في سماته كخالقٍ للكون![5] ومن ناحيةٍ أخرى،

---

(1) راجع هندريك درايفس، الطّوائف والمعتقدات في إيديسا، (لايدن، 1982).

(2) نظر على سبيل المثال درايفس وهيلي 1998: 58 وهيلي 2009: 158 وما يليها، وهذا الأخير، أي (وهب اللات)، يناظر «هدية أثينا» اليونانيّة Athenodoros.

(3) راجع مع ذلك هيلي 2001: 112 عن الاشتقاقات المختلفة في اسم اللاّت.

(4) إنّ هذه النّصوص قابلةٌ للتّغيير الدّاخلّي إضافةً لأنّها تتجلّ بنسختين من نقش هند بنت الحارث المترجَمة من البكري وياقوت، راجع أيضاً كريستيان جوليان روبن، «العرب الحِميريين، و الرّومان والفرس»، في السّاميّة الكلاسيكية، المجلد. 1، 2008، ص. 167-202، ص. 185، حيث يستخدم البكري مصطلح الإله مرّتين، بينما يستخدم ياقوت مصطلح الإله مرّةً وفي الثّانية يستخدم مصطلح الله بدون أن يختلف المعنى بينهما.

(5) إن استخدام الكلمة بمنطقها التوحيديّ يكتسب الوضوح بمقتضى العقيدة المرتبطة

فإنّ إدراج كلمةٍ مع أداة التّعريف غير عاديٍّ البتّة، ومثال ذلك في العربيّة (تمساح- timsah) يصبح (تماسيح- tamasih)، و(ti) من القبطيّة بإضافة التّعريف وإضافة msah[1]، وبالعكس فلدينا أمثلةٌ على قروض من اللّغة العربيّة إلى اللّغات الأخرى مثل القبطيّة كما في كلمة «attalak" فتصبح "at-talaq" (الطّلاق)، أو مثل الإسبانيّة "alcade" فتصبح "al-qadi" (القاضي)، وأيٌّ منهما لا يحمل أيّة صفةٍ تعريفيّةٍ.

وبغضّ النّظر عمّا إذا كانت الكلمة العربيّة، أو لم تكن مصدر مصطلح (اللّاها) السّريانيّة، فإنّ مصطلح "الله" في العربيّة يمكن تفسيره بشكلٍ معقولٍ بأنّه ليس مستعاراً من لغةٍ أخرى، ولكنّه نتيجةٌ للتّطوّرات الدّاخليّة في اللّغة العربيّة، وهي النّاتجة عن إضافة (ال) التّعريف إلى الإله.

وكما ذُكر مسبّقاً، فإنّ تطوّر al+i /uCaC > al-CaC موثّقٌ تماماً، وتصريف هذه الكلمة هو تماماً كما توقّعنا حيث يتم التعامل مع الصّوت الأوّليّ بعدّه ألفَ الوصل، ويمكن للمرء إذا افترض أنّ مصطلح الله تمّت استعارته من السّريانيّة فإنّه سيكون معدّلاً بشكلٍ ثانويٍّ، ولذلك يُفسّر على أنّه يحتوي على أداة التّعريف؛ ومن المعلوم أنّ هذه التّطوّرات موجودةٌ في العربيّة، ويمكنك أن تراجع مثلاً إعادة تفسير الكسانريا لتصبح الإسكندريّة، ومع ذلك فإنّ استخدام مصطلح "الله" موجودٌ منذ وقتٍ مُبْكِرٍ جدّاً بمعنى "إله / الله" ويوضّح الاستخدام الموازي 'ilah' + أداة

بها. بأنّها ليست «إله» أو «إله معيّن» لكنّها تعني «الإله الوحيد»، ومع ذلك إذا افترضنا أنّ مصطلح الله في السّريانيّة مأخوذٌ من العربيّة سيؤدّي إلى أن الاستعارة حدثت قبل ظهور المسيحيّة لوجود شواهد على أنّ مصطلح الله موجودٌ في النّقوش السّريانيّة الوثنيّة، راجع هندريك درايفس، نقوش سوريا القديمة Edessean، (لايدن، 1972) ص. 2.

(1) راجع كارستن بوسته، علم الأصوات المصريّ: مقدّمة إلى علم الأصوات لغة منقرضة، (غوتنغن، 1999) ص. 70؛ ويرنر فيرنر، القاموس الاشتقاقيّ من اللّغة القبطيّة، (لوفين 1983) ص. 123.

التّعريف في العربيّة الجنوبيّة القديمة إمكان مواجهةٍ لمثل هذا السّيناريو.[1]

بموازاة ما سبق نجد al-ilat* وتصبح allat والموثّقة بمدّةٍ أقدم على أنّها han-ilat، بقوّةٍ في نشأة اللّغة العربيّة الدّاخليّة، وفي الوقت نفسه كان المسيحيّون النّاطقون بالسّريانيّة حاضرين في المنطقة الممتدّة من الحيرة إلى نجرانَ، على الأقلّ من القرن السّادس الميلاديّ فصاعداً،[2] أي إنّه في اللّغة الأدبيّة للمسيحيّين إن لم يكن في لغتهم المحكيّة أي اليوميّة، يمكن أن يعتمدوا جزئيّاً على السّريانيّة؛ ولذلك فإنّ استخدام السّريانيّة لمصطلح (اللّاها) للإشارة في المسيحيّة لخالق الكون... كان مألوفاً لدى بعضٍ من العرب، ومن ثمّ فمع عدم عدّه لفظاً دخيلاً رسميّاً، لا يزال الأثر اللّغويّ في استخدام اللّغة العربيّة لمصطلح الله موجوداً، وهذا ما تؤكّده نظرةٌ سريعةٌ على القرآن، وفيه نجد ثلاثةً، أو ما يقارب هذا العدد من الأسماء العامّة غير العلم من «الله»: الرّبّ والرّحمن والله.

أمّا الرّبّ فله شواهد في أوقاتٍ مُبْكِرَةٍ جدّاً، حيث إنّها وُجدت في الكتابة العربيّة الجنوبيّة مُشيرةً إلى الآلهة، وبالنّسبة للرّحمن فهو معروفٌ كذلك كالإله الواحد في جنوب المنطقة العربيّة، ومن الشّائع أيضاً استخدامه في أواخر التّراث التّوراتيّ، و في سياق القرآن تُقبل كلٌّ من كلمة الرّحمن وكلمة الله على أنّهما من أسماء خالق الكون: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا} (سورة الإسراء، الآية 110)، وذلك على الرّغم من هبوط كلمة الرّحمن لتُعامل في وقتٍ لاحقٍ معاملةَ النّعت،[3] أمّا الله، فكان إلهاً بارزاً في

(1) راجع بيتر شتاين، Himyar und der Eine Gott، جنوب المنطقة العربيّة قبل قرنين من الإسلام/ في الشرقية، المجلد 79 (4)، 2010، ص. 558-566، ص. 558.

(2) راجع هينثيلر، المسيحيّين العرب، ص. 143 وما يليها.

(3) انظر بويرينغ، «الله وصفاته».

مكّة،[1] وأصبح في نظر الإسلام يرمز للإله الواحد، ولا وجود لما يشبهه، وهو اسمٌ عامٌّ وفي الوقت نفسه اسمٌ خاصٌّ مفردٌ.

الخاتمة

تبرز ثلاث نقاط ممّا سبق:

1) على الرّغم من الأدلّة المطروحة كلّها، فلازال من غير الواضح ما إذا كانت اللّاها السّريانيّة، هي شكلٌ غريبٌ ضمن إطار السّريانيّة، ويرجع ذلك إلى تطوير السّريانيّة الدّاخليّ، أو بسبب الاقتراض من مصدرٍ في العربيّة.

2) إذا كان الدّافع هو مصطلح الله بعينه، أي إنّه منتظِمٌ أو عاديٌّ - صوتيّاً - كما في بعضٍ من اللّهجات العربيّة، وتطوّراتها، وممّا يسهل حسابها، فلا يوجد سببٌ للاقتراض من السّريانيّة إلى العربيّة.

3) إنّ استخدام مصطلح الله (بجانب الرّحمن) كاسمٍ عامٍّ / شخصيٍّ للإشارة إلى الإله الواحد في القرآن، يمكن أن يُفسِّر استخدامَه في العربيّة الصّحيحة. ومع ذلك كان هناك احتمالٌ كبيرٌ في بروز الكلمة السّريانيّة «اللّاها»، وقد أثّر قربها الهوموفونيّ إيجاباً على استخدام كلمة «الله» في القرآن.

وهذا يعني أنّنا نجد كلمة «الله» في القرآن ليس فقط لأنّها أكثر كلمة مناسبةٍ للاستخدام،[2] أو بسبب مكانتها البارزة في عصر ما قبل الإسلام...

---

(1) راجع مونتغمري وات، «الإيمان»، وكذلك جون فـ. هيلي، دين الأنباط، (لايدن، 2001)، ص. 83-85.

(2) يتحاشى تسمية الرحمن لتكون التّسمية الوحيدة، على الرّغم من أنّها وجدت بشكلٍ واضحٍ في الكتابات الحاخاميّة، وكانت تُستخدم في (جنوب) المنطقة العربيّة كتسميةٍ وحيدةٍ للإله الواحد، وعلى ما يبدو أيضاً استُخدمت لدى من ادّعى النّبوة مثل مسيلمة، وتلقّت أهمّيّةً أقلّ من الله، و ربّما يعود ذلك إلى محاولةٍ لرسم خطٍّ بين

ولكن ربّما لأنّ دلالات ما قبل الإسلام كانت أكثرَ سهولةً في الاستخدام، مع الأخذ بعين النّظر أنّها متجانسة هوموفونيّاً، وبالفعل، كان المصطلح السّريانيّ «allaha" يُستخدم بشكلٍ بارزٍ في سياق التّوحيد.

وتدلّ خلاصة القول، على أنّ مصطلح "الله" في العربيّة، يشير إلى إلهٍ محدّدٍ، بمعنى "من هو الله" أو ماهيّة الله الشّخصيّة، أو على الأقلّ لأنّه في نقطةٍ ما، قد تولّى دور "الإله الأعلى". لذلك كانت هذه الكلمة مناسِبةً بحيث دخلت إلى السّريانيّة كمصطلحٍ عامٍّ للإشارة إلى "الله"، ولا سيّما أنّ اللّغة العربيّة المستقبِلة لا تُعبّرُ فيها أداة التّعريف بالضّرورة على الهويّة الشّخصيّة للمصطلح. ونجد ـ من ناحيةٍ أخرى ـ في اللّغة العربيّة وفي شبه الجزيرة العربيّة، أنّ المصطلح المذكور «الله» تمّ عدّه خالقَ الكون، ومن ثمّ تمّ استخدامه وإعارته على أنّه الإله الواحد، وبجانب اليهوديّة والمسيحيّة، كانت ميول الوثنيّين في إلهٍ سامٍ أو حتّى سماويّ حاضرةً تماماً،[1] حيث يمكن افتراض أنّ هذا الاستخدام الأخير للكلمة يتجانس هوموفونيّاً مع

الإسلام والحركات السّماويّة الأخرى في المنطقة العربيّة، راجع كيستر (2003)، الحَظْ أنّه بجانب استخدامه في السّياقات السّماويّة، فإنّ مصطلح الرّحمن يشهد له على نطاقٍ واسعٍ في سياقاتٍ غير يهوديّةٍ وغير مسيحيّةٍ، راجع مثلاً هيلي، الأنباط، ص. 190، وخصوصاً المرجع نفسه «الله الرّحمن و الرّحيم: بعضٌ من الصّفات الإلهيّة السّاميّة»، في مانفريد ديتريش / إنغو غوتسباير، نشيد موسى. دراسات في العهد القديم والشّرق الأدنى القديم: كتاب تذكاريّ للاوزوالد لوريتز لعامه السّبعين مع مساهمات من الأصدقاء والزّملاء والطّلاب، مونستر، 1998، ص. 349-356، ص. 355 وما يليها. كيستر (1980)، بروكلمان (1922)، غيب (1962). راجع أيضاً كيستر (1980)، ولاسيّما ص. 36 و ص. 48. انظر أيضاً غرينفيلد، From 'LHRHMN to Al-Rahman: The source of a" Divine Epithat"، في بـ. هـ. هاري، جـ. لـ. هايز وفـ. أسترين، (تحرير) اليهوديّة والإسلام: الاتصالات والتفاعل ـ تكريماً ويليام يـ. برينيت، (بريل: لايدن، 2000).

(1) لصورة أشمل انظر مايكل فريد، Polymnia Athanassiadi/ الموحدون الوثنيون في أواخر العصور القديمة (أوكسفور، 1999)، كذلك هيلي، الأنباط، ص. 189 وما يليها.

السّريانيّة اللّاها،[1] وهي الكلمة الّتي أصبحت موحَّدَة للإشارة إلى الله الذي يؤمن به المسيحيّون واليهود في اللّغة السّريانيّة، الّتي كانت تعدّ لغتَهم الأدبيّة ذاتَ الأهمّيّة الثّمينة في المنطقة العربيّة.

ونجد أيضاً، أنّ كلّاً من استخدام ثنائيّة اللّغة، وتداخل اللّغات يؤدّيان إلى خصوصيّاتٍ لا بدّ من النّظر إليها. وتتولد بنظرةٍ حازمةٍ في علم الصّوتيّات وعلم الصّرف (اللّسانيّات) نتائج فيما يتعلّق بمسألة الاقتراض الفوريّ «الماديّ»؛ وبطبيعة الحال، ينبغي ـ إن أمكن ـ أن يرافق هذه النّتائج سيناريو معقولٌ تاريخيّاً مع الأخذ بعين النّظر الظّروف الصّحيحة «الفكرية» و»المادية»، على حدٍّ سواء. و نستنتج ممّا سبق، أنّنا لا نتعامل مع أمرٍ سهلٍ بمعنى «ماذا من ماذا»، لكن ضمن العلاقات المعقّدة بين اللّغات والجماعات الضّالعة في عمليّة العطاء والتّبادل المتزامن.

---

(1) آرني أ. امبروز، «Zur Entstehung der Emphase in Allah "، في Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes، المجلد ٧٣، ص. ٢٣-٣٢، والملحوظ أنّ عمليّة النّطق تؤكّد التّأثير السّريانيّ لمصطلح الله في العربيّة.

الفصل الرابع

ديانة المشركين في القرآن

الله والآلهة الأدنى

ديانة المشركين في القرآن

الله والآلهة الأدنى

باتريشيا كرون

ملخَّص

هذه المادّة (في قسميها) مخصّصةٌ أوّلاً لمحاولة إعادة بناء هيكليّةٍ واضحةٍ لديانة المشركين كما ذكرها القرآن، والدّلائلِ القديمةِ عنها فقط.

ويؤكّد القسم الأوّل أنّ المشركين يؤمنون بالله المذكور في الكتب السّماويّة كما الرّسول، وأنّ كائناتهم الأدنى يسمّونها عشوائيّاً ـ الآلهة والملائكة» كما هو الحال لدى المسيحيّين، والمسلمين، وعلاقتهم بالقدّيسين، والأشخاص الصّالحين (المُتوَفَّيْن). وهذا ليس بالأمر الحديث، فهو يماثل ـ تقريباً ـ ما توصّل إليه ابن عبد الوهّاب منذ ثلاثمئة سنةٍ.

أمّا القسم الثاني، فيختصّ بفحص فرضيّة الإله الأعلى وترابط معتقدات المشركين من جهةٍ، والموحّدين في الجهة المقابلة ضمن العصور القديمة المتأخّرة مع نتائجَ غير محسومةٍ، ويمكن أن يتماثل المشركون مع آراء بقيّة الوثنيّين الموحّدين واليهود (أو المهوّدين).

دلالات البحث

التّوحيد، الوثنيّة، تبجيل الملاك، رموز الوسطاء، الشّفاعة، الله العالي، آلهة الدّرجة الثّانية.

الدّليل القرآنيّ

من المعروف عن المشركين، ومن يأخذ بالنّصّ القرآنيّ أنّهم يؤمنون بالله كما هو الحال بالنّسبة للرّسول، و يسمّونه "الله" و من الواضح تماماً، أنّ كلا الجانبين يدركان أنّ الله الذي يتحدّثون عنه هو الإله نفسه، وكما في كلام «إيزوتسو» فإنّ المشرك يفهم الله «بطريقةٍ قريبةٍ للمفهوم الإسلاميّ»[1] ومن الغريب افتراض وثنيّةِ المشركين! في حين أنّ الرّسول قام صراحةً بتحديد ربّه على أنّه الله، إله موسى وإله عيسى؛ وهنا تلوح مشكلةٌ، هي لماذا وافقه الوثنيّون على هذا التّعريف؟! إذ لا يمكن أن يكون الله التّوراتيّ مقبولاً لدى من يؤمن بالآلهة الوثنيّة كما هو الحال مع «زيوس» أو» أودين" وذلك ببساطةٍ عبر القول: إنّ هذه الآلهة مع تغيّر التّسمية لم تتغيّر، وبقيت على حالها، ومع ذلك تكمن المقارنة بين موضعهم الإلهيّ ضمن العوالم، أو كما في هذه الحالة أسمائهم، مثل إله إبراهيم و موسى، وهو الإله الذي كان قد كشف نفسه إلى شعبٍ محدّدٍ في أوقاتٍ معينّةٍ، و ذُكرت قصّته في الإنجيل ونصِّ الفقرات التّوراتيّة، الّتي لا تمكّن الوثنيّين من تقبّل الله كأنّه إلهُهم، ما لم نتصوّر أنّ هؤلاء الوثنيّين كانوا غير عاديّين، لكنّهم ـ وكما ذكرهم القرآن ـ تقبّلوا الله كما هو عند اليهود والمسيحيّين.

---

(1) * تحسّنت هذه المادّة بفضل ملحوظات مايكل كوك، جيرالد هاوتينغ، وجوزف ويتزتم، كما إنّني مدينٌ لميشيل ماكدونلد لتقديمه إجاباتٍ سريعةً على الاستفسارات المتعلّقة بالعرب.

توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن، طوكيو، معهد طوكيو للدّراسات الثّقافيّة واللّغويّة، 1964 (طبعة، سالم، نيو هامبشاير، 1987)، ص.98، 101.

المفاجأة هي أنّهم يعرفون قصص النّصوص المقدّسة الّتي كان يستشهد بها الرّسول عندما يرويها، أو حتّى يلمّح فيها كأنّه يتوقّع منهم أن يكشفوا مضمون تلميحاته، وغالباً ما أُشير عن خصومه في أنّهم حدّدوا الله على أنّه هو نفسه إله اليهود والمسيحيّين، وأنّ الموادّ الموجودة في النّصوص المقدّسة كانت متداوَلَةً فيما بينهم. باختصار، يبدو إذاً أنّ هؤلاء الوثنيّين كانوا من صنفٍ نادرٍ.

السّؤال إذاً، ما هو نوع وثنيّتهم؟

لقد اكتسب هذا السّؤال خصوصّيةً، وحاجةً ملحّةً منذ نشر "هاوتينغ" فكرة الوثنيّة عام 1999 .م، الّتي أظهرت ولو بشكلٍ قليلٍ كيفيّة التّعامل من قِبَل بعضٍ من الوثنيّين المذكورين في القرآن مع أصحاب التّقاليد السّائدة.[1] وفيما يتبع سوف نَمُرّ على المعلومات المذكورة في القرآن حول معتقداتهم المتعلّقة بالله، والآلهة الأدنى، وذلك للبدء بمنهجيّة فحصٍ للهويّة الدّينيّة مرتكزٍ كلّيّاً على القرآن والأدلّة المؤكّدة فيما قبل القرآن.[2]

يفحص الجزء الأوّل في المقالة الأدلّة القرآنيّة؛ ويتعامل الجزء الثّاني مع الفرضيّة المعروفة في أنّ الله في الوثنيّة كان هو الإله الأعلى بين آلهتهم، ويحاول ربط الأدلّة القرآنيّة مع النّصوص القديمة السّابقة للسّياق نفسه؛ ويجب استبعاد التّقاليد الإسلاميّة للجزأين، لأنّ من الواجب علينا أوّلاً أن نبدأ بفهم القرآن من خلال أساس المعلومات المقدّمة من الكتاب نفسه، على عكس القرّاء اللّاحقين، وعلى فهم هذه المعلومات في ضوء التّطوّرات المعروف أنّها استقصت تشكيلها بدلاً من تلك الّتي يولّدها الكتاب نفسه.

(1) جيرالد ر. هاوتنغ، فكرة الوثنية وظهور الإسلام (كامبريدج، 1999، CUP).

(2) مقالةٌ أخرى تظهر بعنوان «الملائكة مقابل البشر كرسل الله: وجهة نظر الوثنيّين في القرآن»، في ب. تاونسند و م. فيدز (محرّران)، الوحي والأدب والمجتمع في العصور القديمة المتأخّرة (توبنغن، 2010).

ولا يمكن الشّك بطبيعة الحال في أنّ الروايات على المدى الطويل، ستثبت أنّه لا غنى عن فهم القرآن، لأنّ ذلك يحافظ على المعلومات الأوّليّة، ولأنّ ذلك يجسّد ألفاً وخمسمئة سنةٍ بحثيّةٍ لرجال العلم والعقول النّيّرة، ومن الأفضل أن نبني على ما وصلوا إليه، ولا يمكننا أن نتجاهل أعمالهم حتّى لو حاولنا، لأنّنا ـ عادةً ـ نعتمد على قواميسهم للحصول على معاني المفردات في الكتاب. ولكن يجب علينا أن نبدأ مع أبسط المهامّ التّاريخيّة: فصل المصدر الرّئيس عن المصدر الثانويّ، لأنّنا نعدّ في الطّريقة الأكاديميّة الحديثة، أنّ المصدرين الرّئيس والثّانويّ هما نصوصٌ أدبيّةٌ كُتبت غالباً بأقلام أشخاصٍ، ثمّ نقوم نحن بدراسة هذه المصادر؛ وتأخذ بهذا أيضاً المدرسة الحديثة، ولكنّ هذا الأمر يقلّل من الأهمّيّة الأساسيّة في التّمييز.

إنّ المصدر الرّئيس، هو ما يأخذنا زمنيّاً بقدر ما نستطيع الوصول لقصدنا، ويعتمد المصدر الثّانويّ على الرّئيس، حيث يستشهد الطّبريّ والمفسّرون الآخرون بالمصادر الثّانويّة المتعلّقة بالقرآن، على الرّغم من أنّهم حافظوا على دليلٍ نعدّه من المصادر الرّئيسة بالنّسبة لنا. ويجب حفظ المعلومات الرّئيسة والثّانويّة معزولةً دائماً عن بعضها، لكن تمّ انتهاك هذا القانون لمدّةٍ طويلةٍ في حالة النّصّ القرآنيّ، والطّريقةُ التّقليديّة لقراءة القرآن هي نفسها غير مألوفةٍ بالنّسبة لشخصٍ ينظر للأمر بنظرةٍ تاريخيّةٍ بدلاً من الدّراسات القرآنيّة.

ويعرّف بعضٌ من المؤرّخين القرآن كمصدرٍ أساسيٍّ، وذلك بقصد إعادة إدراجه كمصدرٍ أساسيٍّ، وسأقوم في الآتي بتجاهل التّقاليد، وفي أحسن الأحوال سوف أشير إليه كأدبٍ ثانويٍّ، حالُه حالُ الآداب الأخرى. وأُوضح بعضاً من التمهيدات العمليّة كالتّالي:

يأتي القرآن على استهداف مجموعاتٍ كبيرةٍ، لكنّه لا يحدّد أو يوضّح من هي هذه المجموعات الّتي يستهدفها، والكثير في نصّه المكتوب موجّهٌ ضدّ

من يتّهمهم بالشّرك، ويدعوهم غالباً بـ "المشركين" و"الكفّار"، ولكنّه لا يسمّيهم يهوداً أو مسيحيّين، على الرّغم أنّ الجدل نفسه في بعضٍ من الأحيان، يوجّه ضدّ أشخاص ويسمّيهم يهوداً ومسيحيّين، أو أهل الكتاب أيضاً. والمقالة هنا تركّز اهتمامها على هؤلاء المشركين، وحيث يتواجد الغموض حول الهدف الجدليّ، سأكتب ملحوظتي أو أعطي بعض الدلائل عن الأسس الّتي اعتمدتُ عليها ليكون الهدف هو المشركون. أولئك الّذين منهم من بدا كأممٍ تلاشت، أعتبرهم، ومن دون أي لغطٍ، نسخاً تكاد تكون مكشوفة عن معاصري الرّسول. وأترجم مصطلح "mušrikūn" بـ "المشركين" أو "الوثنيّين" وهو ما يناسب هذه الكلمة، من دون المساس بمسألة: من كان هؤلاءِ القومُ حقيقةً؟!؛ وأوافق على التّمييز بين السُّورِ المكّيّة والسُّورِ المدنيّة، بمعنى أنّ السّور تظهرُ حال الحقب في زمن الرّسول قبل وبعد تبوءه منصِبَ قيادة دينيّة وسيّاسيّة، وذلك في أنّنا نجد هذا التّمييز واضحاً في القرآن نفسه، ومن دون أن يكون مرتبطاً بأماكن معيّنة. وعادةً ما يتمّ التّلاعب بالنّسخة المترجَمَة عن القرآن، كما هو الحال في إصدارات القرآن ليوسف علي وباريت وأربيري، في استخدام ضمير المخاطب "you" وصيغة الملكية "your"، فهي تُفهم دائماً بكونها صيغةَ الجمع، ما لم تتمّ الإشارة إلى خلاف ذلك.

الله سيّد الكون

كان الرّسول وخصومُه الوثنيّون في مكّة يعبدون الله نفسَه، حيث نرى ذلك واضحاً نتيجةً لإصرار الرّسول المتكرّر على أنّ خصومه مذنبون بتهمة الافتراء على الله، وكانت مزاعمهم أنّ سلطان الله بالنّسبة له، كانت على أشياء يعدّونها عاريةً عن الصّحّة كليّاً، كما في: {هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}؟ (سورة الكهف، الآية 15)، وهو يسأل أولئك الّذين يعبدون آلهةً كاذبةً،

(كما الحال في سورة الأنعام، الآية 21؛ سورة الأعراف، الآية 37؛ سورة يونس، الآية 17؛ سورة هود، الآية 18؛ سورة العنكبوت، الآية 68؛ سورة الصف، الآية 7... إلخ. وفي السورة المدنيّة أيضاً، سورة النساء، الآية 40)؛ وفي قوله: {قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدا سُبحَٰنَهُ هُوَ الغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الأَرضِ إِن عِندَكُم مِّن سُلطَٰنِ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعلَمُونَ، قُل إِنَّ الَّذِينَ يَفتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لَا يُفلِحُونَ} (سورة يونس، الآيتان 68، 69).

أمّا خصومه فقد ردوا بحجّةٍ معاكسة، وقالوا: {إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ} (سورة المؤمنون، الآية 38)، وقولهم بأمة تلاشت مع الإشارة إلى حديثه عن القيامة: (سورة سبأ، الآية 8، وربما أيضاً في سورة الشورى، الآية 24).

كلا الجانبين يدّعون المعرفة أفضل من غيرهم لِما يمثّله الله، وتمشياً مع هذا، يعرب الرّسول مراراً وهو بحالة الدّهشة، أنّ النّاس لا يفهمون طبيعة الله جيّداً [1]،{وَلَئِن سَأَلتَهُم مَّن خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالأَرضَ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّىٰ يُؤفَكُونَ} (سورة العنكبوت، الآية 61؛ سورة لقمان، الآية 25؛ سورة الزخرف، الآية 9)؛ وفي قوله: {وَلَئِن سَأَلتَهُم مَّن خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّىٰ يُؤفَكُونَ} (سورة الزخرف، الآية 87)، فعلى الرّغم من أنّ إجابتهم في الحالتين كانت «الله» لكنّهم مبعَدون عن الحقيقة (يُؤْفَكُونَ)، ولا يفهمون.

وإذا سألتهم مجدّداً، كما في قوله: {قُل لِّمَنِ الأَرضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُم تَعلَمُونَ، سَيَقُولُونَ للهِ قُل أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، قُل مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ السَّبعِ وَرَبُّ العَرشِ العَظِيمِ، سَيَقُولُونَ للهِ قُل أَفَلَا تَتَّقُونَ} (سورة المؤمنون، الآيات 84-86)؛ وفي حالة أخرى: {قُل مَن بِيَدِهِا مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ يُجِيرُ

(1) لحظها إيزوتسو، الله والإنسان، ص. 98، 99، 101، 119.

وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُم تَعلَمُونَ، سَيَقُولُونَ للهِ قُل فَأَنَّىٰ تُسحَرُونَ} (سورة المؤمنون، الآيات 88-89)، وذلك لإنكارهم القيامة.

بإيجاز، سيرى المرء أنّه لا تناسق فيما سبق، لأنّهم أدركوا أنّ الله سيّد الخلق، ولكن بطريقةٍ ما، لم يفكّروا أو يتصرّفوا وَفقا لذلك.

الآلهة الأدنى

يتناقض الوثنيّون في معتقداتهم بوحدانيّة الله وسيادته على بقيّة الآلهة، ولا يسمّون هذه الآلهة الإضافيّة دائماً آلهةً، وكثيرةٌ هي الآيات الّتي تتكلّم بوضوحٍ عن خصوم الرّسول، وبعضٌ من هذه الآيات تقول: {وَجَعَلُواْ للهِ أَندَادا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُل تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُم إِلَى ٱلنَّارِ} (سورة إبراهيم، الآية 30؛ سورة الزمر، الآية 8؛ سورة فصلت، الآية 9؛ راجع سورة سبأ، الآية 33 وأيضاً المدنيّة سورة البقرة، الآيات 165،22) وبدون أدنى شكٍّ، كانت الآلهة مقصودة في هذه الآيات.

كما نجد إشارةً إلى خصوم الرّسول ممّن اتّخذوا شريكاً لله في العبادة في الآيات التّالية: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا} (سورة الفرقان، الآية 3)؛ وفي قوله: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} (سورة مريم، الآية 81؛ قارن مع سورة الأنبياء، الآيتان 21، 24؛ سورة يس، الآية 23؛ قارن مع سورة الكهف، الآية 18، قالها أصحاب الكهف)؛ وفي قوله: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ} (سورة يس، الآية 74)؛ {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ}؟ (سورة الأنبياء، الآية 43)؛ {فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (سورة الأحقاف، الآية 28)، وهؤلاء المشركون المتهكّمون قدّموا إيمانهم

لربٍّ آخر، وسيلقنهم الله درساً ليتعلّموه، كما في الآية رقم 96 من سورة الحجر: {الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}، ويسألهم الرّسول: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} (سورة الأنعام، الآية 19). ولو كان فِيهِما (السماء والأرض) آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا (سورة الأنبياء، الآية 22؛ وراجع سورة الإسراء، الآية 42).

ويؤكّد لنا بشكلٍ متكرّرٍ تهديده بلسان الله بأنّه سيسلّط الخوف في نفوس المشركين، كما في قوله: {لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا} (سورة الإسراء، الآية 22، 39؛ سورة المؤمنون، الآية 117؛ سورة الفرقان، الآية 68؛ سورة الشعراء، الآية 213؛ سورة القصص، الآية 88؛ سورة ق، الآية 26؛ سورة الذاريات، الآية 51)، أو بدون مساعدته، كما في قوله: {وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} (سورة الكهف، الآية 14)، وأن "لا إله إلا الله» هي عبارة اللازمة في الكتاب.

ولم يكن تمييز الآلهة الأدنى بأنّهم آلهةٌ من الرّسول فحسب، بل شاركه خصومه بدهشة كذلك، كما في سورة ص، الآية رقم 5: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}؛ {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} (سورة الصافات، الآية 52)، وقالوا في قصّة نوح: {لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} (سورة نوح، الآية 23)؛ {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (سورة الأحقاف، الآية 21)، ثمّ يقصّ لنا كلام قوم هود، ويشرح السّبب وراء إنكارهم له: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} (سورة هود، الآية 53)، ويقول في خصومه الّذين

يحوّلون النّقاش إلى نزاع عندما يكون يسوع هو المثال في نقاشهم: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ} (سورة الزخرف، الآية 57)؛ {وَإِذَا رَآكَ الذين كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ} (سورة الأنبياء، الآية 36)؛ أو كانوا يقولون: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الذي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا} (سورة الفرقان، الآية 41)، وقد طمأن الله رسوله بأنّه لا وجود حقيقياً لمثل هذه الآلهة: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} (سورة الزخرف، الآية 45)[1].

ونادراً ما يتمّ تحديد هويّة الآلهة، ويبدو في بعضٍ من الأحيان أنّ ممارسة الهجوميّة تكون بالنّسبة لتبجيل إلهٍ واحدٍ فقط من بين الآلهة جميعها: {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} (سورة النحل، الآية 51)؛ وفي محاولةٍ للتّهرّب من المشركين كقوله: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ، الذين يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} (سورة الحجر، الآيات 94-96)؛ ويعزل الآخرين في قوله: {الذي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} (سورة ق، الآية 26)؛ أيضاً في قوله: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولا}، {ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} (سورة الإسراء، الآية 22، والآية 39)؛ (سورة المؤمنون، الآية 117؛ سورة الفرقان، الآية 68؛ سورة الشعراء، الآية 213؛ سورة القصص، الآية 88؛ سورة الذاريات، الآية 51). ومن المستغرب عدم تسمية الإله الآخر إلّا في قصّة إلياس، وذلك عندما يظهر على أنّه بعل، كما في الآية رقم 125 من سورة الصافات: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ

(1) هذا واحدٌ من مقاطع عدّة تهدف إلى منع الرّسول من الانحدار إلى موضع الشّكّ في رسالته، راجع باريت، Der Koran. Kommentar und Konkordanz (شتوتغارت، دار نشر كولهامير، (1980، ص. 229، 10، 94.

الْخَالِقِينَ}، ولا شكّ في أنّ هذه التّسمية تأتي مباشرةً من التّراث التّوراتيّ، وليست من معاصري الرّسول.[1]

ثمّ يأتي في آيتين على تشبيه هذه الآلهة – المزوّرة - بأنّها أجرام سماويّة: (ملكة سبأ وشعبها) {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} (سورة النمل، الآية 24)؛ {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الذي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (سورة فصلت، الآية 37).

وتدين الكثير من الآيات الآلهة الأدنى كلّها مجتمعةً! وتسمّي أحياناً واحداً منها فقط، كما الحال في شكوى نوح إلى الله: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} (سورة نوح، الآية 23)؛ والآية الشّهيرة أيضاً: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ} (سورة النجم، الآية 19)[2]. ولو بحثنا في القرآن فلن نجد كلمة «آلهة» من بين الأسماء المقدّمة في صفحاته، فمعظمها موجودٌ في نقوش ما قبل الإسلام و/ أو في الأسماء الثّيفورية، لذلك ليس هناك شكٌّ في أنّ بعضاً من هذه الكائنات، كانت آلهةً عربيّةً أصيلةً،[3] لكن ما هي بالضّبط طبيعة هذه الآلهة في نظر خصوم الرّسول؟!.

(1) راجع سفر الملوك الأول: 18، 21، المناقشة في ج. هوروفيتز، Koranische Untersuchungen (برلين - لايبزيغ، 1926)، ص. 101.

(2) انظر أدناه أيضاً، (رقم -2 السياق).

(3) انظر توفيق فهد، Le panthéon de l'Arabie centrale à la veille de l'hégire (باريس، 1968)، في أسماء الآلهة محل البحث؛ هاوتينغ، الوثنية، الفصل 5 ومجموع الكتابات الواردة في نصّه أيضاً.

أبناء الله / الملائكة

والمثير للدّهشة، بالنّسبة لشخصٍ ينظر إلى القرآن وفقاً لابن الكلبيّ وابن إسحاق، أن الآلهة الأدنى تُحدّد عشوائياً كآلهةٍ أو أبناءِ لله أو حتّى كملائكة!،[1] أمّا بالنّسبة للمشركين، فربّما كانت هذه العبارات الثّلاث مترادفةً: لتكون ابنةَ أو ابنَ لله، فيجب أن يشاركاه في طبيعته (انظر أدناه أيضاً، رقم 2- السياق). ولكنّ الرّسول نقل فكرة التّناسل بشكلها الحرفيّ، كما في قوله: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} (سورة الأنبياء، الآية 26؛ قارن مع سورة الزخرف، الآية 81؛ سورة مريم، 88، 91)؛ {وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ} (سورة الأنعام، الآية 100)؛ {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا}؟ (سورة الإسراء، الآية 40، ومشابهاتها، سورة النحل، الآيتان 57، 62؛ سورة الزخرف، الآية 16؛ سورة النجم، الآيتان 21، 22). وفي قوله: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ} (سورة الصافات، الآيات 149-153، مقارنة مع المدنيّة أيضاً، سورة النساء، الآية 117)، وبالنسبة للملائكة كما في قوله: {إِنَّ الذين لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ} (سورة النجم، الآية 27).

نستنتج ممّا سبق إنكار الرّسول لهذه الآلهة المنبثقة من الله (الأولاد) (سورة

(1) راجع ايشلر، "Teufel und Engel im Koran" (Die Dschinn" لايبزيغ، 1928) ص. 97 وما يليها. وفي التّعرّف عليهم كملائكةٍ بمناقشةٍ يسيرة، انظر وليام مونتغمري وات "القرآن والإيمان بالله العليّ"، وقائع المؤتمر التّاسع للاتّحاد الأوروبيّ من المستعربين الأوروبيّين والإسلاميّين، تحرير. لايدن ر.بيترز (لايدن، 1981) ص. 332 وما يليها، وذلك رداً على المسلمين الّذين شككوا بالأمر (على الرغم من أنها معروفة جيداً للروايات التفسيرية).

الأنعام، 101؛ سورة يونس، 68؛ سورة الإسراء، 111؛ سورة الكهف، 4؛ سورة مريم، 35؛ سورة المؤمنون، 91؛ سورة الزخرف، 81؛ إلخ)، حيث يجدُ فكرة الملائكة الإناث فاحشةً تماماً؛ يتعامل الرّسول مع فكرة العديد من الآلهة والملائكة الإناث وبنات الله كمفهوماتٍ متطابقة تقريباً، وتشمل بذلك يسوع كابنِ الله، ويتّهم المسيحيّين واليهودَ معاً حول إيمانهم بابن الله (المسيح بالنّسبة للمسيحيّين، وعزيرٌ بالنّسبة لليهود)، كما في قوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذين كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ}(سورة التوبة، الآية 30). ولم يتمّ تسمية أولاد لله، عدا المسيح وعُزيرٍ، وأيضاً اشتملت تسمية بنات الله على اللّات ومناة وعُزّى فقط (سورة النجم ، الآيات 19-21، راجع الآية 27).

وكما هي حال الملائكة، احتل الآلهة الأدنى/ أو أبناء الله مكانة لدى الرّسول ذاته، حيثُ اعترف بهم بشكلٍ شرعيٍّ، وغالباً ما يزعم الأدب الإسلاميّ أنّه هو من أكّد تصنيفهم كملائكة أكثر ممّا قام به المشركون، وكان غرضه من ذلك تخفيض رتبتهم إلى مكانة ثانوية ملائمة،[1] وذلك أمر يصعب قبوله. لقد تعامل معهم من دون شكٍ، على أنّهم ملائكة حقيقيّة في بعضٍ من الأحيان، مع الوَصْف أنّ المشركين أساؤوا فهم هذه الآلهة، ولكن الأكر شيوعاً أنه حاول تمييز الآلهة المزورة من الملائكة الحقيقيّة (انظر أدناه، رقم .12). أما الادّعاء بأنّه هو بالتأكيد من صنف آلهة الوثنيين كملائكة،

(1) دانكن بلاك ماكدونلد، «الله»، موسوعة الإسلام، الطبعة الأولى؛ كارل بروكلمان، "Allāh und die Götzen, der Ursprung des islamischen Monotheismus"، Archiv für Religionswissenschaft، 21 (١٩٢٢)، ص,١٠٢، متوافقاً مع ماكدونلد؛ أ.ت. ويلش، "الله والكائنات الخارقة الأخرى: ظهور مذهب التوحيد القرآني"، مجلة الأكاديمية الأمريكية للدين، ٤٧ (١٩٧٩)، ص. ٧٤٠ والصفحة التالية؛ وبدقة أكثر ج. الشّابي، «الجنّ»، موسوعة القرآن.

فذلك ادّعاء مبنيٌّ على افتراضٍ ضمنيٍّ، أنّ الموحّدون من النوع الإنجيلي فقط، هم من آمنَ بالملائكة في ذلك الوقت، وهو طبعاً قولٌ غير صحيحٍ (انظر أدناه، رقم 2- السياق).

إنّه من الصّعب أن نقول بدقّةٍ كيف ينبغي لنا أن نصور المجتمع الملائكيّ الذي نحن بصدده، هل كان المؤيّدون للملائكة الإناث يعملون مع الملائكة الإناث فقط، أو أنّهم يرونها كجزء من مشهدٍ أكبر يتضمن الذكور أيضاً؟ وهل تمّ تخصيص ثلاثةٍ من الملائكة الإناث (اللّات والعُزّى ومناة) فقط، للقيام بعمل خاصٍّ، أم كان لكلِّ واحدةٍ من تلك الملائكة الثّلاثة مجموعةٌ مختلفةٌ عن الأخرى؟ أو هل انتقى الرّسول هؤلاء الثّلاثةَ بشكلٍ خاصٍّ بسبب أسمائها الوثنيّة،... من المستحيل التّأكّد.

الشّفعاء

وضع المشركون آلهتهم الأدنى بمثابة الشّفعاء بينهم وبين الله، كما في قوله: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (سورة يونس، الآية 18)؛ {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالذين اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} (سورة الزمر، الآية 3)؛ {فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الذين اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (سورة الأحقاف، الآية 28).

باختصار، لقد عدّوهم وسطاء، والدّلائل جميعها الّتي تشير إلى هذا الاعتقاد، تأتي لتؤكّد أنّ الآلهة الأدنى ليس لديها القدرة على القيام بما هو متوقّع منها، كما في قوله: {أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ

عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ} (سورة يس، الآية 23)؛ {وَلا يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (سورة الزخرف، الآية 86)؛ {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ} (سورة الزمر، الآية 39)، ولا يُنكر هنا أنّ للملائكة القدرة على الشّفاعة، لكنّها تفعل ذلك بناءً على عاتقها الشّخصيّ، كما في قوله: {قُل لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (سورة الزمر، الآية 44؛ قارن مع سورة النبأ، الآية 37)، {قُلِ ادْعُوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ، قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (سورة سبأ، الآية 22 وما يليها؛ وعلى نحوٍ مماثلٍ في سورة سبأ، الآية 3؛ سورة مريم، الآية 87).

إنّ ذريّة الرّحمن المزعومة، هي مجرّد عبيدٍ برأيه، وتمّ رفعها إلى مرتبةٍ عظيمةٍ، ولكنّهم يعملون بأمره، ولا يقدّمون أيَّ شفاعةٍ إلّا أولئك الّذين يأذن الله لهم، كما جاء في قوله: {كَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى} (سورة النجم، الآية 26؛ الآيات 28، 27 من السورة نفسها). ويُعتقد من ثمّ أنّ هذه الكائنات الّتي يسمّيها المشركون، لم تكن لديها أيّة قوّةٍ إلّا في حال أمرها الله؛ حيث يصبح الضّرر مثل الزّلازل، أو الصّواعق، أو حتّى بشكل ريحٍ عنيفةٍ، تخرّب الأرض، أو تتسبّب بغرق النّاس، وغيرها من أشكال المِحَن الّتي يعرفها الله لاختبارهم في هذا العالم، ولا علاقة لهم بإلحاق الضّرر يوم القيامة، وبالنسبة للوثنيّين أو بعضٍ منهم، لم يؤمنوا، أو حتّى إنّهم رفضوا القيامة والآخرة تماماً. ووفقاً للمقطع الأوّل، فقد كان أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة، يُسمّونَ الملائكة تَسمِيَةَ الأُنثى (كما في سورة النجم، الآية 27). كما قيل لنا في الآية رقم 81 من سورة مريم: {اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا}،

وتقول الآية التّالية: إنّهم سوف يُثبتون خصومتهم للرّسول الذي يعرف أنّهم سيُبعثون أحياءً؛ ويؤكّد أنّ الآلهة الوثنيّة/ الملائكة، ستكون عديمة الجدوى في يوم الآخرة أيضاً، كما في قوله: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الذين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} (سورة الأنعام، الآية 94)، وذلك في توجيه حديثه للوثنيّين؛ {وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ} (سورة الروم، الآية 13)؛ ثمّ لحظ الوثنيّون أنّ من أُرسل إليهم من رُسلٍ كانوا أيضاً أصحاب كلام حقٍّ، كما في قوله: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ}؟ (سورة الأعراف، الآية 53)، ونجد اعترافهم في سورة الشعراء، الآية 100: {فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ}.

الخلق

هل يعزو الوثنيّون أيّ دور آخر لهذه الآلهة الأدنى أو الملائكة، بجانب دورهم كشفعاء؟! وبشكلٍ دقيقٍ، هل يعدّون الآلهة الأدنى كشركاءَ في عمليّة الخلق؟ إنّ الإجابة هي بالطبع: [لا].

يؤكّد القرآن في كثيرٍ من الأحايين أنّ الآلهة الأدنى، لا تملك أيّ قوىً خلاّقةً على نحوٍ يشير إلى اختلاف خصومه، كما في قوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} (سورة الحج، الآية 73، وراجع أيضاً الآية 16 من سورة الرعد)، {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ

لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا} (سورة فاطر، الآية 40؛ وعلى نحوٍ مماثلٍ في سورة الأحقاف، الآية 4). وبعبارةٍ أخرى: إذا كان وجود الآلهة الأدنى حقيقيّاً، فيجب أن يكون هناك دليلٌ لذلك في العالم الطّبيعيّ، أو في كتابٍ أُنزل على الوثنيّين، كما في قوله: {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}؟ (سورة يونس، الآية 34).

ولكن قد يكون من الخطأ أن تُقرأ هذه الآيات على أنّها تعني ضمناً أنّ الوثنيّين أكّدوا على أنّ آلهتهم، أو ملائكتهم كمشاركين في الخلق، وأحد الأسباب كما لحظنا، لو أنّ أحداً سألهم: مَن خَلقهُم أو مَن خلق العالم، لكانت إجابتهم وبشكلٍ قاطعٍ "الله» (انظر أعلاه، رقم.1). ومن ناحيةٍ أخرى، فإن السّؤال ما إذا كانَ للآلهة أو الملائكة مشاركة في السّماء، يملك صوت سخرية (انظر سورة فاطر، الآية 40؛ سورة الأحقاف، الآية 4)، وهو انطباعُ اشتد من خلال المعلومات الّتي تقول: أنّ الوثنيّين اعتبروا أنّ الله هو ربّ الأرض وكلّ شيءٍ فيها، وربّ السّماوات السّبع أيضاً (انظر أعلاه، رقم.1). وهذا يشير إلى أنّ الرّسول يواجه خصومه (وفقاً له) مع إظهار معتقداتهم الخاصّة السّخيفة على النّحو التالي: الوثنيّون ومن خلال عبادتهم لهذه الكائنات، يؤكّدون ضمناً على أنّ لهذه الكائنات شراكةً في السّماء، ولكنّهم أنكروا ذلك، وكانت فِكَرهم غيرَ متناسقةٍ، كما ذكر في أكثر الأحايين.

وبالنّسبة للرّسول، فإنّ غياب القوى الخالقة يعني ضمناً عدم وجود الألوهيّة، وإذا كانت الآلهة المزوّرة غيرَ خالقة، فهي بالتّأكيد قد تمّ خلقها، وبما أنّ كلّ شيءٍ تمّ خلقه مثل الشّمس والقمر، فيجب أن تخضع لمشيئة الله، كما صرّح المشركون أنفسُهم، أو بعضهم على الأقلّ. كما في قوله: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ

فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ} (سورة العنكبوت، الآية 61). والإله الخالق هو الله وإذا كان هناك إلهٌ مع الله، لكان كلّ إلهٍ ذهب باتّجاه بعيدٍ عن الآخر مع من خلق، كما في قوله: {مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ} (سورة المؤمنون، الآية 91).

ولكنّ المشركين لم يزعموا أنّ آلهتهم كانت خالقة! إذاً فلماذا ألقوا عليها صفة آلهة؟ {وَالذين يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} (سورة النحل، الآية 20)، كما قال: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} (سورة الأعراف، الآية 91). فكلّ من لم يكن خالقاً فهو بالتّأكيد تمّ خلقُه، وهذا يعني التّبعيّة، والخلوّ من السّلطان حسب رأيه. {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا} (سورة الفرقان، الآية 3)؛ أو مجدّداً، كما في قوله: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ}(سورة سبأ، الآية 33). وكما رأى الرّسول، كانت هذه الآلهةُ الأدنى لا نفع فيها، حتّى في أماكن الوثنيّين الخاصّة؛ وهذا التّعارض الذي وجده فاضحٌ جدّاً، لدرجة أنّه لم يستطع أن يفهم سبب عدم موافقة الوثنيّين له.

غير أنّ السّبب من وجهة نظر الوثنيّين وراء عدم رؤيتهم لهذا التّعارض بدون أيّ شكٍّ، هو أنّه لا وجود لمثل هذا التّعارض أصلاً. والحقيقة هي أنّ عدم مشاركة الآلهة الأدنى في الخلق، لا يعني أنّها إمّا خُلقت أو أنّها عاجزةٌ. وبالأحرى، إنّهم كانوا أبناءَ وبناتِ الله، ويمكن للمرء أن يستخلص أنّها صورٌ أو أقانيمُ إلهيّةٌ، مثل آلهة العهد القديم المعروفة باسم أبناءِ الله، ودُعيت في وقتٍ لاحقٍ "الملائكة" أو مثل المسيح للمسيحيّين (وكثيرٌ منهم فهمه

كملاكٍ، أيضاً)[1]. وبما أنّ كلا الجانبين سعيدٌ بتسمية الكائنات الوسيطة بـ «الملائكة»، فقد يتساءل المرء عن أهمّيّة التّسمية الّتي أطلقها الوثنيّون بوصفهم هذه الكائنات بـ «الآلهة» أيضاً (انظر أدناه، 2- السياق، لتعامل المسيحيين مع هذه المسألة).

يبدو الجواب في أنّ الرّسول رأى تناقضاً صارخاً بين الله، وكلّ شيءٍ آخر، في حين أنّ الوثنيّين فسّروا الألوهيّة على أنّها طيفٌ. حيث يتناقض كلام الرّسول بشكلٍ مكرور حول مسألة الملائكة، والله مع خصومه بطريقةٍ عبثيّةٍ: كانت الملائكة من طبيعة الله نفسها، ويتداخل أحدهم بالآخر؛ وكانت تجليّاتهم الكبرى والصّغرى تنتهي في ذات الوجود الإلهيّ. وهذا الحدّ الفاصل بين الله وكلّ شيءٍ آخر، كان على المحكّ، وبالتّأكيد لم يكن مسألةً تافهةً.

سلطان الله

عدّ الوثنيّون الله خالقَ الكون الوحيدَ، لذلك فله وحده الحقّ في أن ينزل المطر، ويوفّر القوت لهم، كما في قوله: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ }(سورة العنكبوت، الآية 63). ومجدّداً، يكمن التّعارض في الاعتراف بقوّةٍ واحدةٍ فقط، ولكنها تعمل مع آخرين، كما في قوله: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ، وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ} (سورة النحل، الآيتان 73-72)؛ يسأل الرسول، مؤكداً أن خصومه واهمون، في قوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ

(1) راجع أدناه، -2 السياق، والمراجع الواردة في الملحوظة 100.

مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ} (سورة فاطر، الآية 3)؛ وقال إبراهيم لشعبه، متّهماً إيّاهم باختلاق الزّيف (وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا)، كما في قوله: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (سورة العنكبوت، الآية 17). وفي حين أنّ الوثنيّين سيؤكدون أن الأرض ومَنْ فيها ملك لله، رَبُّ السّماواتِ السّبعِ ورَبُّ العرشِ العظيمِ، وبيده ملكوتُ كُلِّ شيءٍ وهو يُجِيرُ ولا يُجَارُ عَلَيه (سورة المؤمنون، الآيات 89-84)، فمن الصّعب ألّا نستنتج أنّهم يَعدّون اللهَ كلّيّ السّلطة أو النّفوذ.

عبادة الملاك

يتحدّث القرآن كثيراً عن الوثنيين، كما لو أنّهم يقومون بعبادة ملائكتهم أو آلهتهم فعلاً، كما في قوله: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ} (سورة النحل، الآية 73؛ راجع أيضاً الآية رقم 18 من سورة يونس[1])؛ {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا} (سورة العنكبوت، الآية 17 بلسان إبراهيم). ما الّذي وصلت إليه هذه العبادة بالضّبط؟ والشّيء الأكثر وضوحاً، هل استدعى الوثنيّون في أيّ وقتٍ مضى الآلهة الأدنى، أو أيَّ أحدٍ منها، من تلقاء أنفسهم؟.

لا يبدو ذلك صحيحاً، حيثُ ترجم «باريت» عبارة (مِنْ دُونِهِ) بدقّةٍ على افتراض أنّ ذلك تحديداً ما قاموا به، كما في السّورِ المدنيّة: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} (سورة النساء، الآية 117)، "Statt (zu ihm) beten sie zu nichts als) weiblichen Wesen"،

(1) تعليق المترجم: الآية رقم 18 من سورة يونس: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

بمعنى أنّهم لا يصلّون إلّا للآلهة الإناث بدلاً من الله، ولكنّ الآية السّابقة تقول: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} (سورة النساء، الآية 116)، ممّا يعني أنّ المتعبّدين لهذه الكائنات الإناث مذنبون لربط هذه الكائنات مع الله، وليس لاستبداله بها. كما تقول آيات أخرى: {لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا} (سورة الحجر، الآية 96 ؛ سورة الإسراء، الآيتان 22، 39؛ إلخ، راجع أيضاً أعلاه، رقم.2)؛ {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} (سورة الأنعام، الآية 19).

وجد الهدهد امرأةً تحكم في سبأ، وكانت هي وقومها يَسْجدونَ للشّمس مِنْ دُونِ الله (انظر سورة النمل، الآية 24)، ومرّة أخرى يترجم "باريت" هذه الآية على أنّها تعني أنّهم كانوا يعبدون الشّمس بدلاً من عبادة الله. ومن الواضح أنّ باريت لم ينكر أنّ "الشّرك" كان يُدلِي بأنّ لدى لله شركاءَ بدلاً من استبداله بهم، ومن الممكن أنه ترجم على افتراض أن المشركون رأوا الله كالإله الأعلى الأوحد، أي أنّ الله الخالق لم يكن له أيّ نصيب في العبادة، كما في قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ وَلَوْ يَرَى الذين ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} (سورة البقرة، الآية 165)، {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} (سورة الجن، الآية 18). {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الذي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (سورة فصلت، الآية 37).

إنّ فكرة عدم صلاة الوثنيّين عادةً إلى الله، نجدها في بعضٍ من المقاطع الّتي تنقض سلوكهم بين وقت وجودهم في البحر ووجودهم على اليابسة، كما في قوله: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى

الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} (سورة العنكبوت، الآية 65). ويصلي المشركون لله بكل إخلاص صادق، كما في قوله: {هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} (سورة يونس، الآية 22 وما يليها). وربّما يكون ذلك بسبب نسب شركاء له مجدداً، أو ربما السّبب هو نسيان الله في سلوك حياتهم (راجع سورة الإسراء، الآية 37). ونجد في قوله: {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ} (سورة الأنعام، الآيتان 63،64).

وقد قيل لنا في أماكن أخرى: إنّ الوثنيّين سوف يصلون إلى الله بطلب السّلامة عند اقتراب ولادة طفلٍ، قاطعينَ الوعد بالامتنان في حال حصولهم على ذلك؛ لكن حتّى في حال ذلك، فإنّهم يسندون إليه شركاء «فِيمَا آتَاهُمَا»، كما في قوله: {هُوَ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (سورة الأعراف، الآيتان 190،189). وبصورة أعمّ، "إِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ" (من سورة يونس، الآية 12)، ربّما من خلال الرّجوع أيضاً إلى شركائه، تمّ تركه بغير تحديدٍ. وفي مكانٍ آخر: {ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} (سورة النحل، الآية 54).

هذه المقاطع لا تشير إلى أنّ معاصري الرّسول، وحتّى بعضهم، كانوا عادةً يصلّون للآلهة الأدنى بدلاً من الله، لأنّ ذلك وهمٌ، ولكنهم يصلّون

عادةً لهم في سبل الله، أو لجميعهم معاً في أوقات الخطر، ومع ذلك، فإنّهم (كما عبّر البعض) يتوجّهون إلى الله وحده، وهذا يعني مباشرةً له؛ ويمكنهم نسيان آلهتهم، ومن ثمّ يتصرّفون على أنّهم موحّدون حقيقيّون. وكما صرّح إيزوتسو الّذي التقط تماماً وجهة نظر الرّسول:[1]

«ومن اللّافت حقّاً أنّ ... الوثنيّين العرب قرّروا اللّجوء إلى التّوحيد مؤقّتاً، ويبدو ذلك من دون أيّ تفكيرٍ بالآثار الخطيرة لمثل هذا العمل».[2] ولكن لا يبدو أنّ المسيحيّ يمارس التّوحيد بشكلٍ مؤقّتٍ عندما يصلّي مباشرةً إلى الله بدلاً من يسوع، أو بدلاً من قدّيسٍ ما!. ويُفترَض أنّ الوثنيّين يعتقدون أيضاً أنّهم موحّدون، سواءٌ كانوا يصلّون مباشرة إلى الله أم لا، بل على العكس فإنّهم بالكاد توقّفوا عن الاعتراف بالآلهة الأدنى الخاصّة بهم عندما تجاهلوها، وكان بإمكان المرء تقديم عريضةٍ للملك من خلال الرّاعي (السّادِن) أو يمكنه مباشرةً أن يلقي نفسه عند قدميه، إذا كان يائساً بما يكفي.

استمر الوثنيّون بنسب شركاء لله «فيما أعطاهم» وفي الآيات المعبّرة عن كيفية صَلاتهم طلباً من الله للحصول على طفلٍ سليمٍ، يبدو أنّهم عَزَوا دوراً في نجاح صَلاتهم للآلهة الأدنى على الرّغم من أنّهم لم يُصلّوا إليها، أو على الأقلّ شكروا هذه الآلهة مع شكرهم لله، ولا يرى هنا تعارضاً بين الموقفين إلّا من هو عدوٌّ لهذه الآلهة الأدنى: إنّ الوثنيّين خلافاً للرّسول، لا يعتقدون بالتّعارض بين الله والملائكة «الآلهة الأدنى».

لدى مواصلة البحث في الفقرات الّتي تتكلّم حول كيفيّة صلاة الوثنيّين

(1) وات، «الإيمان بالله العلّي»، ص. 39؛ راجع المصدر ذاته، «القرآن والإيمان في الله العلي»، ص. 330 (راجع المصدر ذاته، «الله العلي في مكة قبل الإسلام»، ص. 502).

(2) إيزوتسو، الله والإنسان، ص 102.

إلى الله للحصول على طفلٍ سليم، وسبب إشراك الله مع بقية الآلهة الأدنى في النّجاح، يعطي الرسولُ جوابه حول هؤلاء الشّركاء ويؤكّد أنّهم غير قادرين على خلق أيّ شيءٍ، أو مساعدة أيّ شخصٍ، ويقوم بتحدّي الوثنيّين لاختبار قوّة الشّركاء المزوّرة بالصّلاة لهم، كما في قوله: {إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (سورة الأعراف، الآية 194). وتقول آيةٌ أخرى: {قُلِ ادْعُوا الذين زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلا} (سورة الإسراء، الآية 56)، ويبدو لأوّل وهلةٍ أنّ هذا الافتراض غريبٌ، حيث يدعو هؤلاء الشّركاء بالضّبط بما اتُّهم به الوثنيّون باستمرارٍ، ويبدو أنّ الرّسول كان يعني بما سبق أنّه يجب على الوثنيّين أن يصلّوا لله فقط من دون الآلهة، وتؤكّد وجهةُ نظره هذه صلاةَ الوثنيّين النّاجحة، وأنّ ذلك كان بفضل الله، وليس بفضل الآلهة الأدنى، ويمكنهم أن يختبروا هذا المقترح ببساطةٍ من خلال الصّلاة إلى الآلهة الأدنى وحدها؛ ويبدو من الواضح مرّةً أخرى أنّهم لا يصلّون عادةً لهم فقط، وبدلاً من ذلك، كانوا يصلّون إلى الله والشّركاء، أو إلى الله من خلال الشّركاء، وأحياناً أخرى يصلّون مباشرةً إلى الله بتجاوز الشّركاء. باختصار، كان خطؤهم (الشّرك) ليس فقط من حيث الاعتقاد، ولكن أيضاً من حيث السّلوك الطّقسيّ.

وتماهياً مع هذا، فالوثنيّون مذنبون بإسنادهم بعضاً من حصادهم وماشيتهم إلى الله والشّركاء، قائلاً: {وَجَعَلُوا للهَّ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا للهَّ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهَّ وَمَا كَانَ للهَّ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} (سورة الأنعام، الآية 136؛ قارن مع سورة النحل، الآية 56). وهم لا يُتّهمونَ بإبقاء مثل هذه الأشياء سرّاً، أو تقديم هباتٍ أخرى للآلهة الأدنى؛ كما أنّهم غير متّهمين بالسّجود لهم، أو بتكريس أيامٍ معيّنةٍ لأجلهم، أو إيوائهم في معابدهم

الخاصّة، وتعيين الأوصياء عليها، أو القيام بالحجّ لهم.

باختصار، لا توجد أيّة إشارة إلى العمليّة المتعلّقة بعبادة الآلهة أو الملائكة من دون الله.

القانون والعرف

شهد الوثنيّون الله، وليس الآلهة الأدنى أو الملائكة، كمصدرٍ لقانونهم الشّعائريّ وأعرافهم، و قيل لنا: إنّهم سوف يعلنون قدسيّة بعضٍ من الماشية والمحاصيل، كما في قوله: {وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (سورة الأنعام، الآية 138)، وليس من الواضح ما إذا حذفوا اسمه ببساطة، كما اقترحت الآية السابقة والآية رقم 121 من سورة الأنعام: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}، أو إذا كانوا يريدون استبداله بآخر.

بعد ذلك يحظر الرّسول الذّبح لشخصٍ آخر غير الله، وعلى ما يبدو هناك إشارةٌ إلى الممارسات الخاطئة نفسها، كما في قوله: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (سورة الأنعام، الآيَة 145؛ ومجدّداً، سورة النحل، الآية 115). أمّا إذا كان من شأن الوثنيّين تكريس بعضٍ من المذبوحات إلى آلهةٍ غير الله، فمن الغريب أنّهم متّهمون بحذف اسمه فقط! ولا يؤدّي هذا الجدل إلى ما تقتضيه الحقيقة، والأرجح أن يكون الرّسول شحذ ما صاغه في الجولة الثّانية، ربّما لأنّه لم يستطع رؤية الفرق بين حذف اسم الله وذكرِ أيّة آلهةٍ أخرى، (كما أنّه ساوى تماماً بين عدم الإيمان بالله وتأليه الذّات، راجع

سورة الشعراء، الآيتان 29،23؛ سورة القصص، الآية 38)، أو ربّما كان يقصد أنّ الوثنيّين في بعضٍ من الأحيان يذكرون أسماء الكائنات الأدنى بجانب الله، والّتي بلغت في رأيه إلى درجة التّقديس، كما في قوله: {قُلْ أَغَيْرَ اللهَّ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (سورة الأنعام، الآية 164)، وذلك على الرّغم من أنّ هدفه من هذه السّورة التّركيز على (الشّرك) وليس رفضَ الله وعبادةَ إلهٍ آخر. وفي الأحوال جميعها، كان ذنبهم فقط عدمَ ذكر اسم الله عند ذبح بعضٍ من الماشية، وهذا يعني أنّهم يقومون عادةً بذلك، حتّى عندما ابتعدوا عمّا اتخذه الرّسول ليكون رغباتِ الله، لكنّهم من وجهة نظر الرّسول، أرجعوا هذه القوانين زوراً إلى الله نفسه، كما جاء في قوله: {وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهَّ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (سورة الأنعام، الآية رقم 138). وجاء في قوله أيضاً: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهَّ الْكَذِبَ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى اللهَّ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} (سورة النحل، الآية 116)؛ {مَا جَعَلَ اللهُّ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهَّ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} (سورة المائدة، الآية 103). وهذا يعني لمرّةٍ أخرى، أنّهم يرون أعرافهم على أنّها هديّة من الله! حيث يقولون في إحدى المرّات، كما ورد في القرآن: {وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُّ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} (سورة النحل، الآية 35)، ويمكن أن يُنظر إلى هذا بصورة أنّهم رأوا أنفسهم مخوّلين بتحريمهم لهذه الأشياء بناءً على سلطتهم الذّاتيّة، ولكنّ الذي يبدو هو أنّهم لم يستطيعوا التّمييز بين الأمر الإلهي ومعايير الأسلاف وتقاليدهم: {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُّ

أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَّ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهَّ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} (سورة الأعراف، الآية 28)، وكما لحظ الرّسول، فإنّهم سوف ينسبون الفضل إلى الله مع أشياء أخرى لا علم لهم بها!، وتقول الآية نفسُها مؤيّدةً أنّهم رأوا تعاليم الله على أنّها اقتفاءٌ لطرائق أجدادهم.

وإضافةً إلى استدعاء اسم الله على الذّبائح، فإن الوثنيّين يقسمون باسم الله ـ على الأقلّ ـ عندما يكون القَسَم قويّاً! (أمّا في قسمهم الأقلّ قوّةً، وحتّى لو تمّ استدعاء الآلهة الأدنى أو الملائكة، فإنّه لا يُقال: نحن لم نرهم يقسمون باللّات أو مناة أو العُزّى، أو أيّة آلهةٍ أخرى في القرآن... وإنّما يكون ذلك واضحاً في الروايات فقط). وقد جاء في القرآن: {وَأَقْسَمُواْ بِاللهَّ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهَّ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} (سورة الأنعام، الآية 109؛ قارَن مع الآيات 100، 106 وما يليها لتعريفهم على أنهم مشركون)؛ {وَأَقْسَمُوا بِاللهَّ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا} (سورة فاطر، الآية 42، و بالنّسبة للشّرك قارن مع سورة فاطر، الآية 40)، حيثُ يبدو أنّهم كانوا مطّلعين على الفكرةِ القائلة: إنّ الله قد يرسل إليهم نذيراً يحمل لهم نوعاً من أنواع الشّهادة الّتي يمكن توقّعها من شخصٍ كهذا.[1]

ونقول من جديدٍ إنّ هناك المزيد من التّداخل بين دينهم، وبين استمرار اتّهام الرّسول لهم، كما التّالي: {وَأَقْسَمُواْ بِاللهَّ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُّ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (سورة النحل، الآية 38). ويمكن القول بكلماتٍ أخرى: كانوا مؤمنين بالله، وليس بأبناء أو بنات الله، أو أنكروا القيامة.

(1) للمزيد انظر كرون، «ملائكة مقابل البشر»، في تاونسند و فيدز، الوحي.

الحتمية

يبرز القرآن واحدةً من الخصائص الظّاهرة للمشركين، وهي التّعبير عن أنفسهم من حيث الحتميّة، وذلك بقولهم مراراً وتكراراً: إنّ كلّ ما يفعلونه هو الحقّ، لأنّ الله لم يكن ليسمح لهم بخلاف ذلك، كما جاء في القرآن: {سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ} (سورة الأنعام، الآية 148)، وأيضاً في قوله: {وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} (سورة النحل، الآية 35)؛ {وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} (سورة الزخرف، الآية 20). وكان هناك أناسٌ، تمّت إدانتهم بشدّةٍ على أنّهم من غير المؤمنين بسبب رفضهم لممارسة الصّدقة انطلاقاً من أسباب الحتميّة: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ قَالَ الذين كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} (سورة يس، الآية 47). ومن الممكن أنّ الوثنيّين قصدوا بذلك أو ببعضٍ منه مجرّد التّهكم! ولكن ليس من الواضح إذا كانوا قد فعلوا ذلك أم لا، وإنّ حجّة الرّسول من الصّعب دحضها، لأنّهم يختلفون مع الرّسول حول تحديد السّلطة الإلهيّة العليا.

وقد كان النّبيّ يعبرُ عن نفسه في كثيرٍ من الأحايين ضمن منطلق الحتميّة ذاته كما يفعل الوثنيّون، ولاسيّما عندما يحاول أن يجعل رفضهم له حقيقةً، فيؤكّد على أنّ الله قد وضع الحجاب على قلوبهم والصّمَمَ في آذانهم، بحيث أنّهم لا يفهمون، كما في الآيات: (سورة الأنعام، 25؛ سورة الإسراء، 46؛ سورة الكهف، 57؛ وبالمثل، سورة البقرة، 7). وجاء في القرآن: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ} (سورة يس، الآية 8)؛

{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} (سورة الأنعام، الآية 111)؛ وإذا وجد الرّسول صعوبةً في تقبّل الرّفض، قال له القرآن: إنّه ينبغي عليه أن يتذكر {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} (سورة الأنعام، الآية 35؛ وقارن أيضاً الآية رقم 33 من سورة الرعد)، ويتشابه قول الله مع أقوال الوثنيّين في مناسباتٍ عدّةٍ: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} (سورة الأنعام، الآية 107) [إذاً توقف عن القلق حول هذا الموضوع]؛ وفي قوله: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} (سورة الأنعام، الآية 112). وجاء في قوله: {كَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} (سورة الأنعام، الآية 137، مع إشارة إلى الوأد)، ورداً على جدالهم بعد وصفهم بالشّرك وتأكيداً منهم بوجوب عدم تحريم إلّا ما حرّمه الله... يزعم الرّسول أنّهم أشركوا هم وأسلافهم ولم يؤمنوا، بل سلكوا طريق الظّنّ، كما في قوله: {سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ} (سورة الأنعام، الآية 148)، لكنّه يعود في النّهاية ويوافقهم: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} (سورة الأنعام، الآية 148).

الله والرحمن

على الرّغم من أنّ الرّسول وخصومه عبدوا الإله نفسه تحت اسم «الله» لكنّ الأدب الحديث غالباً ما أكّد على أنَّ الرّسول عرف الله من خلال تسميةٍ أخرى لم تكن مألوفةً لدى الوثنيّين، ألا وهي «الرّحمن»، ممّا يعني أنّ مفهومه

حول الله، كان قد تشكّل من خلال الفِكَر التّوحيديّة الإضافيّة الّتي لم يشارك الوثنيّين فيها.[1] ولكنّ الجانبين كليهما يشتركان في تسمية الرّحمن في القرآن. غير أنّ هناك بعضاً من المقاطع الّتي قدّمت المشركين على أنّهم لا يقبلون أو حتّى يعرفون هذا الاسم! إذاً كيف يتمّ حلّ هذا التّناقض؟.

دعونا نبدأ مع الآيات الّتي يتحدّث فيها الوثنيّون عن الرّحمن كما لو أنّه إلههم. لقد جاء في القرآن: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} (سورة الأنبياء، الآية 26)، وكانت الإشارة فيما سبق إلى الأطفال في صيغة الجمع بدلاً من صيغة الابن الواحد، أو في حالة المُثنّى (المسيح، عزرا)، وذلك استجابةً لإنكار قدرة الأطفال على الشّفاعة، كما في قوله: {يعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} (سورة الأنبياء، 28)، لذا وجب أن يكونوا المقصد في قوله: {وجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الذين هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ، وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} (سورة الزخرف، الآيتان 19،20). قيل لنا: إنّ الوثنيّين «جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الذين هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا»، و يؤكّد في الآية اللاحقة: «لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم»، ففي الآيتين السّابقتين، يستعمل الرّسول تسميته للإشارة إلى الله، ولكن إذا كان معلوماً أنّ اسم الرّحمن غيرُ مألوفٍ لدى الوثنيّين، فإنّ من شأن هذا التّنافر في مسامع الحضور! ثمّ يبدو أنّ الوثنيّين قد استخدموا هذا الاسم في قصّةٍ أخرى، تتكلم عن وصول رسولين إلى قوم مجهولين، ورفضِ الرّسولين من قِبَلِهم، نافياً أنّ الرّحمن أنزل أيّ شيءٍ عليهم، كما في قوله: {قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَن

(1) راجع جـ. جومير، «Le nom divin 'al-Raḥmān' dans le Coran» Mélanges Louis Massignon (دمشق، 1957) 2، ص. 365وما يليها (تكمن جذور الإدعاء في الرواية، راجع ص.367)؛ وعلى نحوٍ مماثلٍ في ولش، «الله والكائنات الخارقة الأخرى»، ص. 735.

مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ} (سورة يس، الآية 15)، فيظهر مؤمنٌ واحدٌ ليدعم هذين الرّسولين، وأيضاً يسمّي الله بتسمية الرّحمن: {أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ} (سورة يس، الآية 15). إنّ حقيقة أنّ كلا الجانبين كان يتوخّى عندما يتحدّث عن الرحمن الإشارة إلى أنّ الاسم نفسه لم يكن القضيّة.

دعونا الآن ننتقل إلى مجموعةٍ أخرى من الآيات. في سورة الرعد، الآية 30، قيل للرّسول: «أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ»، ولكنّهم "يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ"، وعليه أن يرد عليهم، كما جاء في الآية: "قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ»، فهم يبدون غير مؤمنين بالله (مثل فرعون في سورة الشعراء، الآيتان 29،23) أو إنّهم يعزون شركاء له، ولا يعني الكفرُ عادةً عدم الإيمان بمعنى إنكار وجود الله: عادةً ما يكون الوثنيّون غير مؤمنين، بمعنى أنّ إيمانهم بالله الواحد لا يظهر ـ بحسب رأي الرّسول ـ في طريقة الكلام والفعل.[1] وهنا يبدو أنّ الكفّار يكذبون في «الشّرك»، و أوعزَ الله إلى الرّسول أن يرد عليهم بقوله: «هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ»، ولكن سواءٌ كان هذا هو الحال أم لا، فليس هناك سببٌ للاعتقاد بأنّ هذه المسألة متعلّقةٌ باسم الرّحمن، حيث قيل لنا في الآية رقم 36 من سورة الأنبياء: {وَإِذَا رَآكَ الذين كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ}، و بالنسبة لتكرار (هم) في نهاية الآية السّابقة، هو تكرار غير متجانس، لكنّ التّصريح هنا لا تبدو فيه أيّة زيادةٍ على ما سبق، أي إنّ عدم إيمانهم بالرّحمن/ الله، إمّا أنّه بمعنى إنكار وجوده، أو بمعنى ربط آلهةٍ أخرى معه، وفي كلتا الحالتين، هم لا يؤمنون بما قاله الرّسول عنه؛ ومع ذلك نقرأ في الآية: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

(1) كمثالٍ في سورة العنكبوت، الآية 52، قيل لنا: }الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{، ومع ذلك قيل لنا بعدئذ في الآية رقم 61 من سورة العنكبوت: }وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ{.

اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا}؟ (سورة الفرقان، الآية 25).

توحي هذه الآية للوهلة الأولى بأنّهم لا يعرفون الرّحمن، ومع ذلك تكون الاستجابة ليست بتفسير العلاقة بين الرّحمن والله، ويليها وصفٌ لطرائق عبادته، بدلاً من حمده بوصفه الخالق، والإقرار له بالفضل الّذي يستحقّه! على الرّغم من استخدام اسم الرّحمن مرّةً أخرى في قوله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذين يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا} (سورة الفرقان، الآية 63)، وهنا نجد إشارةً في السّورة ذاتها باسم الله مرّةً أخرى بدلاً من الرّحمن، وذلك في الآيتان 68-70، ومن دون أيّة محاولةٍ لإقناع الجمهور بأنّ الاسمين متطابقان، يتمّ أخذ هذه المسألة على أنّها أمرٌ مفروغٌ منه. إذاً على ما يبدو، فالقضية هنا أيضاً ليست اختلافاً على اسم، لأنّه يمكن للمرء المقارنة مع الآية 23 من سورة الشعراء، حيث يسأل فرعون، كما في قوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}. إنّ قوّة السّؤال هنا ليست في أنّه لم يسمع قطّ عن الله، بل في أنّه لا يؤمن به! إنّه يقدّم نفسه باعتباره الله، كما جاء في القرآن: {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} (سورة الشعراء، الآية 29). أو مرّةً أخرى، بلسان غير المؤمنين: {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} (سورة الجاثية، الآية 32): لم يدّعوا عدم علمهم بمفهوم السّاعة، بل إنّهم غير متأكّدين من حقيقتها، ويمكن للمرء أن يأخذ عليهم عندما سألوا: {وَمَا الرَّحْمَنُ}؟ أنّ كلامهم يعبّر عن الشّكوك أو النّفي، سواءٌ حول وجود الرّحمن، أو إدراك الرّسول له. ولكن في أيّة حالٍ له علاقة مع الله: إنّ الله يُسمّى هنا «الرّحمن» ويأتي ذلك بشكلٍ عرضيٍّ فقط.

إنّ الله، والرّحمن، يمكن أن يتبادلا المواقع، ويُقترَح ذلك أيضاً من خلال حقيقة أنّ ما لا يُقال عن هذا الأخير، لا يقال أيضاً عن السّابق، سواءٌ من

الرّسول أو الوثنيّين.[1] وذلك لا يحلّ المشكلة تماماً! ففي مكانٍ آخرَ أوعزَ الله إلى الرّسول قائلاً: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً} (سورة الإسراء، الآية 110).

ويمكن أن يُؤخذ هذا بإشارةٍ إلى بعضٍ من الشّكّ حول العلاقة بين الاثنين، ولكن ليس من الواضح من هو الّذي ساورته الشّكوك، أهو الرّسول أو الوثنيّون، ويُلحظ أنّ جميع الأفعال السّتّة في هذه الآية هي في صيغة المفرد؛ ويمكن أن يُقرأ البيان، على أنّه تنازلٌ سواءٌ من الرّسول أو الوثنيّين.

الأصنام

يحتوي القرآن على قصصٍ عديدةٍ تتكلّم عن الأصنام، ولكنّ ارتباطها بالماضي التّوراتيّ، يرجع في المقام الأوّل لإبراهيم، وهو المرجعيّة الوحيدة للأصنام المعاصرة في السّور المكّيّة الّتي تُصنّف على أنّها تأتي متّصلةً مع عادة الحجّ كما في الآية 30 من سورة الحج: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ}.

ومن غير الواضح هنا ـ كما في كثير من الأحايين ـ ما يقصده الكتاب بالضّبط ـ ولكنّ السّياق يوحي بأنّ ما يجري هو تحريم نوعٍ من الموادّ الغذائيّة، ويُفترض أنّها التّضحية باللّحوم للأصنام.

أمّا في سورة المائدة (المدنيّة)، فقد أعلن أن الماشية حلال للمؤمنين، لكن مع قائمة طويلة من الاستثناءات، ومنها: {مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ} (سورة

(1) لحظها جوميير، "Nom divin"، ص. 370.

المائدة، الآية 1)؛ ولاحقاً في السّورة ذاتها نجد إشارةً للنُّصُبِ، وهي الحجارة الّتي يتمّ التّضحية عندها، فضلاً عن الخمور والمَيْسِر والأَزْلامُ (السّهام)، كما في قوله: {يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (سورة المائدة، الآية 90). وهذا يشير إلى أنّ الرّجس من الأوثان المحرّم، كما جاء في الآية رقم 30 من سورة الحج: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ}، هي اللّحوم المذبوحة على حجارة الأضاحي.(1)

ولم تُعدّ هذه الحجارة (الأَنصَاب) أصناماً، لكنّ كمذابح، أي ما يعادل الأَنصَاب (الأعمدة الحجرية المقدّسة / maṣṣebot) التّوراتيّة، والّتي ترتبط بها ارتباطاً إيتيمولوجيّاً: تتمّ التّضحية عندها، لا من أجلها (سورة المائدة، الآية 3)، لكنّ الأشياء الّتي تُذبح عليها، يمكن بالطّبع أن تكون مكرّسةً لآلهةٍ أخرى غير الله، أو مع الله، وهذا جعل الأصنام بالمعنى الواسع للكلمة، تعبّر عن الشّيءِ الّذي يشكّل منافساً لله؛ والحقيقة هي أنّها لم تكن صوراً عن الآلهة أو الأشياء الّتي يعبدونها، ولا الأشياء الّتي لا صلة لها بهذا السرد الّذي يخلط بحُريّةٍ بين حجارة الأضاحي، والأصنام في القصص المتعلّقة بمكّة.(2)

وبالنّظر إلى (الأَنصَاب) الموجودة في السّور المدنيّة، يمكن للمرء أن يشاهد أيضاً الآية (سورة الحج، الآية 30) الّتي تشير إلى واحدٍ أو أكثرَ من الممارسات المحرَّمة، كما في قوله: (سورة الأنعام، الآيات 145 136-).

وكما رأينا مسبّقاً، فقد قيل لنا: إنّ من شأن الوثنيّين أن يكرّسوا جزءاً من مواشيهم ومحاصيلهم إلى الله والآلهة الأدنى، وأنّ لديهم جزءاً آخر من الماشية الّتي حرّموا استخدامها في الحراثة و/ أو استخدامها كدوابّ لحمل

(1) وبالمثل هاوتينغ، الوثنية، ص. 60.

(2) راجع توفيق فهد، "نُصُب"، موسوعة الإسلام، الطبعة الثانية.

الأشياء، وأيضاً الماشية الّتي لم يذكروا اسم الله عندما يذبحونها، وينسبون هذه القوانين زوراً إلى الله، ("افْتِرَاء عَلَيْهِ» كما تضمنت الآية 138 من سورة المائدة)، ويقدّمون أجنّة هذه الحيوانات لرجال مجتمعهم، ويمنعون زوجاتهم من أكلها إلّا إذا وُلدت ميْتةً (سورة المائدة، الآية 139). ثمّ يخبرهم الرّسول بما ينبغي عليهم من مستحقّات لله من زيتونٍ ورمّانٍ وغيرهما من المنتجات عند حصادها أو قطافها، ويأمرهم بعدم اتّباع الشّيطان، كما في قوله: {وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (سورة المائدة، الآية 141 وما يليها)، لكنّه يقول بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ: إنّه لا يوجد شيءٌ في الوحي الذي تلقّاه ينهى عن استهلاك أيّ شيءٍ سوى الجيف والدّم ولحم الخنزير، لأنّها نَجسٌ وفِسْقٌ، وأنّ أيّ شيءٍ مقدّسٍ لشخصٍ آخر غير الله ممنوعٌ أيضاً، كما في قوله: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهَّ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (سورة المائدة، الآية 145)، ويقول في آيةٍ أخرى موجّهاً رسالةً تحذيريّةً تتضمّن التّوجيه السّابق نفسه بخصوص: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهَّ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (سورة النحل، الآية 115)؛ ولكنّه يأمرهم في الآية التّالية بعدم تحريم وتحليل الأشياء، لأنّ في ذلك افتراءً على الله، كما في قوله: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهَّ الْكَذِبَ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى اللهَّ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} (سورة النحل، الآية 116)؛ حيث من الممكن أن تشير عبارة (الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ) إلى الماشية المشاركة في هذه الطّقوس، وإذا كان الأمر كذلك بالمعنى الحرفيّ، فإنّ الأصنام لن تشارَك، ولكنّ التّفسير الأوّل ربّما كان أكثر قبولاً.

إضافةً إلى (النُّصُبِ) يشجب القرآن (الطَّاغُوت) أو في فقرةٍ أخرى

(الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ). لكنّ معنى هاتين الكلمتين يبقى غامضاً [1]. ثمّ يقول الله في الآية 36 من سورة النحل: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، وبما أنّ هذه الآية موجّهةٌ إلى أولئك الذين ينسبون شركاء إلى الله ("الذين أَشْرَكُواْ"، سورة النحل، الآية 35)، وحيث كان يتمّ تصوير الرّسل السّابقين دائماً بصورة الواعظ ضدّ الشّركاء المفترَضين، فيمكن أن يأخذ المرء وصف (الطَّاغُوت) هذا على أنّه من الآلهة المزوّرة، وإذا كانت الكلمة تعني الأصنام، فيجب أن تكون بمفهوم التّفاني في الإخلاص لهذه الأصنام والمتعارض مع وحدة الله. وكذلك نجد وعوداً بالبشرى لمن تجنّب عبادة (الطَّاغُوت) ولم يَعبُدهَا/ يَعبُدهم؛ كما في قوله: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ} (سورة الزمر، الآية 17)؛ كذلك فإنّ من قاتل في سَبيل الله يتعارض مع من قاتل في سبيل الطَّاغُوت حيث يعدّهم أولياء للشّيطان كما في قوله: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} (سورة النساء، الآية 76)؛ كذلك يتعارض الإيمان بالله مع الإيمان بالطَّاغُوت، كما في قوله: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (سورة البقرة، الآيتان 257،256)، حيث نجد وصفاً للطَّاغُوت بأنّهم أولياء الَّذِينَ كَفَرُوا، ويمكن في هذه الآيات أن يكون وصف الطَّاغُوت بمعنى الآلهة الأدنى، وأمّا بالنّسبة للآيات المدنيّة الباقية، فهي تثير المزيد من المشكلات لأنّها تتعلّق بالمؤمنين بالطَّاغُوت من أهل الكتاب، حيث إنّه تمّ إبلاغ أهل الكتاب بطريقةٍ غامضةٍ أنّهم يعبدون الطَّاغُوت في ترابطٍ مع

(1) راجع هاوتينغ، الوثنية، ص. 55 وما يليها.

الأشخاص الّذين تحوّلوا إلى قردةٍ وخنازير؛ وقيل لنا أنّهم أفراد غير صّادقين من مجتمع الرّسول، ومن المفترض أن يكونوا من أهل الكتاب: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ، قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ، وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ} (سورة المائدة، الآيات 59-61). و{الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا} (سورة النساء، الآية 51)؛ و هم أو غيرهم ممّن يؤمنون بما أنزل الله إلى الرّسول وأسلافه، يريدون أخذ خلافاتهم بالنّسبة لوصف الطّاغُوت إلى المناظرة، كما في قوله: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا} (سورة النساء، الآية 60)؛ ثمّ يصفهم بأنّهم منافقون (سورة النساء، الآية)60.

وبعضٌ من التّفسيرات لمصطلح (الطّاغُوت) مبنيٌّ على ذهاب المؤمنين غير الصّادقين لأخذ خلافاتهم بالنّسبة إلى الأصنام ووضعِها أمام الأوصياء على المقدّسات أو العرّافين (الكهنة)، لكن كلُّ ما يستطيع المرء أن يقوله استناداً إلى القرآن نفسه، هو أنّ هذه الخلافات، تبدو كنزاعاتٍ بين السّلطات الدّينيّة من نوعٍ ما. وبالنّسبة لكلّ الآيات الّتي تحتوي على مصطلح (الطّاغُوت)، يمكن القول في حال كانت هذه الكلمة تعني وثن أو صنم: إنّه قد تمّ استخدامها بشكل مجازيٍّ، وذلك هو مجموع ما يشير إلى الأصنام في سّياقاتٍ غير توراتيّة في القرآن.

ولا يمكن للمرء مما سبق تخمين أنّ الكعبة يُفترض أن تكون مقرّاً لإلهٍ

يُسمّى هبل، والّتي من المفترض أنّ ثلاثمئة وستّين صنماً يحيطون بها، وأُشيع أنّ لكلّ بيتٍ في مكّة صنمَه الخاصّ به، وأنّ واحداً من المعارضين للرّسول كان صانعَ أصنام، وأنّه لا يمكن لأيّ مكّيٍّ أن يذهب بعيداً دون التّمسّح بصنمه قبل أن يغادر مكانه، ويفعل الشّيء ذاته عند عودته.[1] حتّى لو أخذنا الإشارة الوحيدة إلى (الأَوْثَان) في مكّة للإشارة للأصنام بدلاً من حجارة الأضاحي، كما في قوله: {ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} (سورة الحج، الآية 30)، وعند توضيح أكبر لفهم كلٍّ من الجِبْت وَالطَّاغُوت بوصفهم أصناماً أيضاً، يظهر لنا أنّ هناك شيئاً ناقصاً تماماً.

وبقدر ما يلمّح القرآن إلى وجود الأصنام، لكنّه لم يذكرها في الحرم الإبراهيميّ؛ ولا يذكر هبل؛ مع احتمال وجود استثناءٍ في الآية رقم 60 من سورة النساء (السّوَر المدنيّة)، ولا يوجد أيّة إشارةٍ إلى رجل دينٍ وثنيٍّ؛ وكذلك لم يذكر الأضرحةَ الوثنيّة أو أشياء أخرى وثنيّة بين معاصري الرّسول، ولا حتّى ما يهدّد بتدمير مثل هذه الأشياء أو يطلب تدميرها بعد انتصار الرّسول.[2]

وما تحدّثنا به مطوّلاً، بصرف النّظر عن عبادة الآلهة الأدنى/ الملائكة، هي خمسةٌ أو ستّةٌ من الممارسات الرّيفيّة ذات الطّبيعة الحميدة إلى حدٍّ ما، ربّما باستثناء التّالي:

---

(1) راجع توفيق فهد، «نُصُب»، .موسوعة الإسلام، الطبعة الثانية.

(2) ويمكن أن يُضاف أنّ علم الآثار، «ساهم حتّى الآن بالقليل لمعرفتنا بالأضرحة الجاهليّة المعروفة من المصادر الإسلاميّة، ويجب أن تكون الشّكوك موجودةً بشأن ما إذا كان هناك تصوّرٌ في أنّ تدمير المواقع والمزارات العربيّة الأخرى المعروفة لعلم الآثار هو حقّاً مرتبطٌ بظهور الإسلام» (جـ. ر. د. كينغ، «النبي محمّد وكسر الأصنام الجاهليّة»، في «دراسات عن المنطقة العربيّة على شرف الأستاذ جـ. ريكس سميث»، تحرير. جـ. فـ. هايلي و فـ. بورتر أكسفورد، 2002، ص. 91).

1ـ يخصّص الوثنيّون جزءاً من ماشيتهم، ومحصولاتهم الزّراعيّة لله، والآلهة الأدنى الخاصّة بهم.

2ـ امتلاك الماشية، وتحريم استخدام بعضها في الحراثة و/أو حمل الأشياء.

3ـ لديهم الكثير من الماشية الّتي لم يذكروا اسم الله عليها عند ذبحها.

4ـ الاحتفاظ بأجنّة بعضٍ من الحيوانات للرّجال، ومنع زوجاتهم من تناول لحمها، إلّا إذا كانت ميْتةً عند ولادتها.

5ـ القيام بشقّ آذان ماشيتهم.

6ـ لديهم ما يعرف بالبَحِيرة والسّائِبة و الوصيلَة و الحام، الّتي يمكن أن تدلّ على واحدٍ أو أكثر من الأصنام (النساء، 119؛ المائدة، 103؛ الأنعام، الآية 121، والآيات 136-145؛ النحل، 35، 56، 115، 116).

لماذا يكرّس القرآن الكثير من الاهتمام للممارسات الطّفيفة الخاطئة فيما يتعلّق باستخدام حيوانات المزرعة، إذا كان المكّيّون (بصرف النّظر عن أنّهم من غير المزارعين وفقاً للتّراث) غَرْقَى في الوثنيّة بشكل فاضح؟[1] ولماذا يجب أن يُقال القليل عن عبادة الأصنام المكّيّة، مع أنّ هذا الموضوع قابلٌ للمناقشة في حال تمّ ذِكْرُه؟!

إنّ ذِكر الأصنام الوافر في السّور المكّيّة ليس موجوداً إلّا في إعادة رواية القصص التّوراتيّة، وقبل كلّ شيءٍ في قصّة إبراهيم. حيث نجدُ إبراهيم يسأل

(1) راجع لهذا السّؤال، باتريشيا كرون، «كيف استطاع الوثنيّون في القرآن كسب لقمة العيش؟»، نشرة مدرسة الدّراسات الشّرقيّة والأفريقيّة، 68 (2005)، ص. 387-399؛ على النقيض من اختلاف المكان كما وصفته الروايات (نسخة، «قريش والجيش الرّوماني مُحاوَلة لفهم تجارة الجلودِ المكّيّة"، نشرة مدرسة الدّراسات الشّرقيّة والأفريقيّة، 70 (2007)، ص. 63-88.

والده وقومه: {مَا تَعْبُدُونَ}، ثمّ يأتي جوابهم: {قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ} (سورة الشعراء، الآيتان 71،70) ، و{إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (سورة الأنعام، الآية 74)؛ {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}؟ (سورة الأنبياء، الآية 52)، {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} (سورة العنكبوت، الآية 25)، ويصرّح بأنّهم يعبدون الأوثان بدلاً من الله ويصنعون الكذب، كما في قوله: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (سورة العنكبوت، الآية 17؛ قارن مع سورة الصافات، الآية 85 ، 86)؛ ونجد في آيةٍ أخرى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ} (سورة إبراهيم، الآية 35؛ سورة الأنبياء، الآية 57). وعند خروج بني إسرائيل من مصر، كما في قوله: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} (سورة الأعراف، الآية 138)؛ إضافةً لرواية العجل الذّهبيّ، الّتي تمّ التّوسّع فيها (سورة طه، الآية 85 وما يليها).

لا يمكن أن يكون هناك شكّ في أنّ مرجعيّة إلقاء هذه القصص متعلّقةٌ بالرّسول نفسِه، ولكنّ الحقيقة هي أنّ الأصنام بواقعها الملموس، ليست موجودةً إلّا في القّصص التّوراتيّة، أمّا تلك الّتي تشير إلى زمن الرّسول، فهي مجرّد مفهوماتٍ غير ملموسةٍ، وما يُستهدف هنا هو الباطل (الإفك)، وهو أمرٌ غير صحيحٍ قدّمه الوثنيّون عن الله: إنّه يرى نفسه يحطّم الأصنام بمعنى القضاء على المعتقدات الخاطئة، لكنّ خصومه الوثنيّين يعبدون الله نفسَه كما كان يفعل، ولديهم وجهات نظر متوافقةٌ مع وحدانيّة الله كما رآها

هو (أي الرّسول)، لكنّ أصنامهم ليس لها علاقةٌ مع عبادة الأصنام الوثنيّة بالمعنى الحرفيّ كما هي عليه في كتابات "لوثر" أو بالنسبة لتلك الموجودة في إيران الحديثة.

ردّ الرّسول على الآلهة الأدنى

ردّ الرّسول على الآلهة الوثنيّة/ الملائكة هو متنوّعٌ للغاية، فهو يتكلّم بيسرٍ عن فكرة الآلهة الكثيرة، وأنّ ذلك مرفوضٌ على أساس أنّه إذا كان هناك أكثر من واحدٍ، فإنهم سيختلفون، وتعمّ الفوضى (سورة الأنبياء، الآية 22؛ قارن مع سورة الإسراء، الآية 42؛ سورة المؤمنون، الآية 91). ولكن هذا لا يزال يترك له مهمّةُ شرح كيفيّة تفسير الآلهة المزعومة عند الوثنيّين، و يبدو أنّ لديه هنا أربع إجاباتٍ مختلفةً: إنّهم مجرّد كائناتٍ بشريّةً لكن تمّ تأليههم زوراً، أو ملائكة حقيقيّة ولكن الوثنيّين أساؤوا فهمها، أو مجرّد أسماءٍ لا صلة لها بالواقع، أو هي شياطين فعليّةٌ قد ضلّلت الوثنيّين.(1)

وفي أنّهم كانوا مجرّد كائناتٍ بشريّةً، وهم الآن في عداد الأموات، لعلّه ما قيل لنا في: {وَالذين يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهَّ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ؛ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} (سورة النحل، الآيتان 20، 21). حيثُ تبدو الآية السّابقة كأنّها إشارةٌ إلى الأصنام، وهي تؤكّد على أنّها ميّتةٌ وغير موجودةٍ. ويماثل ذلك ما هو موجود في قوله: {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهَّ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ} (سورة الزمر، الآية 43)، ويمكن أن يأخذ بعضهم الآية السّابقة: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}، على أنّها تشير إلى الكفّار أنفسِهم، لأنّه لا توجد آية

(1) على عكس ولش، "الله والكائنات الخارقة الأخرى"، لا يمكنني أن أرى أيّ ظهورٍ تدريجيٍّ للتّوحيد هنا: جميع الإجابات تصبّ في النّتيجة نفسها، أي أنّ الله واحدٌ وتعبده الكائنات الأخرى جميعها.

إشارةٍ إلى الأصنام؛ والمقصود هو أنّ الكفّار بالمعنى المجازيّ قد تُوفّوا،[1] لكنّ هذه القراءة ليست الأكثر منطقيّةً.

يبدو الحلّ الأمثل في سورة الأعراف، الآيتان 19 و 20، حيثُ يعلن الرّسول هنا: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، ويتحدّى خصومه لوضع هذه الكائنات في اختبارٍ يتجلّى بالصّلاة لهم، ويسألهم مخاطباً: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ}؟. تشير اللّغة هنا موحية أكثر إلى الأصنام، حيث نُبذت كأشياء مُلَفّقة، كما يقول سفر المزامير عن أصنام الأمم المصنوعة من الفضّة والذّهب وعمل أيدي النّاس: {لَهَا أَفْوَاهٌ وَلاَ تَتَكَلَّمُ. لَهَا أَعْيُنٌ وَلاَ تُبْصِرُ؛ لَهَا آذَانٌ وَلاَ تَسْمَعُ. كَذلِكَ لَيْسَ فِي أَفْوَاهِهَا نَفَسٌ}! (سفر المزامير 135: 17-16).[2] إذاً كان سفر المزامير - بدون شكٍّ - في ذهن الرّسول، سواءٌ هنا أو في سورة النحل، الآية 21. ولكنّه يبدأ فجأةً بتحديد الأشياء الواضحة والهادفة إلى يوم القيامة في الآية السّابقة، حتّى إنّه يقول: إنّ الآلهة المزوّرة "عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ" ومن الواضح أنّه لم يعد يفكّر بالكائنات، مع بقاء المزامير مختبئةً خلف الكلمات، لأنّها تتحدّث أيضاً عن التّشابه بين الكائنات المعبودة ومن يعبدها: {مِثْلَهَا يَكُونُ صَانِعُوهَا}، سفر المزامير 115: 8 ويؤكّد: {بَلْ كُلُّ مَنْ يَتَّكِلُ عَلَيْهَا}، كما جاء في سفر المزامير 135: 8. ولكن بعيداً عن التّشابه الواضح، فإنّ الرّسول يستبدل الأصنام بالكائنات، وبعبارةٍ أخرى، إنّه يستخدم اللّغة القديمة من السّجالات ضدّ الوثنيّة في حين أنّ المسألة ليست متعلّقةً بالأصنام المادّيّة.

لا يمكن للمرء أن يقول عن الملائكة: إنّهم يفتقرون إلى الأيدي أو

(1) راجع باريت، Kommentar، ص. 284.

(2) المزامير 115-118؛ 135، 15-18، لفت انتباهي إليهما جوزيف ويتزتم.

الأقدام، أو إنّهم قد لقوا حتفهم، لذلك ربّما يُقصد بالكائنات الميْتة أنّهم من البشر وأنّهم عبيدٌ مثلكم، ولكنّهم متعفّنون في القبور، وعلى سبيل المثال ربّما يقصد أشخاصاً محدّدين من البشر كالأنبياء، ولكن لا بُدَّ من أن يُقال عن هذه الآيات: إنّها لا تمتّ للوضوح بأيّة صلةٍ.

إنّ الآلهة الأدنى هي ملائكة حقيقيّة، لكنّ الوثنيّين أساؤوا فهمها، ويأتي ذلك في الآية {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} (سورة الزخرف، الآية 19)، كما هو الحال في قوله: {وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} (سورة آل عمران، الآية 80). وفي موضع آخر نجد أنّ الأولاد هم عبادٌ لله «عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ» ضمن الآية (سورة الأنبياء، الآية 26)، ومن الواضح هنا أنّ القصد بكلمة «عِبَادٌ» أنهم ملائكة، وليسوا بشراً، ولْنتابع مايؤكّد لنا أنّها لا تتكلّم قبل أن يَفعل، وأنّها تعمل بأمره، وأنّها لا تقدّم الشّفاعة إلّا لأولئك الّذين أذن الله لهم (قارن مع ما سبق 4. الشّفعاء). وكما قيل لنا مرّةً أخرى في السّجالات بحقّ أهل الكتاب، فإنّ الملائكة الحقيقيّة ليس لها الرّغبة في التأليه، ولا حتّى المسيح، ولا الملائكة المُقرّبون، كما في قوله: {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} (سورة النساء، الآية 172)[1]. وفي يوم القيامة سوف تنكر الملائكة أنّ الوثنيّين قاموا بعبادتها، بقوله: {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ} (سورة سبأ، الآيتان 40،41). وبعبارةٍ أخرى، كان الوثنيّون يعتقدون أنّهم يعبدون الملائكة، ولكنّ الحقيقة أنّهم عبدوا الشّياطين، وربّما إنّ الشّياطين كانت تنتحل صفة الملائكة، أو ربّما بدافعٍ من الشّياطين أصبح البشر يعبدون الملائكة.

(1) ومن المغري قراءة كلمة «الْمُقَرَّبُونَ، أي الملائكة الّذين يقرّبون (النّاس) من (الله)»، بالنّظر إلى أنّ هذا هو بالضّبط ما طلبه الوثنيّون من الملائكة (راجع ما سبق، رقم.4). ولكن لا أودّ أن أقترح تصحيحاتٍ حتّى نتمكّن من متابعة هذه المقالة.

كانت آلهة الوثنيّين عبارة عن مفهوماتٍ فارغةٍ كما قال يوسف النّبيّ للسّجناء في السّجن (مِنْ نشر الإسلام إلى جمهوره السّجين، وهو يفعل بقدر ما يفعله السّجناء في يومنا هذا)، كما في القرآن: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}؟ (سورة يوسف، الآية 40). وتسأل آيةٌ أخرى على لسان النّبيّ هودٍ لقومه: {قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ} (سورة الأعراف، الآية 71). وفي التّقريع لوثنيّي مكّة: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ} (سورة النجم، الآية 23). ومع ذلك يُقال لنا بعد أربع آياتٍ: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ}. إذاً فالملائكة حقيقيّةٌ، وبناء على ذلك؛ فهي تعتبر على أنّها إناث فقط وتوصف بأنها وجوه عبادة باطلة تفتقر إلى عنصر الحقيقة: {وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} (سورة النجم، الآية 28).

والحقيقة في أنّ الله لم ينزّل أيّ سلطانٍ للشّركاء (الإناث) هي إشارة إلى أنّ السّلطة المفقودة تتعلق بالنصّ الدينيّ. وذلك واضحٌ أيضاً في سورة الصافات، حيث أوعز للرّسول أن يسأل خصومه ما إذا كان عند الله بناتٌ في حين أنّ عندهم أبناءً، أو ما إذا كانت موجودةً عندما خَلَقَ الملائكة، وأنّهم رأوه وهو يجعلها إناثاً، أو إذا كان لديهم سُلطَانٌ مبينٌ من وجهة نظرهم: { فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ، أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ، أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ، وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ، فَأْتُوا

بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (سورة الصافات، الآيات 157-149).

إنّ الوثنيّين لا يتفوّهون إلّا بالكذب (الإفك)، كما في قوله: {أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ} (سورة الصافات، الآيتان 151، 152). وإنّ الذين سلكوا طريقاً غير طريق الله أملاً في الاقتراب منه مجرّد كذبةٍ (الإفك)، لكن هناك شيءٌ ما حدث (سورة الصافات، الآية 28)؛ وعندما يجرّون إلى الجحيم، سوف يدركون أنّ الذين كانوا يدعون لهم لم يكونوا بشيءٍ (سورة غافر، الآية 74)، سواءٌ كانوا بشراً من الموتى، أو أسماءً اختُرِعَت بدون قيدٍ، فليس بوسع هذه الآلهة الوثنيّة أن تساعد أحداً، ولا حتّى أنفسَها (سورة الأنبياء، الآية 43؛ سورة الأعراف، الآيتان 192، 197). وذلك مثل: الأصنام الّتي دمّرها إبراهيم، حيث لم تتمكّن من تقديم أيّ خيرٍ أو إنزال أيّ أذى بأولئك الذين سجدوا لها، أو حتّى لأنفسها (سورة المائدة، الآية 76؛ سورة يونس، الآية 18؛ سورة الإسراء، الآية 56؛ سورة الفرقان، 3؛ سورة الشعراء، الآيات 74-72)، ولا يملكون مِثقالَ ذَرَّةٍ في السّموات ولا في الأرض (سورة سبأ، الآية 22؛ قارن مع سورة فاطر، الآية 13)، ولا حتّى في يوم الدَّينونة (سورة الشعراء، الآية 93؛ سورة سبأ، 42). وفي قوله: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} (سورة الرعد، الآية 14). كما أُسيء بوصف الملائكة على أنّها آلهةٌ، على الرّغم من عجزها، وكذلك لأنّه لم يكن بمقدورها الشّفاعة سوى بإذن الله. وباختصار، فإنّ الآلهة المزوّرة هي عديمة الفائدة! ولكنّ الله سوف يعاقب النّاس لعبادة هذه الكائنات، ومن غير الممكن أن يغفر لأيّ أحدٍ اتّخذ شركاء منسوبين إليه، كما تقول السّورة المدنيّة: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} (سورة النساء، الآيتان، 48، 116)؛ ومن وجهة النّظر هذه فإنّ الآلهة المزوّرة ليست غيرَ مجديةٍ فقط، ولكنّها أيضاً كائناتٌ شيطانيّة.

ووفقاً لذلك، غالباً ما يحدّد الرّسول الآلهة المزوّرة بوصفها من الجنّ بمعنى الشّياطين، كما جاء في قوله: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ} (سورة الأنعام، الآية 100)، وفي قوله: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} (سورة الصافات، الآية 158).

وليس من الواضح ما إذا كان الجنّ يعرفون أنفسَهم أو المصلّين الّذين دعوهم، ولكن يبدو أنّ الحالة الأولى مرجّحَةٌ أكثر.

وتقول آيةٌ أخرى، إنّ الوثنيّين عبدوا آلهة من دون الله وذلك من أجل طلب المساعدة، ولكنّ هذه الكائنات لا يمكن أن تساعدهم: {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} (سورة يس، الآية 74 وما يليها).

ونجد مرّةً أخرى الإشارة واضحةً إلى الجنّ، وقد تكون الفكرة أنّه سيتمّ استدعاؤهم في يوم القيامة لاستجوابهم حول دورهم في تعزيز الباطل! ومن المؤكّد أن يُطلب من الملائكة في ذلك اليوم السّؤال عمّا إذا كان الوثنيّون يتعبّدون لها، ولسوف ينكرون ذلك قائلين: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} (سورة سبأ، الآيتان 41-40). ونجد أنّها تتهرّب من المشكلة ـ إذا جاز التّعبير ـ لكنّ بعضاً منها يملك القدرة على التّبرّؤ من المسؤوليّة كما يقول أحدهم، وقد سمعوا القرآن واستوعبوا أنّه لم يكن لله زوجةٌ (صَاحِبَةً) ولا ولدٌ، وكانت النّتيجة أنّهم ندّدوا بالأغبياء منهم بسبب أكاذيبهم على سلطان الله (سورة الجنّ، الآيات 5-1).

يقوم الجنّ هنا بتضليل النّاس عن طريق دفعهم لمتابعة الأكاذيب، وذلك ليس بِعدّهم شركاء مع الله؛ وينطبق الشّيء نفسُه عندما خاطب الكفار الله،

كما في قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} (سورة فصلت، الآية 29، من دون تحديد ماهيّة الخطأ المزعوم).

ويتمّ في مواضع أخرى استبدال الجنّ بالكائنات الشّيطانيّة بشكلٍ صريحٍ. وتخبرنا سّورة مكّيّة (سورة يس، الآية 60) أن الله سوف يسأل المدانين إلى الجحيم، كما في قوله: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}. وفي جملةٍ ضمن سورةٍ مدنيّةٍ سبق ذكرها يصف الآلهةَ الوثنيّة على أنّها الشّيطان: {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا} (سورة النساء، الآية 117؛ قارن مع رقم. 2 أعلاه). ولكن مرّة أخرى، قد يعني كلّ ذلك أنّهم يتّبعون الضّلالة الشّيطانيّة بدلاً من الله في إخلاصهم لهذه الكائنات. حيث تقتصر سلطة الشّيطان على أولئك الّذين يأخذونه كصديقٍ ويضعون شركاء مع الله، وذلك كما يُقال لنا في موضعٍ آخر: {إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ} (سورة النّحل، الآية 100). وفي الأحوال جميعها، يؤكّد الرّسول في كثيرٍ من الأحايين على الآثار الكارثيّة لمثل هذا التّضليل؛ وأنّ الآلهة المزوّرة ستفشل كلياًّ يوم القيامة، وتترك مَنْ عَبَدَهَا في النّار، كما في الآية 37 من سورة الأعراف: "قَالُوٓا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ" (سوف يُطلبُ من المشركين الإجابة) "قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَـٰفِرِينَ"، وعندها سوف يُلقى بهم في النّار (قارن مع سورة الأنعام، الآيات 22-24، 94؛ سورة الأعراف، الآية 53؛ سورة النحل، الآيتان 27، 87؛ سورة الشعراء، الآيات 92-101؛ سورة غافر، الآيتان 73، 74؛ سورة فصلت، الآيتان 46، 47؛ سورة الأحقاف، الآية 28). ولن تستجيب لهم الآلهة الأدنى في يوم الدينونّة (سورة الكهف، الآية 52؛ سورة القصص، الآية 64؛ سورة فاطر، الآية 14؛ سورة الأحقاف، الآيتان 5-6)، أو كما في

قوله: {إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} (سورة فاطر، الآية 14)، أو سيقوم المشركون هم أنفسهم بذلك، وكما جاء في قوله: {وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ} (سورة الروم، الآية 13). وفي قوله: {وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ}، وتتمّ الإجابة هنا من قِبَل الكائنات المصوّرة على أنّها ملائكةٌ حقيقيّةٌ نتيجة عدم فهم المشركين لهم (سورة سبأ، الآيتان 41-40؛ قارن مع سورة هود، الآيات 28، 29، 16، 86؛ سورة مريم، الآيتان، 82،81؛ وعلى عكس سورة سبأ، الآيتان 40-41، فهذه المقاطع لا تفسّر بصراحةٍ تعريفهم كملائكةٍ، ولكن كما يَلحظ "ولش" تصوّر الآلهة المزوّرة هنا بأنّها موجودةٌ بالفعل ضمن موضع من التّبعيّة لله).[1] أو أنّ الشّركاء ألقوا اللّوم على الوثنيّين أنفسِهم: "وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ»، وسوف يقوم رجال الدّين بالاحتجاج، بينما يتشاجر الوثنيّون فيما بينهم حول تقاسم اللّوم (سورة الصافات، الآية 30). وفي قوله: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (سورة إبراهيم، الآية22؛ قارن مع سورة الحجر، الآية 42؛ سورة الشورى، الآيات 100-98؛ سورة الإسراء، الآية 65؛ سورة سبأ، الآية 32). ومع ذلك تبدو الحتميّة، بإلقاء المسؤوليّة على عاتق المخطئين أنفسِهم.

---

(1) لوحظت من خلال ولش، "الله والكائنات الخارقة الأخرى"، ص. 737-738.

نظرةٌ عامّة

إذا استندنا إلى الأدلّة من القرآن وحده، وجدنا أنّ المشركين كانوا من الموحّدين الذين يعبدون الله نفسَه كما قال الرّسول، ولكنّهم قدّسوا الكائنات الإلهيّة الأدنى، وكانت تُدعى بشكلٍ عشوائيٍّ على أنّها آلهةٌ وملائكةٌ، بما فيها بعضٌ ممّا يُعرف على أنّها الآلهة العربيّة، وربّما أيضاً الشّمس والقمر في بعضٍ من الحالات، وعلى ما يبدو في بعضٍ من الأحيان يتمّ تبجيل شخصيّة أحد الوسطاء، وفي أحيانٍ أخرى يكون العدد أكبر، بما في ذلك الأنثويّة منها. ويوجّهون الصّلاة، والأضاحي، والشّكر إلى الوسطاء مع الله، ولكنّهم غير متّهمين بعبادتهم بدلاً من الله، حتّى إنّهم ينخرطون بممارساتٍ تُعدّ في كثيرٍ من الأحايين متوافقةً تماماً مع التّوحيد! لأنّهم يطلقون تسمية القدّيسين على الكائنات الأدنى، مثل تبجيل صورهم، وإقامة الأضرحة لهم، حتّى يتمكّنوا من الحجّ إليهم، أو اعتناء رجال الدّين بمقدّساتهم. بصرف النّظر عن أنّ إعطاء أسماءٍ عربيّةٍ لبعضٍ من هذه الكائنات، وإنكار مصادر هذه التّسميات من الإنجيل، هي مجرّد مهاترات ضدّ الوثنيّة، حيث إنّ الرّسول لم يقل شيئاً ليشير إلى أنّ المشركين كانوا من الوثنيّين. كما لحظ ابن عبد الوهّاب بصورةٍ صحيحةٍ، كانوا متّهمون بإثمٍ أخفّ مقابل التّوحيد، نسبة إلى أولئك المعاصرين لابن عبد الوهّاب: هم مسلمون لكنّهم مدمنون على حبّ الأولياء في المنطقة العربيّة وبذلك هو يراهم مذنبين.[1]

(1) مجموعة رسائل لابن عبد الوَهّاب: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم العاصميّ، الدّرر السّنيّة في الأجوبة النّجديّة (بيروت، 1982) 2 (كتاب التّوحيد) ص. 19 ومايليها، نوقشت بجانب الإصدارات الأخرى للرسائل، مثل مايكل كوك، «النّصّ الأوّلي لرسائل محمّد بن عبد الوَهّاب» (قيد الإعداد). أشكر مايكل كوك على لفت انتباهي لهذا الأمر.

2- السياق نظريّة الله العليّ

يشير الإسلاميّون كثيرً إلى إله المشركين في القرآن على أنّه "إله عالٍ"، وغالباً ما يكون ذلك في لهجةٍ تشير إلى أنّ هذا التّفسير يسري في كلّ الطّرائق الخاصّة الّتي يَرِدُ ذكرها في الكتاب، ولكن ما هو "الإله العالي"؟.

يبدو المصطلح أنّه استُخدِم أوّلاً ضمن الأطر الإسلاميّة الّتي كتبها "وات" والّذي حدّده في البداية على أنّه إلهٌ متفوّقٌ على الآلهة الأخرى.[1] والمسألة واسعة النّطاق ليتمّ استخدامها، حيثُ يمكن وصف أيّ إلهٍ في الشّرق الأدنى الوثنيّ بالتّفوّق على غيره من قِبَل محبّيه، حتّى لو حلّ مكانةً ثانويّةً في الأعمال الأسطوريّة الباقية؛ وكما قال «نوك» في إشارةٍ إلى الإغريق: يمكن أن يُقال عن الإله الّذي تمّ اختياره للحصول على الإطراء أنّه قد خلق العالم، بما في ذلك الآلهة الأخرى، وأن يكون الإله الحقيقيّ الوحيدَ، أو بالأحرى الإلهَ الّذي لا يمكن مقارنته (المتفوّق)، حتّى لو عُبد بروابط وثيقة مع الآلهة الأخرى.[2] وتحت وطأة العواطف يمكن التّرويج لأيّ إلهٍ ليحلّ مكانة عليا.[3] وباختصار، حتّى لو كان الإله عالياً أم في منزلةٍ أدنى، فهو موجودٌ في عين النّاظر! وأضاف «وات» لاحقاً: أنّ الإله الأعلى بعيدٌ أكثر من بقيّة الآلهة، ولذلك نادراً ما يُعبد بشكلٍ مباشرٍ، و ربط ذلك لاحقاً بالمقاطع القرآنيّة «التّوحيد المؤقّت» (راجع. 1- الدّليل القرآنيّ، رقم.7)؛ وفي الوقت نفسه، طلب «وات» دعماً ليثبت نظريّته من خلال بحث لتيكسايدر الخبير في السّاميّة الّذي افترض وجود توجّهٍ للتّوحيد في نّقوش

---

(1) وات، «الله العلّي في مكّة قبل الإسلام»، ص. 499؛ المصدر ذاته، «الإيمان بالله العلي»، ص. 35.

(2) م. سميث، «اللاّهوت العامّ لمنطقة الشّرق الأدنى القديم»، مجلّة الأدب التّوراتّي، 71 (1952)، ص. 135-147، مع وثائقَ كافيةٍ.

(3) إقتُبِسَ كلام نوك في لودفيغ كوينن، "كيف كانت نظريّة ماني المثنويّة واقِعيّة؟"، في لـ. سيريلو (محرر)، Codex Manichaicus Coloniensis، Cosenza، 1990، ص.32، بترابطٍ مع مشكلةٍ شبيهةٍ في مجموعةِ مخطوطات ماني كولونيا.

الشّرق الأدنى من الحقبة الرّومانيّة والهيلينيّة،[1] وقد لحظ «تيكسايدر» أنّ الإله الموجود بالقرب من الشّرق لم يكن إلهاً عالياً بعيداً (وهو مصطلح لم يستخدمه)، بل على الأصحّ كان إلهاً رئيساً فعّالاً يتحكّم بكلّ الآلهة الأخرى، أو بالفعل قام باختصارهم حتّى أصبحوا ملائكةً بسيطة، وهكذا عُبد بشكلٍ مباشر. و ربط «وات» نتائج «تيكسايدر» مع حقيقة أنّ الوثنيّين في القرآن عدّوا آلهتهم أنّها ملائكة، لكنّه لم يفسّر كيف أنّ هذين المفهومين المتضاربين عدّا كتلةً واحدةً.

أمّا معيار فكرة الإله العالي فهو أنّ الإله البعيد ليس مَحَطَّ عبادةٍ معتادةٍ، وقد رأى الإله نفسه موجوداً في معظم المجتمعات الوثنيّة المتنوّعة، حتّى البسيطة منها، وتراءى بداية في وصف عالم الأنثروبولوجيا (أندرو لانغ) عام 1898.[2] وغالباً ما عُدَّ الإلهَ البعيدَ وأنّه الخالق، لكنّه كما يعرّفه القاموس: «عليٌّ تماماً، ومُبعَدٌ عن العالم الذي خلقهُ هو بالأصل».[3] كان كليّ المعرفة، وكليّ القدرة، والّذي وضع القانون في فوضى الأشياء، لكن لم يكن له كاهنٌ ولا أضرحةٌ ولم يُعبد مباشرةً بشكلٍ معتادٍ، كما يفسّر علماء الأنثروبولوجيا بالإشارة إلى ديانة غرب أفريقيا.[4] وكما قال «نيلسون» في مقالةٍ كلاسيكيّةٍ تدور حول الإله العالي في الدّيانة اليونانيّة:[5] كان «مترفّعاً

(1) وات، «القرآن والإيمان بالله العلّي»، ولاسيّما. ص.327-328، 332-333، مع الإشارة إلى جـ. تيكسايدر، إله الوثنيّين: الديانة الشائعة في الشرق الأدنى الروماني-اليوناني (برينستون، 1977) ص.13 وما يليها.

(2) أندرو لانغ، صناعة الدين (لندن، 1898)، راجع ولاسيّما، الفصل 9، عن «High Gods of Low Races".

(3) موسوعة بريتانيكا، الطّبعة الخامسة عشر (شيكاغو، 5 (c 1987، المدخل. «الإله العلي».

(4) جـ. أوكونيل، «تقهقر الله العلّي في الدّيانة الأفريقيّة الغربيّة: مقالةٌ في التّأويل»، الإنسان، 63\5 (1962)، ص.67-69.

(5) مـ. بـ. نيلسون، «الله الأعلى والشفيع»، نشرة هارفارد اللاهوتية، 56 (1963)، ص. 101. ولمعرفةٍ أفضلَ حول أهمّيّة العبادة، انظر لاري و. هورتادو، «ماذا نقصد

عن البشر ولم يتّصل به أيُّ إنسانٍ».

وكان الله في الوثنيّة مثل هذا الإله، حيث قدّمه فلهاوزن في 1987، بدون استخدام المصطلح" الإله العالي"، وقد استمد إلهامه من الأدب الكلاسيكيّ أكثر من الأنثروبولوجي.

ارتكز «فلهاوزن» في المقام الأوّل على الرّوايات التّاريخيّة المتعلّقة بالجاهليّة (قبل كلّ شيءٍ ابن الكلبيّ) بدلاً من القرآن، وكانت نظريّته تقوم بالأصل على أنّ لكلّ قبيلةٍ في المنطقة العربيّة إلهاً خاصّاً بها، ولكنّ التّجارة، والحجّ، وحركة القبائل قوّضت العلاقة الوثيقة بين البشر والعبادة بشكل متدرّجٍ، ممّا أدّى إلى التّوفيق بين المعتقدات الدّينيّة بمعنى الانصهار بين الأديان القبليّة المختلفة. وظهرت نتيجةً لذلك فكرةٌ جديدةٌ لإلهٍ واحدٍ فوق كلّ الآلهة المحليّة جنباً إلى جنب مع الشّعور المشترَك الجديد، وهو «الجنسيّة» للعديد من القبائل المختلفة الّتي كان النّاس فيها متفرّقين. وكان هذا الإله الجديد والأعلى من بقية الآلهة هو «الله». هنا قدّم فلهاوزن فرضيّته، ولاقت استجابةً سلبيّةً موحّدةً، وكانت سبباً في تجاهل عمله كاملاً لإعادة البناء التّاريخيّ على نحوٍ غير ملائم. وفي الأصل، قال: «إنّ لفظ (الله، الإله)، كان لقباً مثل «السّيّد»، و يمكن إطلاقه على كلّ إلهٍ قبليٍّ؛ ولكن في النّهاية حُجِز هذا الاسم لإلهٍ مجهولٍ فوق جميع الآلهة». وكما قال وات: «رأى «فلهاوزن» أنّ الله نوعٌ من اختصار للآلهة المحليّة».[1] وتصادم هذا «الله، الإله الجديد» قبل كلّ شيءٍ مع الشّؤون القبليّة، وكان له عبادةٌ كما الإله الخالق أو إلهاً من دون عبادة، لأنّ الآلهة المحلّيّة فقط، هي الّتي شكّلت علاقاتٍ تضامنيّةً مع فئاتٍ معيّنةٍ، ولذا كانوا هم فقط من حصد الفضل، ولم يكن أيّ حرمٍ

بالتّوحيد اليهوديّ في القرن الأوّل؟»، Society of Biblical Literature 1993 (Seminar Papers، 32)، ص. 348-368.

(1) وات، «القرآن والإيمان بالله العليّ»، ص. 35، مع قائمة بآخرين كان رد فعلهم رداً سلبياً.

في المنطقة العربيّة يحمل اسم الله، أو مكرساً له كما في نظر «فلهاوزن»؛ على الرّغم من أنّه لحظ وجود بعضٍ من الاستثناءات المحتمَلة.

كان الله (الجديد) لا يزال يقترب بشكلٍ غير مباشر من خلال الآلهة المحلّيّة (القبليّة أو المدنيّة) الّتي وضعها ثمّ نَمَت، ولكنّ الأخيرة لم يكن لها أهميّةٌ تذكر على وجه التقريب، وكان هذا الإله قد حضر ليعبد مباشرةً على أنه الله الواحد وحده، وذلك مع ظهور الإسلام.(1) لقد اقترح «بروكلمان» الّذي يستند في المقام الأوّل على شعر ما قبل الإسلام (الجاهليّ)... نظريّةً مماثلةً، حيث نظر أيضاً إلى الله في الوثنيّة باعتباره ديوس أوتيوسوس (إلهاً متبطّلاً) كما الإله الخالق، ولم يقبل إعادة البناء الّتي اعتمدها «فلهاوزن» لتطوّر هذا الإله (الّتي لم تجد في الحقيقة الاستحسان من أيّ شخصٍ)، لكنّه كان على درايةٍ بالأدب الأنثروبولوجيّ، واقترح على هذا الأساس أنّ الله عند الوثنيّين كان الله الخالق الذي كان دائماً أعلى من أن يقترب مباشرةً، ومغايراً لرؤية فلهاوزن، الإله الجديد إلهِ الكون كلّه بحيث لا موضع له أو عبادةً محدّدةً في مكانٍ واحدٍ معيّنٍ.(2)

كان من الواضح أنّ الله في الوثنيّة ليست له عبادةٌ باعتباره «الإله الخالق» ويقدّم لنا القرآن مفهوماً حول صلاة الوثنيّين إلى الله جنباً إلى جنبٍ مع الآلهة الأدنى، وأنّهم يكرّسون أجزاءً من حصادهم له، ويلفظون اسمه عند ذبح ماشيتهم (عدا بعضٍ من الاستثناءات)، ويُقسمون باسمه؛ بل هم أيضاً حاربوا الرّسول على الحرم، حيث نظر الطّرفان إليه على أنّه ملك لهم (وهي مسألة لم تُفحص هنا).(3)

(1) يوليوس فلهاوزن، Reste arabischen Heidentums، برلين، 1961 (نُشر لأول مرة عام 1887)، ص. 215-24.

(2) بروكلمان، «Allah und die Götzen»، ولاسيّما. ص. 104، 119 وما يليها.

(3) أتمنّى العودة لهذه المسألة في مقالةٍ لاحقةٍ.

كان لفرضيّة فلهاوزن مع ذلك ميزتان عظيمتان: فهي تثبت ظهور الله في الوثنيّة ضمن تطوّرٍ تاريخيٍّ، وتعرضُ للحقيقة وجود وعيٍ قويٍّ في أنّ الآلهة الوثنيّة كانت مجرّد وسطاء. ومن أجل العمل بنظريّته إلى حدٍّ أبعد، فنحن بحاجةٍ للوصول إلى مصدر إلهامه الّذي لم يميّزه وراء تكرار متباينٍ مع إسرائيل القديمة، في حين أنّها متعلقة بثقافة العصور الكلاسيكيّة القديمة (الّتي نالت حيّزاً كبيراً من اهتمامات تيكسايدر أيضاً).[1] وإنّ الذي يبيّنه فلهاوزن في المنطقة العربيّة قبل الإسلام، هو التّنوّع في الفكرة اليونانيّة الشّهيرة الّتي تنص على أنّ جميع الآلهة المعروفة تجتمع في جوهرٍ واحدٍ مشترّكٍ إلهيٍّ، أو في صياغةٍ مختلفةٍ، وكانت كلّ الآلهة ذات الدّرجة الثّانية تظهر بشكلٍ مفردٍ، وغالباً غير معلوم، «الله العليّ».[2]

يبدو أنّ الفكرة كانت رائدة لدى الرّواقيّين الأوائِل، حيث تقول ترنيمة شّهيرة لكليانثس (المتوفّى عام 232 ق.م)[3]: «الله واحدٌ لكنّ له أسماءً عديدةً، مُسَمّى بناءً على الظّروف المختلفة الّتي كان هو نفسُه يصنعها»، وعَبر عنها الرّواقيّون لاحقاً: "الله واحد والشيء نفسه مع البرهان، والمصير، وزيوس؛ ويُسمّى أيضاً بأسماءٍ أخرى عديدةٍ».[4]

---

(1) يقرأ تيكسايدر موجزاً من إعداده عن «بلاد مابين النهرين - السريانيّة" في ضوء الأدباء مثل بلوتارخ و سلسيوس (راجع له، إله الوثنيّين، ص.15 وما يليها).

(2) كلا الصّيغتين في هورتادو، «التّوحيد اليهوديّ في القرن الأوّل»، ص. 356-357، وقارن مع فلهاوزن، Reste، ص.219، عندما يفضّل العرب اسم الجِنْس "الله" على اسم جَمْعيّ مثل hoi theoi أو dii.

(3) نيلسون، "الله العلي"، ص.102؛ قارن أيضاً، " الله واحد والشيء نفسه مع البرهان، والمصير، وزيوس؛ ويُسمّى أيضاً بأسماءٍ أخرى عديدةٍ"، الرّواقيّة في ديوجانس اللايرتيّ، سِيَر مشاهير الفلاسفة، تحرير وترجمة روبرت د. هيكس (كامبريدج، ماساتشوستس- لندن، 1925)، 7، ص. 135، عن الفيلسوف اليونانيّ زينون الرواقيّ.

(4) في ديوجانس، المرجع السّابق، 5، ص. 135

لقد اكتسبت هذه الفكرة شعبيّةً كبيرةً، و وفقاً لديو خريسوستوم (المتوفّى بعد عام 112 م): كان «أبولو، هيليوس وديونيسيوس الشيء ذاته، وهناك العديد من الّذين يختصرون جميع الآلهة تماماً لتصبح قوّةً واحدةً». و»لا يوجد فرقٌ إذا كنّا ندعو زيوس بالعليّ، أو زن، أو أدوناي، أو أصباؤوت، أو أمون مثل المصريّين، أو بابيوس مثل السّيثيّين» (الأفلاطونيّ سلسيوس المتوفّى - نَحْوَ عام 180.م)، بما في ذلك أيضاً الآلهة غير اليونانيّة بين العديد.[1] كما يدعو لوسيوس في «رواية الحمار الذهبي» من أبوليوس (القرن الميلاديّ الثّاني): «يا ملكة السّماء، سواءٌ كنتِ سيريس... فينوس،... شقيقة فويبوس (ديانا) ... برسيربينا ... أيّاً كان اسمُكِ، موجودٌ مع كلّ طقسٍ دينيٍّ، في أيّة صورةٍ أتوسّلُ لاستدعائكِ، دافعي عنّي الآن».[2] وفي الشّمال الإفريقيّ المحتمل (و ربّما المسيحيّ) نجد ماكروبيوس الأفلاطونيّ الجديد (المتوفّى عام 423 م)، حيثُ ربط بين الآلهة اليونانيّة بتكامل مع الإضافة المصريّة، ذلك ليبيّن أنّ كلّ إلهٍ ما هو إلّا تمثيلٌ جزئيٌّ عن إلهٍ شّمسيٍّ واحدٍ عظيمٍ.[3]

خلافاً لطبيعة الله العليّ نسبة إلى الأنثروبولوجيا، فإن المقابل له والذي نجده في النصوص الأدبية اليونانية، يعبر عن نتيجة المحاولات الفلسفية الهادفة إلى فرض القانون على العالم الإلهي، لكنه أيضاً وعلى الأرجح كان إلهاً خالقاً (ديوس أوتيوسوس).

على الرّغم من أنّه يُعرف باسمه غالباً، والّذي عادةً ما يكون «زيوس»

(1) أوريجانوس، Contra Celsum، مترجم. هـ. تشادويك (كامبريدج، 1953V، ص.41؛ راجع، الأوّل، ص.24.24.

(2) أبوليوس، التحويلات، تحرير وترجمة. جـ. أ. هانسون (كامبريدج، ماساتشوستس- لندن، 1989)، 9، ص.2.

(3) ماكروبيوس، Saturnalia، أوكسفورد(؟)، 1959، الكتاب الأوّل؛ راجع إروين رامزديل غودينو، الرُّموز اليهوديّة في العصر اليونانيّ-الرومانيّ (نيويورك، كتب البانثيون، (1953، 2، ص.252.

أو «جوبيتر» فقد كان من الشّائع بقاؤه مجهول الاسم، ولا أضحياتٌ ولا صلاةٌ ينبغي أن توجّه له، أو ذلك على الأقلّ وفقاً للفلاسفة.[1]

أمّا في المستوى الشّعبيّ، فقد تمّ استدعاؤه بالتّأكيد، ولاسيّما عند السّحرة؛ وكان أيضاً محوراً للعبادة في أواخر العصور القديمة، وذلك تحت اسم «زيوس ـ هيبسيستوس» أو ببساطة هيبسيستوس «العليّ». ولكن حتّى على هذا المستوى، فإنّ العبادة تبدو من خلال ـ أو جنباً إلى جنب مع ـ الآلهة الّذين كانوا مظاهر له، أو القوى الّتي اقتربت منه كثيراً، كما اعتقد فلهاوزن من أنّ الله قد اقترب من خلال الآلهة القبليّة في المنطقة العربيّة قبل الإسلام[2].

وعلى الرّغم من المدّة الطّويلة الّتي يمكن للفكرة أن تُراقَب، فليس هناك اتّجاه في الإمبراطوريَة اليونانيَة - الرّومانيّة، نحو ظهورِ إله أعلى منفصلٍ عن آلهة الدّرجة الثّانية الّتي تتجلّى بذاته، في حين أنّه لا يزال غيرَ متسامح معهم، إلّا عندما تطابق مع إله اليهود!. ويمكن لذلك بطبيعة الحال، ألّا يوجد شكٌّ في تحديد نطاقٍ واسعٍ من الآلهة المحلّيّة والخارجيّة (هي عمليّةٌ معروفةٌ مسبّقاً باسم التّوفيقيّة) والأهمّيّةِ المتزايدةِ ليشهد المرء تحوّلاً جذريّاً في الوثنيّة في الشّرقين المتوسط والأدنى، وذلك للأسباب ذاتها الّتي ينسبها فلهاوزن إلى المنطقة العربيّة، وهي: زيادةُ التّواصل بين الشّعوب المنفصلة والمستقلّة سياسيّاً حتّى الآن، وكذا الموحّدون الوثنيّون، الّذين تعايشوا مع الجميع بدلاً من التّنافس.

إنّ التّوحيد المستمدّ من المحتوى التّوراتيّ، يتطلّب الكثير لكي يتّضح أنّه غير منطقيٍّ، حيث تخيّل فلهاوزن التّطوّرات الّتي افترضها عن المنطقة العربيّة بكونها موازيةً لتلك الموجودة في العالم اليونانيّ-الرّومانيّ، وليس

(1) نيلسون، "الله العليّ"، ص. 110-115،111.

(2) راجع أدناه، النّقش المشهور أوينوندا، الملحوظة 85.

كجزءٍ منها، وبالنّسبة له، كانت المنطقة العربيّة عالماً بعيداً، أقربَ إلى إسرائيلَ القديمةِ من عالم الشّرق الأدنى الأكثر قرباً إلى عتباتها. وإلى جانب ذلك، فقد تخيّل يقيناً المعركة ضدّ الوثنيّة اليونانيّة - الرّومانيّة، الّتي امتدّت طويلاً حتّى ظهور الإسلام.

إنّ فكرته المتكوّنة مسبّقاً كانت معقولةً تماماً في عام 1887، وذلك عندما نشر عمله «Reste". ومنذ ذلك الوقت وحتّى، فإنّ التّوسع الهائل للمِنَحِ الدّراسيّة عن الوثنيّين والمسيحيّين وأواخر العصور القديمة بشكلٍ عامٍّ، قلب هذه الفِكَرَ المسبّقة رأساً على عقبٍ!. وأيّاً ما كان الّذي حدث في المنطقة العربيّة فسوف يكون جزءاً لا يتجزّأ من التّطوّرات الّتي تؤثّر على الشّرق الأدنى ككلٍّ.

أبناء / بنات الله والملائكة

أحد التطوّرات الّتي لها صلةٌ بالمسألة، منذ العصور الهلنستيّة وصعوداً بالزّمن، تحديد الهويّة في دعوة الكائنات السّماويّة بـ "أبناء" و"بنات الله" مع "الملائكة". كان "ابن الله" في الشّرق الأدنى القديم كائناً سماويّاً كوّن جزءاً من حاشيّة إلهيّة: وسيط إلهيّ إذا جاز التّعبير. ونقابل مثل هؤلاء الوسطاء أو الحاشية الإلهيّة في العهد القديم، حيثُ ترؤّس الله على مجلس منهم، كما في قوله: {وَكَانَ ذَاتَ يَوْم أَنَّهُ جَاءَ بَنُو اللهِ لِيَمْثُلُوا أَمَامَ الرَّبِّ، وَجَاءَ الشَّيْطَانُ أَيْضًا فِي وَسْطِهِمْ} (سفر أيوب 1، 6؛ راجع أيضاً 2، 1؛ 38، 7 وغيرها)، وحيثُ أن بعضهم عصى أوامره على نحو معروف من خلال التزاوج مع بناتِ النّاس على وجه الأرض، كما في قوله: {أَنَّ أَبْنَاءَ اللهِ رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا، كَانَ فِي الأَرْضِ طُغَاةٌ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. وَبَعْدَ ذلِكَ أَيْضًا إِذْ دَخَلَ بَنُو اللهِ عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوَلَدْنَ لَهُمْ أَوْلاَدًا، هؤُلاَءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ ذَوُو اسْمٍ} (سفر

التكوين 6: 2، 4). لم يكونوا مصورين على أنّهم أبناء الله - بالمعنى الحرفيّ للكلمة - وذلك لا ينفي أنّ الآلهة الأخرى لا تصوّر هكذا؛ وتعرب مجرّد بنوتهم عن أنّهم كانوا من طبيعة الله ذاتها، وتابعين له.

حتى البشر (الملوك غالباً) كانوا يُلقَّبون أحياناً في الكتاب المقدّس بـ "أبناء الله" وكذلك في جنوب المنطقة العربيّة، حيث كان التّعبير مستخدماً أيضاً في عبادة النّاس للإله ضمن المسألة نفسها: كان الصّابئة أبناء الإله "علقمة" والقتبانيون أبناء عمم.(1)

ومع حلول الحقبة الهلنستيّة أصبح اليهود يدركون أبناء الله في الكتاب المقدّس باعتبارهم ملائكة، كما يُلحَظ من بين أمورّ أخرى في ترجمتهم للمصطلحات ضمن التّرجمة السّبعينيّة؛ ولم تكن الملائكة بالنّسبة لهم (أو لم تَعُد) آلهةً إلّا إذا كان التّجسيد من الصّفات الإلهيّة، مثل حكمة الله، أو كلمة الله: تحدّث «فيلو» (المتوفّى عام 50.م) على نحوٍ معروف عن كلمة الله كما الملاك الرّئيس عند الله، ابن الله، أو الله الثّاني على حدٍّ سواءٍ.(2) وفي النّقوش الوثنيّة أيضاً، ووفقاً لـ «تيكسايدر»، فإنّ المجالس الإلهيّة أفسحت المجال «للملائكة المقدّسة» في الوقت نفسه(3)، ويرى في ذلك على أنّه كشفٌ عن وجود اتّجاهٍ نحو التّوحيد، بينما ليس واضحاً ما إذا رأى الوثنيّون أنّ الملائكةَ

(1) بـ. لانغ، Monotheism and the Prophetic Minority: مقالة في التّاريخ التّوراتيّ وعلم الاجتماع (شيفيلد، مطبعة ألموند، 1983)، ص.21، 58؛ سـ. جـ. روبين، "Les ‘filles de dieu’ de Saba’ à la Mecque: Les ‘filles de dieu’ de Saba’ à la Mecque، Semitica، 50 (2001)، ص.123؛ ر. هولاند، العرب والمنطقة العربيّة (لندن- نيويورك، روتليدج، 2001)، ص.140.

(2) فيلو، "من هو الوارث للمخلوقات الإلهيّة" من هو بطل الكيانات الإلهيّة، ص.205، أسئلة وأجوبة في سفر التكوين، 2، ص.62 (الإله الثّاني)؛ On Husbandry، ص.51 (الإبن البِكر).

(3) تيكسايدر، إله الوثنيّين، ص.14.

غيرَ ظاهرٍ في النّقوش، سواءٌ في جنوب المنطقة العربيّة أو حتّى في الشّمال؟.

ونجد في المنطقة العربيّة «بنات الله» أو بتعبيرٍ أدقّ بنات الإله إيل، حيثُ تظهر في عشر كلماتٍ شائعةٍ في النّقوش العربيّة الجنوبيّة، وربّما يعود تاريخها إلى عام 600 قبل الميلاد، والباقي للقرن الأوّل أو الثّاني الميلاديّ،[1] حيث تمّ وصفهم على أنّهم الفتيات المخصّصات لخدمة المعبد، كمرادفٍ لكلمة «ṣlmt" (تماثيل الإناث)، على أنّها ترجمة ركيكة لمعنى مصطلح "هديّةٌ من الله"[2]، أو على أنّهنّ الآلِهة الّتي تُقدّم لها القرابين.[3].

ويشير العرض الحالي إلى أن بنت الإله كانت الإلهة الثّانوية للطبيعة غير المتمايزة نفسها، كما الملائكة والشّياطين، وهناك الكثير جداً لما يمكن للمرء أن يتوقّعه.[4]

وتظهر بنات الله أيضاً في اللّفظ النّبطيّ (100 ق.م) وذلك في مناشدةِ ثلاثِ بناتٍ لإيل، وابنٍ واحدٍ أو ابنةٍ لشمش؛ وابنةٌ واحدةٌ من بنات إيل،

(1) روبن، «Filles de Dieu"، ص. 119-120.

(2) أ. جام، «بعض النقوش القتبانيّة المكرسة «لبنات الله»، نشرة الجمعيّة الأمريكيّة للأبحاث الشرقيّة، 138 (1955)، ص. 39-47. و. و. مولر: «Die angeblichen 'Töchter Gottes' im Licht einer neuen Qatabānischen Inschrift"، في ر. ديجين، و. مولر، و. رولينغ، Neues Ephemeris für Semitische Epigraphik، 2 (1974)، ص. 145-8؛ كذلك نُوقش في جـ. ريكمانز، "Uzzā and Lāt dans les inscriptions sud arabes: à propos de deux amulettes méconnues"، مجلّة الدراسات الساميّة، 25 (1980)، ص. 197.

(3) يستشهد روبن، «Filles de Dieu"، ص. 117 وما يليها، في أ. جـ. لوندين، "'Dočeri Boga' v južnoarabskih nadpisjah i v Korane"، Vestnik Drevnej Istorii، 132/2 (1975)، ص. 124-31.

(4) روبن، «Filles de dieu"، ص. 138، راجع المصدر ذاته "À propos des 'filles de dieu"، Semitica، 52-53 (2002-2007)، ص. 139-48، لاسيّما 141 (تشير على نحوٍ غيرِ مُريح إلى الرأي القائل بأنّهنّ كنّ فتياتٍ مكرّساتٍ لخدمة المعبد).

أكثر خضوعاً لله من أبناء الله الّتي حلّت محلّه؛ ما هو التّغير في الصّوغ، والّذي يبدو عاكساً لمفهومٍ جديدٍ لتبدو هذه الكائنات الثّانويّة على أنّها رسلٌ؟.

لقد توقّف اليهودُ والنّصارى في نهاية المطاف في التّعبير عن العلاقة بين الله والملائكة من حيث النّسب، ولكنّ بعضاً آخرَ استمرّ فيه. كانت الآلهة والملائكة معروفةً على حدٍّ سواءٍ باسم «أبناء الله» في المانويّة والبارثيّة والسّوغيديّة[1]؛ وأشار الغنوصيّون الآخرون إلى الكائن الإلهيّ الّذي يكشف الله غير المنظور على أنّه ابنه[2]؛ وتحدّث الزّرادشتيّون عن النّار على أنّها ابن "أهورا مَزدا"[3] وأشاروا إلى الحريق والنّجوم على أنّها أطفاله.[4] وبالنّظر إلى أنّ ثقافة الشّرق الأدنى القديم استمرّت في المنطقة العربيّة من دون انقطاعٍ، وتأثّرت بالغزو الفارسيّ واليونانيّ على باقي الشّرق الأدنى... فقد استطاعَ الوثنيّون العرب أن يواصلوا الحديث عن الآلهة التّابعة كأبناء الله، ولكن إذا كانوا قد فعلوا ذلك فهناك سؤالٌ آخر: هل لا يزال التّعبير

---

(1) هـ. هومبش، «Herrscher Gott und Gottessohn in Iran und in angrenzenden Ländern"، في د. زيلر (محرر)، Menschenwerdung Gottes- Vergöttlichung von Menschen، Freiburg-Göttingen، 1988، ص. 105-106؛ ديزموند دوركين مايستررينست، قاموس المانَويَّة الفارثيّة و الفارسيّة الوسطى (= قاموس النّصوص المانَويَّة، 3، تحرير. نـ. سيمز- ويليامز، الفصل 1)، بريبلوس، 2004، المدخل. «bgpwhr".

(2) جـ. سترومزا، "شكل (أشكال) الله: ملحوظات عن ميتاترون والمسيح"، نشرة هارفارد اللاهوتيّة، 76 (1983)، ص. 275-276.

(3) تعليق المترجِم: أهورامَزدا هو الإله الأوحد الّذي يمثل الخير عند الزراداشتيين والّذي يخالفه دائماً إله الشر أهريمان.

(4) يسنا 1.12، 11.1، 17.11، 25.7، 62 إلى آخره (التّعبير شائعٌ)؛ جـ. هوفمان، Aufzüge aus syrischen Akten persischer Märtyrer، لايبزيغ، 1880، ص. 53 (كذلك هنا الماء)؛ ثيودور نولدكه، "Syrische Polemik gegen die persische Religion"، تكريماً لرودولف فون روث (شتوتغارت، 1893)، ص. 37، نقلاً عن بـ. بيدجان (محرر)، Acta Martyrum et Sanctorum، (باريس-لايبزيغ، 1890-1897)، 2، ص. 592.

تُعرّفن بتماثيل الإناث أو الأصنام، ويُفترض أنها تشير إلى تمثيلِ ما صنعه السّاحر بها،[1] كما إنّه يعطيهم أسماءً غريبةً مثل: تنشر، وتبشر، وعسس، وحرجول، وشباتبتا. ولا يكون لأبناء وبنات الله عادةً أسماءٌ أكثر من الملائكة، وبطبيعة الحال هناك بعضٌ من الاستثناءات بين الملائكة، على الأقل في اليهوديّة،[2] ولكنّ الأسماء الغريبة الّتي نواجهها هنا، تبدو كما لو أنّها قدّمت من السّاحر لأغراض التّضرّع (كما هو الحال في العديد من الأسماء الملائكيّة في السّحر اليهوديّ أيضاً).

بنات الله مجهولون أيضاً في النّقوش التّدمريّة لعام 63م. وهي تكرّس المذابح لأورسا، قيس مايا وبنات الله (إيل)، الآلهة الجيدة ولحياة والده، والأطفال، والإخوة، ونفسه: هنا بنات الله هي كائناتنا الثّانويّة المألوفة، والمتميّزة من تسميتها الإلهيّة.[3] ونجد أيضاً التّعبير كاسمٌ إلهيٌّ في تدمر، في شكل «ابنة بعل»؛[4] مع أنّه مشابهٌ لاسم الإلهة (بودوخت) «ابنة الله» وذلك في بلاد ما بين النهرين السّاسانيّة.[5] إضافةً إلى ذلك، يتحدّث «فيلو» عن

---

(1) جـ. نافيه، " نصّ الرّقية النّبطيّ»، مجلّة استكشاف إسرائيل، 29(1979)، ص.111-199.

(2) ملاكبئل هو اسم الملاك الوحيد المُسمّى وفقاً لتيكسايدر، «ملاك بعل» (الله في الوثنيّة ص.14-15)، وقد كان ملاكاً مستقلّاً، راجع جـ. تـ. ميليك في جـ. دينتزر- فيدي، وجـ. مـ. دينتزر، وبـ. مـ. بلاك (محررون)، حوران 2، 1، بيروت، 2003، ص. 269، 272، 273.

(3) خالد أسعد و جـ. تيكسايدر،"Un culte préislamique à Palmyre d'après une inscription inédite "، Académie des Inscriptions et Belles-Lettres ، 1985، ص.286-293.

(4) جـ. ستاركي، «Inscriptions archaïques de Palmyre"، Studi Orientalistici in onore di Giorgio Levi della Vida، روما، 2،1956 ، ص.512-513.

(5) هوفمان، Auszuge ، ص.128 وما يليها.

تجسيد الحكمة (صوفيا)، على أنها ابنة الله،[1] ومصطلح «ابنة الله» يُستخدم أيضاً في السوقديانيّة المانويّة للإشارة إلى ضوء الفتاة البتول، أي الانبثاق الإلهيّ.[2] ولكن يبدو أنه لم يظهر أي مثال يساوي بنات الله مع الملائكة.

أمّا القرآن فإنّه لا يملك في الواقع تعبير "ابنة الله"، ولكنّه بالتّأكيد يقرّ باستخدام المشركين له، و ذلك عندما يسألهم مخاطباً ما إذا كان ينبغي أن يكون عند الله بناتٌ / إناثٌ، وهم أنفسهم عندهم أبناء، كما في قوله: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا} (سورة الإسراء، الآية 40؛ راجع أيضاً سورة الصافات، الآيتان 149، 153؛ سورة الزخرف، 16؛ سورة الطور، 39)، أو عندما يتّهم الرّسول معارضيه بإعطاء بنات إلى الله، كما في قوله: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ} (سورة النحل، الآية 57). ويُفهم بوضوح تبعيّة الكائنات من الجوهر نفسه كما هو الله، ولكن لا أحد غيرُ مّسمّى؛ وفي الحقيقة، يبدو بِيُسْرٍ أنّ مصطلح "ابنة الله" هو الشّكل المؤنّث من "الإله"، ولا توجد أيّة وسيلةٍ أخرى للقول: إنّهم "آلِهة". وبالتّأكيد لا تعني العبارة "ابنة" بالمعنى الحرفيّ، ووُضعت الإشارة مرّاتٍ عدّةً من قبل[3]، وليس آخرها ما لحظه الجاحظ، في قوله: «أن العرب حين زعمت أن الملائكة بنات الله كيف استعظم الله تعالى ذلك وأكبره ... وإن كان يعلم أن العرب لم تجعل الملائكة

(1) فيلو، De Fuga et Inventione، ص.52. يستخدم بوزفيري التعبير للإشارة المجازية إلى الرّوح (في بيير كورسيل، الحجج الناهضة للمسيحيّة والأفلاطونيّة المسيحيّة: من أرنوبيوس حتّى القدّيس أمبروزيوس»، في أ. موميجليانو (محرر)، الصّراع بين الوثنيّة والمسيحيّة في القرن الرّابع (أكسفورد، 1963، ص.156).

(2) هومباش، "Herrscher Gott und Gottessohn"، ص. 106n.

(3) انظر كمثالٍ في إيشلر، Dschinn، Teufel und Engel، ص.98؛ فلهاوزن، "Reste"، ص.24. وجد روبن أنّه من غير الممكن التّأكّد من الموادّ العربيّة الجنوبيّة ("Filles de Dieu"، ص.122-123)، لكنّه يتحدث في ص.138 عن البنات على أنهنّ انبثاقٌ عن أيل.

بناته على الولادة» على الرّغم من أنّهم لم يقصدوا المعنى الحرفيّ،[1] وهو على حقٍّ بكلّ تأكيد، حيث يفضّل الرّسول أن يأخذ التّعبير حرفيّاً، ربّما في جزء منه، لأنّ المسيحيّين فهموا المسيح على أنّه من نسل الله بالمعنى الحرفيّ، لكن لا شكّ أيضاً في أنّه تبنّى السّخرية من المفهوم.

التّوجّه التّوحيديّ

كما لُحِظَ بالفعل، فقد ميّز "تيكسايدر" اتّجاه التّوحيد في وثنيّة الشّرق الأدنى في أوقات الهلنستيّة، فهل كان محقّاً أم لا؟ حيث لم تنطو تلك الوثنيّة على تخفيض درجة الآلهة المستقلّة مسبّقاً، وإنّ أبناء الله والملائكة الذين حلّوا محلّ الدّرجة الثّانية، تساووا على حدٍّ سواءٍ، وكانوا عادةً كائناتٍ مجهولةً؛ ولم يحمل الملائكة الّذين برزوا على السّاحة أسماء الكائنات الّتي عُبدت مسبّقاً على أنها آلهة في حد ذاتها،[2] وهذا هو ما تغيّر في أواخر العصور القديمة.

لقد لحق الرومان بالتّوحيد اليونانيّ لحوض البحر الأبيض المتوسّط، والشّرق الأدنى، وذلك في إطار الاتّحاد المتمتّع بحريّة المدن على أساس الولايات، لتحلّ محلّها تدريجيّاً إمبراطوريّةٌ مركزيّةٌ. وبإحكام أكثر، تمّ دمج الإمبراطوريّة الرّومانيّة، حيث أصبح النّاس أكثر وعياً للتّنوّع الدّينيّ، والتّقاليد الثّقافيّة الّتي طوّقتهم، وكانت الصّعوبة في محاولتهم لنشر مفهوم الفرد فوق نظام الوثنيّة والمسيحيّة، والأشكال الإنجيليّة الأخرى، المُستمدّةِ من التّوحيد، الّتي ازدهرت جميعها كنتيجةٍ؛ وجاء الوثنيّون من الإمبراطوريّة الإغريقيّة - الرّومانيّة على نحوٍ متزايدٍ لرؤية آلهتهم التقليديّة

---

(1) الجاحظ، «الرّدّ على النّصارى»، في رسائل، تحقيق وشرح عبد السلام محمّد هرون (القاهرة، 1964-1979)، 3 ص. 333 (لم تجعل الملائكة بناته على الولادة واتخاذ الصاحبة).

(2) إنّ ملائكة الوثنيّين "الإخوة / الملائكة المقدّسة" الّتي قدمها تيكسايدر مجهولةٌ كلّها، باستثناء ملاكبئل، الّذي كان في الحقيقة إلهاً (راجع أعلاه، ملحوظة 62).

والملائكة الّتي كانت تعني مظاهرَ الإله الواحد التّوحيديّة على غرار رائدة الرّواقيّين: «إنّ العقيدة الواحدة الّتي تقوم عليها جميع دول العالم متّحدةً، هي عقيدة الله الواحد، وهو ملكُ الكل، و الآب، وإنّ هناك العديد من الآلهة، أبناء الله، الّذين يحكمون جنباً إلى جنبٍ مع الله تعالى». وكما قال الفيلسوف مكسيموس تيريوس (150 م.): إنّ أبناء الله هنا، والآلهة كلّها، تُعبَد في ذلك الوقت.[1] وكما يصرح نقش شهير (أونوندا) من القرن الثّالث: "وُلِدَت بذاتها، مجهولةً من دون أمّ، لا تتزعزع، لم تَرِدْ في اسمِ معروفٍ من قَبْلُ، العديد من الأسماء تسكن في النّار، هذا هو الله. نحن، ملائكته، جزءٌ صغيرٌ من الله».[2] والمتكلّم هو «أبولو» إلهٌ مستقلٌّ مسبّقاً، الّذي يحدّد هنا نفسه كملاكٍ وجزءٍ من الله، ونجد الآلهة الوثنيّة نيريغ وسين (اسم إله القمر في بلاد بابل وآشور) وشمش وبعل، والإلهة ناني، تظهر معاً كما الملائكة المقدّسة في طاسٍ سحريّةٍ آراميّةٍ- ربّما وثنيّ- في العراق.[3] في حين يبدو الإله الأعلى مسبّقاً (بعلشمين) كما الملاك (بعل سموس)[4] في مجموعة مخطوطات - ماني كولونيا. ومثل الملائكة عند اليهود والمسيحيّين، والآلهةِ التّابعةِ للوثنيّين، يتصرّف كلٌّ منهم على أنّه شفيعٌ للإنسان عند الله ووسيط بينهما.

---

(1) الخطب، 5، 11 (ترجمة. مـ. بـ. تراب، أوكسفورد، 1997، لكنّ التّرجمة المقدّمة هنا لتشادويك، Contra Celsum، 17)، وبالمثل 39، 55. راجع أيضاً ر. مكمولين، الوثنية في الإمبراطورية الرومانية (نيو هافن-لندن، مطبعة جامعة يال، 1981)، ص. 88.

(2) سـ. ميتشيل، «عبادة ثيوس هيبستوس بين الوثنيّين واليهود والمسيحيّين»، في مـ. فريد وبـ. أثاناسيادي، التوحيد الوثنيّ في العصور القديمة المتأخرة (أكسفورد، 1999)، ص. 86.

(3) جـ. أ. مونتغومري، نصوص الرّقية الآراميّة من نيبور (فيلادلفيا، 1913) رقم 36.

(4) CMC 49 في يـ. غاردنر وسـ. نـ. سـ. ليو، (ترجمة)، النّصوص المانويّة من الإمبراطوريّة الرّومانيّة (كامبريدج، 2004)، ص. 54.

يوجد مثالٌ عربيٌّ على ذلك في نقش سبأ من مصدرٍ غير مؤكّدٍ في تكريس أبٍ وابنِه تمثالاً لإله ينصرونه لطلب مساعدة الأب مع الإله عطر، الّذي شفاه من مرضٍ يصيب العين، وقد عانى منه لخمس سنين.[1] ويُفترض أنّ الإله الأعلى، قد تلقّى الفضل في تفانٍ منفصلٍ. ولدينا هنا وضعٌ مشابهٌ للحالة الّتي يهاجم فيها الرّسول الوثنيّين لأنّهم يشكرون الآلهة الأدنى جنباً إلى جنبٍ مع إله أعلى، على الرّغم من أنّ الأخير «طلب» هو من قدّم العلاج. وزِدْ على ذلك، فقد كان الإله (الرّاعي ـ šym) من مجموعةٍ قَبليّةٍ، في حين أنّ (عطر) كان يُعبد من عرب الجنوب جميعهم،[2] فإذاً إنّنا قريبون من فكرة «فلهاوزن» عن الله، عندما خَفّض درجة الآلهة القبليّة إلى درجة الوسطاء. ومن المستحيل القول سواء كف (طلب) عن كونه إلهاً في حد ذاته، لكنّه لم يتعرّف عليه كملاكٍ، أو كابنٍ لعطر أو آيل؛ ويمكن أن يكون قد قام بدور الإله مستقلّ بذاته أيضاً، كما يفعل في نّقوش أخرى.[3]

وعلى الجانب اليوناني، لحق بلوتارخ (المُتوفّى بعد 120.م) بأفلاطون، فميّز بين الله والآلهة الثانويّة والشّياطين، واعتمد على الشّياطين بدلاً من

---

(1) Corpus d'Inscriptions et Antiquités Sud-Arabes II (Musée d'Aden).

(نقوش)، لوفين، 1986، ص. 189-91، مقتبسة في هويلاند، المنطقة العربيّة والعرب، ص. 140. أقدم شكري لميشيل ماكدونالد على المساعدة في هذا النقش.

(2) راجع روبن، «Filles de dieu» ص. 128، 130.

(3) يلحظ بيستون النظير (1/ ، Corpus الثاني، ص. 190)، يستشهد بالآيات الشّيطانيّة، والّتي يبدو أنّها غالباً ما يُنظر إليها على أنّها المقطع الوحيد الّذي تظهر فيه الآلهة الأدنى كشفعاء في القرآن. لكنّ الآلهة الإغريقيّة تتشابه في الشّفاعة مع زيوس لحمايتهم، كما لحِظ أيضاً، على الرغم من أنها آلهة مستقلة في حد ذاتها. بالنّسبة إلى تألب في عمله كإلهٌ قبليٌّ، انظر مثلاً أ. فـ. لـ. بيستون، «نصوص تألب ربُّ المراعي»، نشرة مدرسة المشرق والدّراسات الأفريقيّة، 17 (1955)، ص.154-6 (لفت انتباهي لها ميشيل ماكدونلد).

الآلهة الثانويّة في نقل صلوات والتماسات البشر،[1] وبالاتفاق مع أفلاطون، فإنّه ومكسيموس تيريوس عدّوا أنّ الواحد الله العليّ، الخالق والحاكم، ومصدرَ كلّ الخير، لا يمكن أن يأتي في علاقةٍ مباشرةٍ مع العالم المادّي، وبالتالي الشر، وكما يشرح مكسيموس: «لذلك يحتاج للشّياطين، ككائناتٍ خالدةٍ تعيش بين السّماء والأرض، وتكون وسطاء بين الضّعف البشريّ والسّلطة الإلهيّة المطلقة».[2]

يقول المسيحيّ اللّاتينيّ أمبروسياستر (380.م): إنّه إذا سأل أحدُهم وثنيّاً كيف يمكنه أن يعبد مجموعةً كبيرةً من الآلهة؟ فلربّما يردّ بالقول: إنّهم كانوا مثل كبار الشّخصيّات الّتي تتوسط لصالحهم مع الملك.[3] وفي مجادلاتٍ مع مسيحيّين، زعم الزّرادشتيّون بطريقةٍ مماثلةٍ أنّهم يعبدون الله الواحد، وتكون الآلهة الأخرى جميعها مجرّد "رجالِ الملك العظماء".[4]

لقد كان الموحّدون الوثنيّون في زمن "أمبروسياستر" لمدّةٍ طويلةٍ في تنافسٍ مع المسيحيّين الّذين هاجموهم بلا هوادةٍ، وذلك لتمسّكهم بآلهتهم. وبما أنّ الوثنيّين كانوا سعداء في الإشارة إلى هذه الآلهة بالملائكة، ورأى كلا الجانبين الملائكة بمقام الشّفعاء، فلا يمكن للوثنيّين (أو ربّما التظاهر بعدم فهم سبب جعل المسيحيّين لهذه القضيّة مسألةً مهمّةً. كما قال فيلسوف الأفلاطونيّة، ربّما بَرفوريوس الصُّوري (نحو 234 - 305 م): "لماذا نتنازع حول الاسم»؟ سأل المسيحيّين: حتّى لو خاطب أحدهم الكائنات الإلهيّة

(1) بلوتارخُس، «ايزيس و عُزير»، ص.26، و «عن القدر»، ص. 9 (Moralia، 5، ص. 387؛ 8، ص. 343-344، في إصدار لوب، ترجمة. فـ. ســ. بابيت،بـ. هـ. دو لاسي و بـ. إينارسون (كامبريدج، ماساتشوستس- لندن، 1936، 1959).

(2) ماكسيموس، Dissertationes (ترجمة. تـ. تيلر، 1944) 14، ص.8.

(3) فرانز كومونت، «La polémique de l'Ambrosiaster contre les païens "، Revue d'Histoire et de Littérature Religieuse ، 8 1903، ص.426-427.

(4) هوفمان،Aufzuge ، ص.426-427.

على أنها آلهة أو ملائكة، فإنّ الفارق ضئيلٌ جدّاً، لأنّ طبيعتها هي ذاتها، وغير مختلفة![5] كما أشار يوليان المرتدّ (المتوفّى عام 363): «أنّ موسى يدعو الملائكة بالآلهة قد تسمع ذلك من كلماته.»[6] وافق بعض من المسيحيين، لكن فقط بالوصول إلى النقطة التالية: كانت تسمى الملائكة بالآلهة في بعض الأحيان، وذلك ضمن الكتب المقدسة، كما أكد أوريجين (المتوفّى 255 ق.م): «لكن ليس بمعنى أننا مأمورون بتبجيلهم وعبادتهم بدلاً من الله»[7] وقد وافقه أوغسطين (توفي 430) على أنه إذا أراد الأفلاطونيّين الحديث عن الآلهة، كانوا أحراراً في أن يفعلوا ذلك، لأنّه لا يجب على أحدٍ الجدال معهم حول الكلمات: تتحدّث النّصوص المقدّسة أيضاً عن الآلهة، وإذا رأى الوثنيّون آلهتهم كما الكائنات المخلوقة والخالدة من خلال الإندماج مع الله، بدلاً من أنفسهم، إذن فقد كانوا يقولون كلام المسيحيّين نفسه.[8] ولكن على العموم، وجد المسيحيّون أنّه من الحكمة وضع وتدٍ أو فاصلٍ بين الملائكة والآلهة الوثنيّة القديمة، فقد أصبحت الآلهة القديمة متواضعةَ الحال، حيث اتّخذوا موقفاً من التّوقّعات الدّينيّة الّتي تتعارض مع المسيحيّين: مفهوم الذّات الإلهيّة بوصفها طيفاً بدلاً من شخصيّةٍ فريدةٍ، لأنّها مجرّد كائناتٍ غير شخصيّة بدلاً من كونها راعية تتدخل مع خطّة مسبّقةٍ للأحداث التّاريخيّة، وكما هي العقلانيّة، بُنيت في داخل نظام الكون بدلاً من كونها قوّة تقف فوقه.

كان العيب في معظم الآلهة الوثنيّة أيضاً، أنّها آلهةٌ محلّيّةٌ؛ حيث يمكن

---

(5) مكاريوس ماغنيس (ذاع صيته في القرن الرّابع/الخامس)، Apocriticus، ترجمة. ت. و. كرافر، نيويورك، 1919، 4، ص.21.

(6) يوليانوس، ضدّ الجليليين، ويليام رايت (تحرير و ترجمة)، أعمال الإمبراطور يوليانوس (كامبريدج (ماساتشوستس) لندن، 1913–1923)، 3، ص.400.

(7) أوريجانوس، Contra Celsum ،5، ص.4.

(8) أوغسطينوس، مدينة الله، ترجمة. جـ. هايلي (لندن، 1945)، 10، ص.21.

للمسيحيّين أن يعبدوا ثلاث آلهةً على أنها واحد مع مجموعةٍ من الملائكة، ولكنّها كانت الآلهة الثّلاث نفسها، والملائكة الموجودة في كلّ مكانٍ، ومن الجذور التّوراتيّة الّتي تحمل معهم الثّقافة التّراثيّة نفسها. أمّا الآلهة الوثنيّة فهي تفتقر لهذه الميزات الموحّدة، ويصرّ «لقطنسيوس» المسيحيّ الشّمال إفريقيّ (320 ق.م) على أنّ الملائكة قد لا ترغب في أن تُسمّى آلهة، لأنّ عملها الأوّل والوحيد، كان لخدمة مشيئة الله: «لا يمكن لأحد القول: إنّ في حكم المقاطعة يكون الحاكم والموظّفون متساوين مع بعضهم»[1] وقد كان هذا بالضّبط وجهة نظر الرّسول.

المشركون

كانت الآلهة الوثنيّة كلّها المذكورة في القرآن آلهةً مستقلّةً، لكن يبدو أنها خُفّضت إلى درجة الوسطاء! كما تمّ تحديد ودٍّ ويعوقَ وياقوتَ وسواعاً ونسرَ كآلهةٍ، مع عدم وجود إشارة إلى ما إذا كانت تُعرف أيضاً كملائكةٍ أو أبناءٍ لله، ولكنّ اللّات والعزّى ومناة، تميّزوا ضمنياً على أنّهم ملائكةٌ، وبنات الله، وبعد ذِكْرِهِم يسأل القرآنُ الكافرين عمّا إذا كان ينبغي أن يكون لديهم أبناءٌ ذكورٌ ويكون للهّ الإناث، وهذا يظهر في قوله: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى} (سورة النجم الآيات، 21-19)، فمن الواضح أنّ هذه المسألة تتعلّق بالأبناء والبنات. وأضاف: {وَيَجْعَلُونَ للهِّ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ} (سورة النحل، الآية 57)، كما يقول مَقطعٌ آخر، مسلّطاً الضّوء على سخافة وجود بنات عند الله حينما يريد المتعبّدون لأنفسهم أبناءً (وبالمِثْل سورة الإسراء، الآية 40؛ سورة الصافات، الآيتان 149، 153؛ سورة الزخرف، الآية 16؛ سورة الطور، الآية 39).

(1) لقطنسيوس، المعاهد الإلهيّة، أ. بوين و ب. غارنسي (ترجمة)، ليفربول، 2003، 2، ص. 16، 5.

وبعد مدّةٍ وجيزةٍ من السّماع عن اللّات والعُزّى ومناة، قيل لنا: إنّ هؤلاء الّذين لا يؤمنون بالحياة الآخرة هم من أعطوا الملائكة أسماء الإناث، كما في قوله: {إِنَّ الذين لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثى} (سورة النجم، الآية 27).

باختصارٍ، وكما أبّولو ونيريغ وسين وشمش وبعل وناني وبعلشمين... جرى تخفيض الإلهات العربيّات الثّلاث إلى آلهةٍ ثانويّة؛ وعلى غرار الوثنيّين الموحّدين في الإمبراطوريّة الرّومانيّة، فإنّ المشركين عرّفوا الآلهة أو الملائكة الأدنى كشفعاءَ، ويمكن للمرء من خلالهم أن يقترب من الله. ومثل أسلافه المسيحيّين، غالباً ما يجيب الرّسول بضرب إسفين بين الملائكة أو الآلهة والله نفسه، وأدّى قبوله لهم أحياناً على أنّهم ملائكةٌ حقيقيّون لالتباسٍ عند الوثنيّين. ولكن كما تبيّن، يقدم أكثر لصرف النّظر عنهم بوصفهم زائفين. لقد كان الله بالنّسبة للرّسول الخالقَ الوحيدَ والقوّةَ المطلقةَ في الكون، وليس هناك ما يمكن أن يكون جزءاً منه، أو من طبيعته، أو مثله في أيّ شكلٍ من الأشكال.

ليس هناك سببٌ يدعو للاعتقاد بأنّ المشركين قاموا بتحديد آلهتهم كملائكةٍ استجابةً إلى تبشير الرّسول، وكثيراً ما أكّدوا له من خلال ردّ فعلهم على اتّخاذهم مثل هذا الإجراء الدّفاعيّ؛ فهو الذي يظهرهم في موقفٍ ضعيفٍ، حتّى إنّه يحتاج إلى التّأكيد من الله على عدم وجود أطفال الرّحمن.(1) ولا بُدَّ من السّؤال عن اتّجاه الموحّدين الذي يسبقه ـ كما هو الحال عند "فلهاوزن" أيضاً ـ أيّ نوعٍ من الاتّجاه كان: أهو وثني، أو مُؤسّسٌ على الكتاب المقدّس (الإنجيل)، أو هو مزيجٌ من الاثنين؟

يعامل الرّسول معارضيه كالوثنيّين، ويظهر ذلك جزئيّاً من خلال

(1) راجع 43،45 وفقراتٍ أخرى مدرَجَةً في ر. بارت، Kommentar، ص.229، و10، 94.

تصويرهم كمشركين من ذلك النّوع الّذي عارضه إبراهيم، وجزئيّاً من خلال سرد الآلهة العربيّة على سبيل المثال خدمة لتوضيح آلهتهم الأدنى، كما رأينا حتى الآن. قام أيضاً بتكييف الحجج المألوفة المضادة للوثنيّة في سجالاته ضدّهم. ولعلّ المثال الأبرز هو الحجّة القائلة: إنّ التّعايش بين العديد من الآلهة من شأنه أن يؤدّي إلى فوضى اللاّ سلطة فيما بينهم، وهي فكرةٌ يبدو أنّ "لقطنسيوس" هو الّذي ابتكرها. فبحسب رأيه: إنّ أولئك الّذين يزعمون أنّ هناك العديد من الآلهة، لا يأخذون بعين الاهتمام حقيقة أنّ الآلهة قد "تريد أشياءَ مختلفةً، الأمر الذي يؤدّي إلى النّزاع والتّنافس فيما بينها: لذا نجد قصص هوميروس تصوّر الآلهة في حالة حربٍ مع بعضها بعضاً"؛ كانت القرارات حول العالم أحاديّة الجانب، أو إنّها كلها لن تبقى معاً؛ هكذا كان الحال مع العالم كما هو مع الجيوش: "ما لم يكن هناك واحد فقط لا غير، الّذي له تحال الرّعاية، أو أجْمَعها، فإنّها تتفكك كلّها، وتنهار على بعضها"[1] وقد تمّ الأخذ بهذه الفكرة من "يوسابيوس" في مدحه قسطنطين (المتوفّى عام 340): "النّظام الملكيّ يتفوّق على جميع الأنواع الأخرى من الدُّستور وسلطة الحكم»، وأعْلَن أنّ "نظام حكم الكثرة على أساس المساواة، بدلاً من أن تعمّ اللاّ سلطة والحروب الأهليّة نتيجة البديل، ولهذا السّبب هناك إلهٌ واحدٌ، وليس اثنان أو ثلاثةٌ أو أكثرُ".[2] وقد أُعجب غريغوريوس النزينزي (المتوفّى عام 389) بهذه الفكرة أيضاً، حيثُ قال: "أقدم مذاهب الله، ثلاثة: اللاّ سلطة، ونظام التّعدّد، والنّظام الملكيّ"، وقال: "استمتع أبناء الإغريق بالنظام الأول والثّاني - وجعلهم يستمرّون! في الواقع، اللاّ سلطة هي الاضْطِراب، والتّعدّد هو الفتنة، ومن ثمّ لا سلطة، فالاضطّراب. وهكذا يؤدّي الاثنان إلى النّتيجة ذاتها: الفوضى هي الّتي تؤدّي إلى الخراب،

(1) لقطنسيوس، المعاهد الإلهيّة، 1، ص.3 ، 17-19.

(2) يوسابيوس (تُوفيّ 340)، لويس قسطنطين، 3. ص.6، هارولد آرثر دريك (ترجمة)، مديح قسطنطين. دراسة تاريخيّة وترجمة حديثة لخطب يوسابيوس الثلاث (بيركلي- لوس أنجلوس- لندن، 1976)، ص.87.

والاضطراب هو التّحضير للخراب".[1] أو على حدّ تعبيره أيضاً: "نحن لا نكترث بحشدٍ من الآلهة، بالنّسبة لي فإنّ الأمر سيّان، إذا حُكمت من العديد أو لا أحد، كلٌّ يحكم بطريقته، الكلّ في ستّةٍ أو سبعةٍ (هي حالة من الارتباك أو الفوضى)، أمّا النزاع السياسي فيعني التّقسيم، والتّقسيم يعني الانحلال. لذلك لا أجد شيئاً إلهيّاً في حكم التّعدّد".[2]

وفي مرحلةٍ ما، يتّجه الجدل إلى التّقليد السّريانيّ، ويُفترض ذلك قبل ظهور الإسلام (بالأرمينيّة يظهر فعلاً في القرن السّادس "إليش")[3]، لكنّي لم آتِ على ذكره إلّا في كتابات موسى ابن شمعون المشهور بابن كيفا (المتوفّى عام 903.م)، حيث يقول: "إذا وُجد العديد من الآلهة، فسيكون هناك عداوةٌ بينها، كما بين الحكّام والقوى في هذا العالم"، كما يقول أيضاً وبمزيد من التّفصيل في الحجّة:[4] و الحجة ذاتها تظهر ثلاث مرّاتٍ في القرآن: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}(سورة الأنبياء، الآية 22). وأضاف: {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً} (سورة الإسراء، الآية 42)، وفي قوله: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}؟ (سورة يوسف، الآية 39). ويشير عدم التفصيل إلى أنّ الجميع قد سمع بهذه الحجّة من قبل.

حجّةٌ أخرى مألوفةٌ من الجدل السّابق ضدّ الوثنيّين، هي أنّ الطّواغيت،

(1) غريغوريوس النزينزي، الخطب، ب. غالاي (تحرير و ترجمة) باريس، 1978، الخطبة 29، 2.

(2) Poemata dogmatica، vs 80 (PG، 37 العمود. 414)، مقتبس في ف. دفورنيك، الفلسفة السياسيّة البيزنطيّة والمسيحيّة المبكّرة، واشنطن 1966، 2، ص. 689.

(3) إليش، تاريخ فردان والحرب الأرمنيّة، ترجمة. روبيرت ويليام تومسون، لندن، 1982، ص. 86 والصفحة التّالية (الصّفحة 33 من النّسخة الأصليّة).

(4) موسى ابن كيفا، Der Hexaemeronkommentar des Moses bar Kepha، ترجمة وتعليق. لـ. شليمه، فيسبادن، 1977، الفصل 3. 9-11.

كانت شَياطين (راجع الجزء الأول، رقم.11). وقد تمّ العثور على هذه الفكرة فعلاً في أسفار موسى الخمسة والمزامير،[1] وفي كتاب "المراقبون/ الملائكة" وربّما يعود تاريخها إلى القرن الثّالث قبل الميلاد، والملائكة الساقطين، أي أبناء الله الّذين يتزاوجون مع بنات النّاس، يولّدون أرواحاً شرّيرةً تغوي النّاس لتقديم أضحياتٍ لها من خلال الاعتقاد الخاطئ بأنّهم آلهةٌ.[2]

إنّها تكمن وراء ترجمة الآية: {لأنَّ كُلَّ آلِهَةِ الأُمَمِ تَماثِيلُ تافِهَةٌ. أمّا اللهُ فَهُوَ الَّذِي صَنَعَ السَّماواتِ} (مزمور 96، 5)، وفي التّرجمة السّبعينيّة: {لأن كل آلهة الأمم شَيَاطين}، (هنا مزمور 95، 5)؛ حيث تبدو للوهلة الأولى كتفسير المسيحيّن للوثنيّة لدى القديس جاستن مارتر (المتوفّى نحو 165.م)،[3] ليصبح فيما بعد التّفسيرَ المعتمَد. وقد تصوّر المسيحيّون الشّياطين بوصفها تقطن الأصنام الماديّة الّتي يعبدها الوثنيّون، وهكذا هي الحال في الروايات الإسلاميّة أيضاً.[4] وقد خرجت الصّورة بكلّ بشاعتها حينما دمّر المسلمون الأجسام الوثنيّة مثل الحجارة والأشجار والتّماثيل. ولكن يبدو أنّ المشركين في القرآن يعبدون الجنّ فقط، أو الشّياطين، أو الشّيطان نفسه، بمعنى الرّضوخ لتلك القوى، والوثوق بالأباطيل الّتي نشروها، لذلك يبدو أنّها وصلت إليهم من قنواتٍ عدّةٍ.

أمّا الحجّة الأخيرة، فهي أنّ الآلهة الوثنيّة كانت كائناتٍ بشريّةً ميْتةً منذ مدّةٍ طويلةٍ، إذا كان هذا حقّاً قد قِيل في القرآن (قارن مع رقم 12 أعلاه).

(1) سفر الثنية 32، 17 (لفت انتباهي إليه جـ. هاوتينغ)؛ المزامير 106، 37.

(2) إينوخ الأوّل، 19، 1 (ترجمة. جـ. و. يـ. نيكيلسبورغ وجـ. سـ. فاندركام، منيابولس، 2004، ص.39).

(3) الدفاع الثّاني، 5 (ترجمة. لـ. و. بارنارد، نيويورك، 1997، ص.77).

(4) انظر المفسرون (مثلاً. الطّبريّ، جامع البيان؛ السيوطي، الدرّ المنثور)، 71، 23، the Noachite gods؛ فهد، البانثيون، ص.104، عن إيساف ونائلة.

وتعود هذه الفكرة إلى حقبةٍ بعيدةٍ في القرن 300 قبل الميلاد، عندما افترض "يوهيميروس" أنّهم كانوا مجرّد بشر ذوي فضلٍ عظيمٍ، وكانوا مؤلّهين من قِبل معاصريهم المتنّين. وبما أنّ أطروحته قصدت شرح الآلهة الّتي يعبدها اليونانيّون أنفسُهم، فإنّها لم تجِد الكثير من التّأييد آنذاك، إلّا أنّ صيتها ذاع عندما بحث المسيحيّون عن طرائقٍ للتّشهير بالآلهة الوثنيّة. ويبدو أنّ الرّسول يعرف ذلك، فوجّهها كذلك ضدّ المسيحيّن أنفسهم، وفي الواقع، كان تأليه المسيحيّين ليسوع خيرَ مثالٍ على أطروحة "يوهيميروس" على الرّغم من أنّها لم تكن تلك الّتي لحظها المسيحيّن أنفسهم؛ وتظهر تفسيرات "يوهيميروس" عن الآلهة الوثنيّة لاحقاً في الروايات الإسلاميّة أيضاً.

على الرّغم من أنّ الرّسول يبذل قصارى جهده لإثبات وثنيّة خصومه، فلا يمكن للمشركين أن يكونوا موحّدين وثنيّين بشكلٍ صريحٍ، فلم يكن إلههم مجرّدَ واحدٍ، كائنٍ فوق جميع البشر، وله حرمته عند الأفلاطونيّين المحدثين، والموحّدين الوثنيّين من النّاحية اليونانيّة من الحدود، وإنّما إلهٌ ملموسٌ مع سجلٍّ من التّدخّل في تاريخ البشريّة يتفرّد باسم خاصٍّ به، أو بالأحرى اثنين، الله والرّحمن. وعلى الرّغم من أنّ الوثنيّين يظهرون كمشركين من إحدى وجهات النّظر، إلّا أنّهم يظهرون كموحّدين مؤسّسين على الكتاب المقدّس من جهةٍ أخرى. وهذا لا يعني بالضّرورة أنّهم كانوا يهوداً أو مسيحيّن من نوعٍ ما، فلدينا أيضاً عامل إمكانِ أن يؤمنوا بالله تعالى بمعنى (ثيوس هيبستوس)، الله العليّ، وتعريفه بـ (الله التّوراتيّ) وهذا يفترض مجاورة اليهود في مجتمعهم ـ ولكن ليس العضويّة فيه ـ ما يعني أنّنا يجب أن ننظر أيضاً إلى المشركين من زاوية التّراث التّوراتيّ.

عبادة الملاك عند اليهود

تمتّعت الملائكة بأهميّةٍ كبيرةٍ في المرحلة اللّاحقة للنّفيّ اليهوديّ، وفي نهاية المطاف لقيَت تبجيلاً إلى درجة أنّ علماء العصر الحديث ناقشوا إلى أيّ مدىً كان هناك عبادةٌ فعليّةٌ للملائكة بين اليهود على أعتاب صعود المسيحيّة؛ وتشير الكثير من الأدلّة إلى ملاكٍ رئيسٍ عُرّف في بعضٍ من الأحيان مع «كلمة» أو «حكمة الله» أو «ابنه» أو بعدّه إلهاً ثانياً، أو إلهاً أدنى (كما رأينا مسبّقاً في فيلو)،[1] كذلك جرى الكثير من البحث مدفوعاً بمسألة إلى أيّ مدىً يمكن أن يُفسَّر مفهوم هذا الملاك الرّئيس لبروز خالق الكون المادّيّ الغنوصيّ من جهةٍ،[2] ومن جهةٍ أخرى تطوير الكرستولوجيا، ولاسيّما تأليه المسيح (الّذي كان يُعدّ كملاكٍ في المسيحيّة المبكرة على نحوٍ واسعٍ).[3] لهذا السّبب تمّت دراسة صعود المسيحيّة بكثافةٍ أكبرَ ولقرونٍ عدّةٍ من تلك الّتي لها صلةٌ مباشرةٌ بنا، وتبدو جميع المناقشات عن عبادة الملاك في السّياق المسيحيّ أنّها تدور حول المسيح، وربّما لم يكن هناك عبادةٌ لملاكٍ على علاقةٍ مرتبطةٍ مع المسيح بين المسيحيّين فيما قبل الإسلام. وفي جميع الأحوال، كما تؤكّد الشّواهد، أنّه يبدو بشكلٍ ملحوظٍ أنّ تبجيل الملاك اليهوديّ (واليهوديّ المسيحيّ) أكثر جدوى من ذلك الموجود عند المسيحيّين.

قد يكون تبجيل اليهود للملاك الرّئيس على صلةٍ بالقرآن، حيث يبدو في بعضٍ من الأحيان أنّ المشركين يبجّلون إلهاً آخر، كما ورد في الآية: {لَّا

(1) للحصول على تحقيقٍ أفضلَ، انظر لاري و. هورتادو، إلهٌ واحدٌ، ربٌّ واحدٌ: العبادة المسيحيّة المبكّرة والتّوحيد اليهوديّ القديم (فيلادلفيا، 1988) ص. 41-92؛ موجَزاً في عمله "كيف أصبح يسوع إلهاً على الأرض؟!" (ميشيغان- كامبريدج، 2005)، ص. 46 وما يليها.

(2) انظر ألان فـ. سيغال، قوّتان في الجنّة: تقارير ربّانيّة مبكّرة عن المسيحيّة والغنوصيّة (لايدن، بريل، 1977).

(3) راجع جـ. باربيل، Christos Angelos، بون 1941؛ سـ. أ. غيشن، Angelomorphic Christianity (لايدن، بريل، 1998).

تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولا} (سورة الإسراء، الآية 22؛ راجع أيضاً الآية 39 من السّورة نفسها؛ سورة المؤمنون، الآية 117؛ سورة الفرقان، الآية 68؛ سورة الشعراء، الآية 213؛ سورة القصص، الآية 88؛ سورة ق، الآية 26؛ سورة الذاريات، الآية 51). وينبغي للمرء عدم اتّخاذ اثنين من الآلهة، كما يظهرُ في الآية رقم 51 من سورة النحل: {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}، ويمكن أن ينعكس هذا الإله الثّاني في اتّهام اليهود بعبادة ابنٍ لله يُدعى "عُزَير"، كما في قوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ }(سورة التوبة، الآية 30)، حيثُ كلانا "نيوباي" و "أنا" على صلةٍ بتبجيل رئيس الملائكة، ولا يمكن أن نغفل عن الصّعوبات الّتي يطرحها الاسم! لقد كان هناك ملاكٌ رئيسٌ واحدٌ، هو (ميتاترون)[1]، الّذي عُرف بالفعل بأنه «يهوه الأدنى».[2]

يظهر الاتّهام الّذي يطال عُزيراً في السُّوَرِ المدنيّة، بينما تظهر أوامر النّهي عن تبجيل إله آخر أو إلهين معاً في السّور المكّيّة، لكنّ ذلك لن يكون المثالَ الأوّلَ عن مجموعات عُرفت بوصفها «مشركين» في السّوَر المكّيّة، ثمّ تحوّلت إلى يهود أو «أهل الكتاب» في السّوَر المدنيّة.[3] لكنّ بعضاً من المشركين فقط

(1) [تعليق المترجِم]: ميتاترون، (بالعبرية: מטטרון) هو ملاك رئيس في الدين اليهودي، ويعتبره يهود الأبوكريفيا بأنه إدريس، مع أن التلموديّين خالفوا هذا الرأي، إلا أنهم استعملوا صفة "يهوى الأصغر" عندما كانوا يرمزون إلى ميتاترون. واعتبره بعضهم أنه "كاتب السماء" الّذي يسجل أحداث الأرض وأعمال اليهود.

(2) انظر حول هذه المعلومات باتريشيا كرون، «المراقبون في القرآن»، وفي هـ. بن شماي، ســ. شيكد، وســ. سترومزا (محررون)، التّبادل والنّقل عبر الحدود الثّقافيّة: الفلسفة والتّصوّف والعلوم في المتوسّط (وقائع ورشة عمل في ذكرى البروفيسور شلومو بينس، معهد الدّراسات العليا، القدس ؛ 28 شباط 2- آذار 2005)، القدس، ستصدر قريباً، وستقدّم المادّة فيها.

(3) راجع كرون، « الملائكة مقابل البشر»، في تاونسيند وفيداس، وحي.

بجّلوا اثنين من الآلهة، بينما الآخرون ـ بمن فيهم أولئك الّذين كانت آلهتهم أو ملائكتهم من الإناث ـ وُصِفوا بأنّهم يعظّمون عدداً وافراً من الآلهة، ولذلك يجب النّظر إليها كلٌّ على حدةٍ.

ينصح بولس المسيحيّين في رسالته إلى أهل كولوسي (مع مقطعٍ ذي صلةٍ في غلاطية) بمقاومة أيّ شخصٍ يلومهم في المسائل المتعلّقة بطقوس الطّعام والشّراب، وحفظ السبت والأعياد الشهرية والسنوية، كما في قوله: {فَلاَ يَحْكُمْ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ فِي أَكْل أَوْ شُرْبٍ، أَوْ مِنْ جِهَةِ عِيدٍ أَوْ هِلاَل أَوْ سَبْتٍ} (رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي 2: 16)، وكذلك في قوله: {لاَ يُخَسِّرْكُمْ أَحَدٌ الْجِعَالَةَ، رَاغِبًا فِي التَّوَاضُعِ وَعِبَادَةِ الْمَلاَئِكَةِ، مُتَدَاخِلاً فِي مَا لَمْ يَنْظُرْهُ، مُنْتَفِخًا بَاطِلاً مِنْ قِبَلِ ذِهْنِهِ الْجَسَدِيِّ} (رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي 2: 18).[1] ويُفترض أنّ النّاس المضلّلين الّذين يميلون إلى مثل هذه الممارسات، كانوا يهوداً أو متهوّدين داخل الحركة المسيحيّة، حيث توجد جماعةٌ مشابهةٌ في الممارسات الخاطئة، وتُعزى صراحة لليهود في النّسخة السّريانيّة عن «دفاع أريستيدس» (كتبت نَحْو عام 125.م)، حيث يعلن هنا أن اليهود يفترضون: «في عقولهم أنّهم يخدمون الله»، بينما» تكون خدمتهم في طبيعة تصرفاتهم للملائكة لا لله»، (وهو أمر يعيد الذكريات بطريقة فضوليّة حول كلام القرآن عن المشركين)، ولكنه يشير بالوقت ذاته إلى التّشبّث بفكرة الممارسات اليهوديّة الّتي تشكّل عبادة الملاك، ولذلك لا يوجد ـ ضمنيّاً ـ عبادةٌ فعليّةٌ للملائكة.[2]

(1) كولوسي، 2، 16، 18، قارن غلاطيّة 4، 3، 9 10-: «كُنَّا مُسْتَعْبَدِينَ تَحْتَ أَرْكَانِ الْعَالَمِ... فَكَيْفَ تَرْجِعُونَ أَيْضًا إِلَى الأَرْكَانِ الضَّعِيفَةِ الْفَقِيرَةِ... أَتَحْفَظُونَ أَيَّامًا وَشُهُورًا وَأَوْقَاتًا وَسِنِينَ». كلا الرّسالتين تمّت مناقشتهما في لورين ستاكنبروك، «تبجيل الملاك والكريستولوجيا» (توبينغن ،1905)، ص. 104 وما يليها، وهي دراسةٌ أنا مَدينٌ لها جدّاً.

(2) جـ. ريندل هاريس (ترجمة)، دفاع أريستيدس (كامبريدج، 1891)، 14، ص.2؛ ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص.140: إنّ خدماتهم للملائكة تظهر في أعيادِ السّبت،

يُظهِر إصدارٌ مختلفٌ للنّصّ نفسه في «كرازة بطرس»، وهي وثيقة يهوديّة مسيحيّة يعود تاريخها إلى أواخر القرن الأوّل/ أوائل القرن الثّاني الميلاديّ، وقد اقتبس منها إكليمندس الإسكندري (المتوفّى عام 217.م)، وهنا يظهر اليهود وهم مذنبون بسبب «عشقهم للملائكة و رؤساء الملائكة، والشّهر، والقمر"، و(بالتالي؟) عدم حفظ الاحتفالات عندما لا يكون القمر مرئيّاً.[1] ومن الصّعب ألّا نظنّ أنّ جميع المقاطع الثّلاثة متجذّرةٌ في تهمةٍ نَمَطيّة مبكرة، تتعلّق بالملائكة والقمر والحساب التّقويميّ.[2]

يأتي مزيدٌ من الأدلّة على شكل أعمال رؤيويّة يعود تاريخها إلى الحقبة الّتي سبقت ظهور المسيحيّة حتّى القرن الثّاني الميلاديّ، حيث بدأ الإنسان يستجيب فيها إلى ظهور ملاكٍ مع إشارات عبادة، والّتي يرفض الملاك قبولها: حيث يطلب الملاك من الإنسان ألّا ينحني له أو يعبده، مدّعياً أنّه مجرد خادمٍ مطيعٍ مثلِه، أو يظهر بطريقةٍ أخرى، أنّ الكائنات الخارقة الّذين يخدمون مشيئة الله لا تجوز عبادتهم.[3]

يعتقد ستكنبرك بأنّ الموادّ غير كافيةٍ كدليلٍ لعبادة الملائكة الفعليّة، ولكنها توافق على صعوبة شرح حِدّة رفض الملاك من دون افتراض أنّ

وَفِي أوائِلِ الشُّهُور، والفِصْح، والصّوم العظيم، والعيد، والختان، وطهارة اللحم. المقطع غير موجود في النّسخة اليونانيّة.

(1) إكليمندس، Stromateis، 6، 5، 41، 2؛ كما ينعكس أيضاً في تفسير أوريجانوس ليوحنّا 13، 17، راجع ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص. 141.

(2) إنّ المقطع الموجود في «كرازة بطرس"، مرتبطٌ مع رسالة إلى أهل كولوسي 2: 6 وما يليها، وقد أكّدَ هـ. بولسن علة «رسالة إلى أهل غلاطية» 4: 3، 9، «Das Kerygma Petrou und die urchristliche Apologetik"، (Zeitschrift für Kirchengeschichte، 88 (1977)، ص. 18 وما يليها، لكنّه لم يقُل كيف، وتحفّظ ستاكنبروك على الرّابط بشكلٍ غريب.

(3) ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص. 75 وما يليها؛ قارن أيضاً لورين ستاكنبروك، "الرفض الملائكي للعبادة: الرّواية ودورها في رؤيا يوحنّا"، Society of Biblical Literature Seminar Papers، 1994.

«بعضاً من أشكال سلوك التّبجيل» تُعدّ متنافيةً مع التوحيد من بعض اليهود والمسيحيّين الأوائل، وإن لم يكن بالضّرورة من أولئك الّذين شاركوا بأنفسهم في مثل هذا السّلوك.(1)

هناك العديد من الأمثلة في استدعاء اليهود للملائكة جنباً إلى جنبٍ مع الله للمساعدة أو الحماية. وفي نقشٌ من آسيا الصّغرى، يعود تاريخه إلى أوائل القرن الأوّل أو أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، يتضمّن الملائكةَ في نداءٍ إلى الله للانتقام لمقتل فتاتين؛ وهنا الملائكة تكون مجهولةً.(2) وفي وصيّة لاوي (المحفوظة في صيغةٍ مسيحيّةٍ، يعود تاريخها إلى القرن الثّاني الميلادي، مع أنّ جوهرها اليهوديّ هو الأقدم)، يقول لاوي للملاك الّذي فتح له أبواب السماء: «أرجوك يا سيّد، عرّفني اسمك حتّى أستطيع أن أدعوه في يوم الضيق»؛ فأجاب الملاك من خلال تعريف نفسِه بأنّه: «الملاك الّذي يتشفّع لشعب إسرائيل، بحيث لا يصاب بضربة قاتلة»، من دون إعطاء اسمه (إلّا إذا افترضنا فعلاً أن يكون ميخائيل هو الملاك شفيع إسرائيل).(3)

يرفض أيضاً الملائكة في الإنجيل إعطاء أسمائهم، ومرّةً يوضح أن الاسم «عَجيبٌ» حتّى يُكشف.(4) وربّما تكون الكلمة (عَجيبٌ) بمعنى منح الكثير من السّلطة لشخص واحد. ويقارن حاخامٌ فلسطينيٌّ نَشطَ في القرن الرّابع الميلاديّ بين شَفِيع الإنسان، الّذي يجعل المتوسّلين له ينتظرون على بابه حتّى يسمح لهم، والله، الّذي يمكن مقابلته مباشرةً، وذلك لإيضاح الرّسالة

(1) ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص. 102 وما يليها.

(2) ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص. 182 وما يليها.

(3) شهادة لاوِي، 5، ص.5-6. في شهادات الآباء الاثني عشر، ترجمة. هـ. سـ. كي في جـ. هـ. تشارلزوورث، (محرر)، العهد القديم المنحول، نيويورك، 1983-1985، 1، ص.790.

(4) سفر التكوين 32: 29: {فَسَأَلَهُ يَعْقُوبُ: «أَخْبِرْنِي مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ} (من دون شرح)؛ سفر القضاة 13: 18: {فَقَالَ مَلاَكُ الله لَهُ: «لِمَاذَا تَرِيدُ أَنْ تَعرِفَ اسْمِي؟ إِنَّهُ عَجِيبٌ}«!. أدين بالمرجعين لجوزيف ويتزتم.

الّتي تقول: "عندما يأتي الضيق على رجل، لا ينبغي أن يدعو لميخائيل أو جبرائيل»، بل إلى الله نفسه، ممّا يشير إلى أنّ الأفراد في الواقع يدعون هذه الملائكة لمساعدتهم وحمايتهم.[1]

إنّ دعوة ميخائيل ليشفع للجماعة بدلاً من حاجة الفرد الخاصّة، لم يكن أمراً محبِطاً، على الأقلّ ليس في القرون اللّاحقة: "إليعازر بن كيلير" وهو حاخام ذاع صيته في نهاية القرن السّادس، نظم قصيدة بيُّوطٍ[2] (ربّما في القرن السّابع، أو حتّى في وقتٍ متأخّرٍ من القرن العاشر، ومن المحتمل في فلسطين) تتضمّن واحداً وعشرين من الملائكة الأمراء، بما في ذلك ميخائيل، ليتشفّع لإسرائيل؛ وكان ميخائيل قد تمّ استدعاؤه لإبلاغ الجماعة في شعر المجمع اليهوديّ لاحقاً من الشّرق الأدنى أيضاً،[3] ولكن بحلول ذلك الوقت، قد تغيّر الكثير بطبيعة الحال.

هناك أيضاً العديد من الأمثلة عن الملائكة الّتي يجري استدعاؤها في أعياد الشّكْر. وفي أقدم الأمثلة تكون هذه الملائكة مجهولةً،[4] وهي

---

(1) 13، 9، Berakhot .Y أ Rivalität ، Schäfer، ص.70؛ ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص. 64-65، مع نصوص مماثلة. يأخذ ستاكنبروك المقارنة بشكل غريب حتّى تكون مع الملك الفارسيّ، والّذي يمكن الوصول إليه من خلال مَرْزُبَانه فقطْ (صورةٌ شائعةٌ لمجادلةٍ ضدّ الآلهة الأدنى على أنّهم وسطاء)، لكنّ الرّاعي كان سمة من سمات الحياة اليوميّة في كلّ المقطاعات الرّومانيّة، ولا يوجد أيّ تلميحٍ عن أيّ شيءٍ يخصّ الفارسيّة في مقارنة ر. يودان، حتّى إنّه لا يذكر أيّ ملك.

(2) [تعليق المترجِم]: بيُّوط: كلمة عبريّة مشتقة من كلمة بويايتيس اليونانيّة الّتي تعني إنشاد أو شعر. والجمع بيوطيم. وهي نصوص شعريّة غنائية تتناول الموضوعات الدينيّة وتعبّر عن المشاعر الدينيّة، وتدخل على الصلوات اليهوديّة بهدف إثرائها وتزيينها، ولا سيّما على صلوات الأعياد والسبوت.

(3) و. لويكن، ميخائيل (غوتينغن، 1898)، ص. 11 والصفحة التالية؛ راجع الموسوعة اليهودية ، القدس، 1981 المدخل. "إليعازر، كيلير".

(4) الأقدم هو سفر طوبيا، ومن الممكن أنّه حُرِّر في القرن الثّاني قبل الميلاد: يبارك طوبيا الله، واسمه المقدّس وكلّ ملائكته المقدّسة لعلاجه من العمى بفضل المشورة الطبيّة من الملاك رفائيل؛ يُرجع طوبيا الفضل في معالجته إلى الله نفسه في الآية الآتية:

مجهولةٌ أيضاً في نقش يهوديّ من آسيا الصّغرى الّتي يرجع تاريخه ربّما إلى القرن الثّالث الميلاديّ، والّذي أهدى «الأعمال» (وربّما العَطَايَا) لثيوس هيبستوس وملائكته المقدّسة.[1] وفي "يوسف وأسينات" (يرجع تاريخه بين القرن الأوّل قبل الميلاد والقرن الثّاني الميلاديّ)، تقدم أسينات الشّكر إلى الله والملاك الّذي أعلن قبول الله لتحوّلها، ثمّ تسأل الملاك: "ما هو اسمك، يا سيّد؛ قل لي لكي أمدحك وأمجّدك إلى الأبد». هنا أيضاً يرفض الملاك، ويسأل أسيناتَ موضحاً: «لماذا تطلبين اسمي، يا أسينات؟» إنّه مكتوبٌ في السّموات في الكتاب المكتوب بإصبع الله، ولا يسمح لإنسانٍ أن يسمع نطقه أو لفظه.[2] هذا تعبيرٌ قويٌّ! ويمكن لاستخدام الفِكرة التّوراتيّة في تحوّلها هنا أن يكون استنكاراً لاستخدام أسماء الملائكة في السِّحْر.

كان لجميع المجتمعات الدّينيّة سَحَرَتُهُم، ولكنّ السّحر اليهوديّ كان ظاهرة بارزة في جميع القرون ذات الأهمّيّة لنا! حيث يُشهد ذلك في البرديّات اليونانيّة السّحريّة من مصر، والمؤرخة من القرن الثّاني قبل الميلاد إلى القرن الخامس الميلاديّ،[3] والموجدة في التّمائم الآراميّة فلسطينيّة الأصل، وفي أطباق الرّقْيَة لساسانيّي العراق،[4] وفي أدب هيخالوت، الّذي يعكس الحقبة

(«اباركك أيّها الرب إله إسرائيل لأنّك أدبتني وشفيتني»)، ولا يخصّ رافائيل بالشّكر (طوبيا، 11، 14 والآية الّتي تليها). الثّاني هو مخطوطة قمران، 11Q Berakhot 4-5 (انظر ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص. 161 وما يليها).

(1) ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص. 185 وما يليها).

(2) جوزيف و أَسْنَاتَ، 12،15، في تشارلزوورث، العهد القديم المنحول، 2، ص. 227؛ ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص. 168-70.

(3) هانز ديتر بيتز، ترجمة السّحر اليونانّي على البردي (شيكاغو- لندن، 1986)، ص. 41، 45.

(4) انظر (كمثال) المقدّمةٌ إلى جوزيف نافيه وسـ. شيكد، التّعويذات والطّاسات السّحريّة: التّعويذات الآراميّة من العصور القديمة المتأخرة (لايدن، مطبعة ماغنيس/ بريل، 1985).

200-800.م،[1] وفي كتيّبات عن السّحرة من أواخر العصور القديمة،[2] وفي جنيزة.[3]

تحرّم مقاطعُ حاخاميّة عدّةٌ صُنْعَ صورٍ للملائكة، والشّمس، والقمر، والنّجوم، والكواكب؛ وتحرّم المقاطع الأخرى الأضحيات إلى الشّمس، والقمر، والنّجوم، والكواكب، وميخائيل رئيس الملائكة، أو إلى أصغر دودَة[4]، ويُضاف أحياناً الأضحيات للجبال، والتّلال، والأنهار، والصّحارى،[5] و كلّ هذا يمكن أن يترافق مع السّحر أيضاً.

أمّا رابطة عبادة الملاك والسّحر فهي صريحةٌ في "أوريجانوس ضد كلسس" الوثنيّ الّذي كَتَبَ حوالي عام 180. وقد ادعى كلسس أنّ اليهود "يعبدون الملائكة، وأنّهم من المدمنين على الشّعوذة»، وذلك ما يشخّصه أوريجانوس بكونه مجرّد تحريفٍ.[6] وفي فقرةٍ أخرى، يجد كلسس خطأ حول اليهود على أساس أنّهم «يعبدون الجنّةَ والملائكة الّتي فيها» وأنّهم لا يعبدون

(1) راجع بـ. شيفر، «سحر وتصوّف ميركافا»، في الاتجاهات الرئيسة لجرشوم شوليم بعد 50 عاماً من التصوّف اليهودي، تحرير. بـ. شيفر وجـ. دان، توبينغن، 1993؛ المصدر ذاته، «السّحر اليهودي في العصور القديمة المتأخّرة وبداية العصور الوسطى»، في مجلّة الدّراسات اليهوديّة، 41 (1993)، ص. 75-79.

(2) راجع مـ. غاستر (تحرير وترجمة)، سيف موسى: كتابٌ قديمٌ عن السّحر، لندن، 1896؛ أعاد طبعه في أبحاثه ونصوصه، نيويورك، 1928، 1 (ترجمة) و 3 (نص)؛ مـ. أ. مورغان (ترجمة)، سفر هارازيم: كتاب الأسرار، شيكو (كاليفورنيا)، 1983؛ بـ. توريجانو، سليمان الملك الخفي: من ملكٍ إلى ساحرٍ، لايدن، 2002، ص. 198 وما يليها، مع المزيد من المراجع.

(3) بـ. شيفر وسـ. شيكد (تحرير وترجمة)، Magische Texte aus der Kairoer Geniza، توبينغن، 1994، Mohr Siebeck.

(4) [تعليق المترجم]: تشير الدُّودة لضعف اليهود وعدم استحقاقهم. وقد داسهم فرعون كدودة فعلاً، كما في قوله: {لاَ تَخَفْ يَا دُودَةَ يَعْقُوبَ، يَا شِرْذِمَةَ إِسْرَائِيلَ. أَنَا أَعِينُكَ، يَقُولُ الرَّبُّ، وَفَادِيكَ قُدُّوسُ إِسْرَائِيلَ} (سفر إشعياء 41: 14).

(5) شيفر، Rivalität، ص. 67 وما يليها.

(6) أوريجانوس، 1 ،Contra Celsum، ص.26.

الشّمس والقمر والنّجوم، كما يتوجّب عليهم من وجهة نظر كلسس[1]. وقد رفض أوريجانوس هذا الاتهام مرّةً أخرى! وربّما قد ضُلِّل كلسس بالتّعويذة المستخدَمَة في الخداع والشّعوذة والّتي تسبّب ظهور الأوهام، وإذا كان الأمر كذلك، فإنّه لم يدرك أنّ الّذين يقومون بهذه الأشياء، كانوا يتصرّفون خلافاً للشريعة: كان عليه ألا ينسَب مثل هذه الأمور لليهود على الإطلاق، أو كان يجب عليه التّوضيح بأنّه كان يتحدّث عن الخارجين على الشريعة؛ كحالِ الّذين يعبدون مثل تلك الكائنات لأنّهم مصابون بالعمى بسبب السّحر ومخالفة الشريعة، كذلك أيضاً حالُ أولئك الّذين يضحّون للشّمس، والقمر، والنّجوم.[2]

يمكن أن يُفاجئ المرء عندما نذكر هنا الأضحيات للشّمس، والقمر، والنّجوم، لأنّ كلسس اشتكى من غيابها، ولكن من الواضح أنّه يعترف بصراحةٍ في وجودِ ممارساتٍ غيرِ مشروعةٍ، لأنّ القضيّة بالنّسبة إليه هي في المعيار. وقد قدّم كلسس بشكلٍ خاطئٍ عبادة الجَنّةَ والملائكة كعبادة يهوديّة معياريّة/ محافظة؛ وكان اهتمام "أوريجانوس" لإظهار أن ذلك خطأ، وربّما أشار إلى الأضحيات للأجرام السّماويّة، لتكون على الجانب الآمن: قد لا يكون كلسس على علم بها، ولكنّ الآخرين كان لهم عِلمٌ بهذا الأمر، ويجب على الجميع أن يعرفوا أنّ هؤلاء النّاسَ كانوا مخالفين للشريعة. ويُستشهَد بسفر أرميا و رسائل بولس الرّسول إلى أهل كولوسي (لأن بولس رجل يملك التّعليم الدّقيق في المذاهب اليهوديّة) كأمثلةٍ محدّدةٍ لمعرفة كيف كان اليهود مذنبين فيما يتعلق بعبادة الملائكة، والشّمس، والقمر، والنّجوم، أو الصّور وكيفيّة عقابهم وتوبيخهم لمثل هذا السلوك.[3]

---

(1) أوريجانوس، 4، Contra Celsum، ص.6.

(2) أوريجانوس، 4، Contra Celsum، ص.8، 9.

(3) أوريجانوس ، 4، Contra Celsum، ص.8 .

أُغيظ أوريجانوس من ادّعاء كلسس لأنّه وهو يحاول التّوضيح، قام بحجب الاختلاف الجوهريّ بين الوثنيّة والتّوحيد التّوراتيّ! واقترح كلسس في المقطع السّابق أنّ المسيحيّين بقولهم «الملائكة» ربّما قصدوا الشّياطين، أي بمعنى الكائنات الإلهيّة من الدّرجة الثّانية.[1] وكان ردّاً على هذه الفكرة الّتي وافق عليها أوريجانوس، أنّ الملائكة كانت في بعضٍ من الأحيان، تُدعى بالآلهة في النّصّ المقدّس.[2] ويبدو الاختلاف الّذي يرغب بتسليط الضّوء عليه، هو أنّ الوثنيّين لحظوا سلسلة متّصلةً في هذا الأمر، في الوقت الّذي رسم فيه المسيحيّون خطّاً فاصلاً بين الله والمسيح من جهةٍ، والملائكة، والآلهة، والشّياطين من جهةٍ أخرى: كان لا بُدَّ من عبادة الجهة الأولى فقط. وكما قال أوريجانوس، ارتفعت الملائكة، وجلبت معها صلوات الرّجال إلى أعلى النَّواحِي، وهبطت لتحقيق بعضٍ من مشيئة الله إلى كلّ فردٍ، بِقَدْر استحقاق ذلك الفرد. ولكن كما أضاف: "يجب علينا إرسال كلّ توسلٍ وصلاةٍ وشفاعةٍ، وشكرٍ إلى الله الأسمى، من خلال رئيس كهنة كلّ الملائكة، كلمة الله الحَيّ». ويوجه المرء الصّلاة إلى الله من خلال المسيح، أو بوضوح مجرد إلى لمسيح، «هو كلمة الله ذاته»، ولكن ليس إلى الملائكة.[3] حتّى لو كان لأحدهم معرفةٌ سرّيّةٌ حول طبيعة و وظيفة الملائكة (كما يدّعي السّحرة)، لأنّ هذه المعرفة «تمنعنا عن الصّلاة لغير الله العليّ، الّذي هو كافٍ لجميع الأشياء، من خلال مخلّصنا، ابن الله». كانت الملائكة في فئةٍ مختلفةٍ، ولم يدرك كلسس أنّ الشّياطين كانت تُعدّ دائماً قوىً للشّرّ.[4]

يستنتج «ستكنبرك» من دراسته للموادّ جميعها (بما في ذلك النّصوص السّحريّة) أنّ أيّاً من الأدلّة لا يرقى إلى «طقس عبادة»، ويؤكّد على أنّ تبجيل

(1) أوريجانوس، 4، Contra Celsum، ص. 2.؛ راجع أعلاه، ملحوظة 49-50.
(2) راجع ما سبق ذكره، ملحوظة 53.
(3) أوريجانوس، 4، Contra Celsum، ص. 4.
(4) أوريجانوس، 4، Contra Celsum، ص. 5.

الملاك لم يُصوّر كبديلٍ لعبادة الله من أولئك الّذين شاركوا في الأمر.[1] ويمكن أن يُقال الشّيء ذاته لعبادة الملاك في القرآن: المشركون هم الموحّدون الّذين يرون أنفسهم يعبدون الله وحده، ولكنّهم يرون معه وسطاء أيضاً، فمَنْ هم الّذين يدعون إليهم مع الله؟، ومن هم الذين يقدّمون لهم حصصاً من حصادهم وماشية إلى جانبه أيضاً؟!.

يختلف المشركون عن نظرائهم اليهود، حيثُ أنّ أسماء ملائكتهم ـ بقدر ما نعرفها حتى الآن ـ هي أسماء الآلهة العربيّة السابق ذكرها، ليس ميخائيل أو ما شابه ذلك، ويختلفون أيضاً في أنّ ملائكتهم، أو بعضاً منهم، إناث. تفرق هاتان الميّزتان المشركين عن المسيحيّين بشكلٍ جيّدٍ، وأيضاً - بقدر أهميّة الميّزة الثّانية عند الغنوصيّين- مع أنّ المسيحيّين تفاعلوا مع حالات فيض الله الأنثوية، لكن لا يُعرف عنهم إدراج آلهة عربيّة في هذا الدّور.

كان بإمكان المانويّين، الّذين عَدّلوا معبد آلهتهم بشكلٍ منهجيٍّ مع التّقاليد الدّينيّة المحلّيّة، أن يفعلوا ذلك في تكَيّف معبدَ بعل شمين في بلاد ما بين النّهرين؛ ولكن كما تسير الأمور، فإنّ الدمج بين الله في الإنجيل والآلهة العربيّة / الملائكة ، وأحياناً الأنثى... ليس مميّزاً للغاية فحسب، بل هو أيضاً الميزة الوحيدة لعزل المعارضين للرّسول من المؤمنين الآخرين الّذين يعبدون الله في الإنجيل.

كيف يتمّ هذا الدمج، لتفسيره؟ أحد الحلول الممكنة، هو في رفض الأسماء العربيّة على أنّها مبالغةٌ جدليّةٌ تهدف إلى وضع علامةٍ تشير للكائنات الوسيطة كما الأَرجاس/ الفواحش الوثنيّة، ولكنّ هذا الحلّ غير قابل للتّصديق! ولو تركنا جانباً أنّها لن تتخلّص من الطبيعة الأنثويّة لبعضٍ من هذه الكائنات، كان الرّسول يتجادل مع خصومه وجهاً لوجهٍ، في محاولةٍ

(1) راجع ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص. 200 وما يليها.

لتحويلهم، وليس في كتابةَ أطروحةٍ جدليّةٍ من مسافةٍ متباعدةٍ عن خصومه، حيث أنّ كلّ ما قاله كان معلوماً لهم؛ ومن الواضح أنّ أيّ زعمٍ خاطئٍ حولهم سيؤدّي ببساطةٍ إلى تشويه سمعته. كان من الممكن أن يخبرهم أنّ تبجيل الكائنات الوسيطة كان سيّئاً كما عبادة اللّات، ومناة، والعزّى، والآلهةَ الوثنيَّةَ الأخرى، ولكن هذا ليس ما قاله. ومن المحتمل أنّه اختار الأسماء العربيّة من بين العديد من الأسماء الأخرى الّتي يتحملها الوسطاء، بسبب أصلهم الوثنيّ المعروف، ولكنّه لم يستطع فرضها على خصومه.

هناك خطٌّ واعدٌ أكثرَ لمتابعة الرّابط بين "عبادة الملاك" والسّحر البارزٌ في الموادّ المتعلّقة باليهود، فقد دعا السّحرة الملائكة لأنّهم ينظرون إليهم كما القوى المهيمنة وراء الأحداث الطّبيعيّة والاجتماعيّة الّتي شكّلت حياتهم، ويرغبون في تسخير هذه القوّات لغاياتهم الخاصّة بأيّة وسيلة كانت! حتّى إنّهم لم يقدّموا الكثير من العبادة للملائكة أكثر من ممارسة التّلاعب بهم، ولكن كان من المؤكّد أنّهم يعدّون هذه الملائكة كقوىً مستقلةٍ، لدرجة أنّ رؤيتهم كانت واحدةً في "التّوحيد المخفف"، كما يلحظ "شاكيد" في ما يتعلق بالطّاسات السّحريّة.[1]

كانت الطّريقة الرّئيسة لتلاعب السّحرة بالملائكة هي دعوتهم، ويُفضَّل بالاسم تحديداً، حيث إنّ النّصوص السّحريّة تحتوي على زخرفةٍ لأسماء الملائكة، والبعض منها معروفٌ، والبقيّة تبدو غامضةً ومثيرةً للإعجاب (التي تُسمّى نومينا باربرا). لقد وُضِعَت الجداول حتّى يتمّ الرّبط بين ولادة قوى الملائكة مع أيّام القمر، ويُفترض من ذلك تحديدُ أفضل الأيّام ليتمّ استدعاء القوى المعنيّة،[2] لتقدّم لنا مفتاح اللّغز لاتّحاد عبادة الملائكة مع

(1) ســ. شيكد، «الدين الشّائع في بلاد بابل السّاسانية»، دراسات القدس في اللّغة العربيّة والإسلام، 21 (1997)، ص.104.

(2) غودينو، رموز يهوديّة، 2، ص. 234-235.

التّقويمات.

وبما أنّ السحرة يفضّلون الإثم على جانبٍ من الشّموليّة، و/ أو ينظرون إلى كلّ الآلهة المعروفة والملائكة كمظاهرَ لإلهٍ واحدٍ، فكثيراً ما يُشار في النّصوص إلى كائنات إلهيّة من الطّوائف الدّينيّة الأخرى غير الموجودة لديهم، وأحياناً في شكلٍ متكيّفٍ، لدرجة أنّه من المستحيل في كثيرٍ من الأحايين تحديد الأصل الطّائفيّ للنّصّ. وفي نصٍّ يونانيٍّ سحريٍّ - ربّما يكون وثنيّاً - مكتوبٍ على ورق البردي، تمّ استدعاء أبولو جنباً إلى جنبٍ مع «الملاك الأوّل عند [الله]، العظيم زيوس آيو»، كما الحال في: «أنت يا ميخائيل الّذي تحكم مملكة السماء»، و»أنت يا جبرائيل رئيس الملائكة»، إضافةً إلى أبراكساس وأدوناي و بكربيث.[1]

ويعود تاريخ نصٍّ آخر إلى القرن الرّابع، يروّج لرؤساء الملائكة عند اليهود ويضعهم في منزلةٍ إلهيّةٍ: إنّه يدعو "الإله ميخائيل ... الإله جبرائيل ... الإله رافائيل» جنباً إلى جنبٍ مع الآلهة آيو وأبوث وأدوناي وسورئيل وأبراكساس وأيول وشبرا(ش).[2] وفي مكانٍ آخر، يظهر رافائيل وميخائيل جنباً إلى جنبٍ مع هيليوس، ملك سيميا، و»تيتان، مبعوثة زيوس المتوهجة (انجيليا)، آيو الإلهيّة».[3] وترد رموز أفروديت في عملٍ سحريٍّ يهوديٍّ، سفر ها-رازيم (أي كتاب الأسرار)، وهو مُؤرَّخٌ جزئيّاً في القرن الرّابع الميلاديّ، والّذي يتضمّن أيضاً صلاةً قصيرةً إلى هيليوس (الشّمس) وقد تُرجم صوتياً (نسخ لغة بحروف لغة أخرى) من اليونانيّة إلى العبريّة.[4] وتحظى نسخة الشّرق الأدنى عن هيليوس، أي شمش، بشعبيّةٍ في الطّاسات

(1) راجع ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص. 194 (PGM، 1، ص. 262-347)؛ انظر أيضاً غودينو، رموز يهودية، 2، ص. 191 وما يليها.

(2) ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص.194-195 (PGM، 3، ص. 129-61).

(3) ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص.195 (PGM، 3، ص. 187-262).

(4) ستاكنبروك، تبجيل الملاك، ص.199.

السّحريّة، وتبدو أفروديت موجودةً، وكذلك هرمس أيضاً.[1] إن صناعة معظم الطّاسات السّحريّة، تتمّ من خلال اليهود، أو يكون زبائنها من اليهود دائماً، مع مزيجٍ من الشخصيات الإيرانيّة، ومنها المسيحيّة في بعضٍ من الأحيان.[2]

ما نراه في النّصوص السّحريّة هو بيئة يُمزج فيها بين الآلهة والملائكة: تبدو الآلهة الوثنيّة المستقلّة سابقاً نيريغ، وسين، وشمش، وبعل، والإلهة ناني معاً كما الملائكة المقدّسة، ربما في طاسٍ للسّحر الوثنيّ من العراق؛[3] ويظهر الملائكة ميخائيل، وجبرائيل، ورافائيل كآلهةٍ، كما يبدو في نصٍّ سحريٍّ يهوديٍّ من مصر. ونصٌّ واحدٌ يتحدّث عن الكائنات ذاتها على أنّها بمثابة الرّوح، حيث يتشابه الملاك والإله.[4]

تُدعى الآلِهة الإناث في تعويذةٍ نبطيّةٍ من القرن الأوّل قبل الميلاد بـ«بنات الله» كما رأينا؛ ويظهر أبناء الله (بنو الله) السّبعة الّذين يحافظون على الكون موحداً مع سبع كلماتٍ قويّةٍ في طاسٍ سحريّةٍ وذلك حوالي 600م.[5] باختصار، يُظْهِر السّحر لنا بيئة اجتماعية يمكن فيها للآلهة الوثنيّة العربيّة أن تكون مقبولة كملائكةٍ من اليهود وغيرهم من الموحّدين (من النّوع

(1) شيكد، «يسوع في الطّاس السّحريّة»، ص. 315 و رقم 17؛ المصدر ذاته، «اليهود والمسيحيّون والوثنيّون في الطّاس السّحريّة الآراميّة ضمن الحقبة السّاسانيّة»، في أ. ديسترو ومـ. بيس (محرّران)، الأديان والثّقافات: المؤتمر الدّولي الأوّل عن المتوسّط، بينغامتون، 2001، ص. 71-72. يُطابق الطّاس الأوّل هيرميز وميتاترون، يتحوّل إينوخ ليُعرف لاحقاً بإدريس (مونتغومري، نصوص التّعويذات، 207، راجع ص.99 (الأرقام ؟).

(2) د. ليفين، الجزء الأساسي من الطّاسات السّحريّة: نصوص التّعويذات في الآراميّة اليهوديّة من العصور القديمة المتأخرة (لندن، روتليدج، 2003)، رقم M163.

(3) أعلاه، ملحوظة 73.

(4) PGM، 1، ص. 54 وما يليها، في مـ. سميث، يسوع السّاحر، نيويورك، هاربر و رو، 1978، ص. 98-99.

(5) د. ليفين، الطّاسات السّحريّة، 163، 9

«المخفف»)، والتي يمكن من خلالها تحديد هذه الملائكة كآلهةٍ وأبناء/ بنات الله أيضاً. ويجادل القرآن ضدّ السّحر اليهوديّ؛ وذلك في سياق السّحر الذي يذكر الملائكةَ الساقطين / أبناء الله من سفر التّكوين، تحت الأسماء الإيرانيّة لهرُوت ومرُوت، كما في قوله: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} (سورة البقرة، الآية 102)؛ ويمكن أن يكون في السّجود للشّمس والقمر الذي يدينه، خلفية في السحر أيضاً، كما في قوله: {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ} (سورة النمل، 24)، وفي قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (41، 37).

هل المشركون يهود إذاً؟ يبدو أنّ السؤال سابقٌ لأوانه، فهناك الكثير من المعلومات عن المشركين في القرآن، والتي يجب أن تُؤخذ بعين النّظر أوّلاً؛ وعليهم أيضاً أن يبحثوا في ضوء ما يقوله القرآن عن الجماعات الّتي تصنّف اليهود أو المسيحيّين، ومن الصّعب تجنّب الانطباع حول تورّط كلٍّ من اليهود والوثنيّين المُهوَّدين، لكنّ هذا أقصى ما يمكن للمرء أن يذهب إليه.

الخاتمة

نقطةٌ واحدةٌ آمل أن تُؤسّس في هذه المقالة، وهي قراءة القرآن في ضوء القرآن ذاته، من دون الإشارة إلى المَطْبُوعات التّفسيريّة، ليصبح منطقياً؛ ويكمن التنوير في ربط النّتيجة بالأدب الدّينيّ المُبْكر المُنتج في الشّرق الأدنى، ويمكن بالطّبع التنوير أكثر في ربط النّتيجة بالأدب المُبْكر والمؤكّد في المنطقة العربيّة ذاتها، ولكنّه غير موجود لدينا!. وليس من دواعي التقدير دائماً، ارتباط الحوارات في القرآن بما فيه الكفاية ارتباطاً وثيقاً بالتّطوّرات الدّينيّة في المناطق الّتي تتوافر لدينا أدلةٌ عنها، وذلك لنحصل على بعضٍ من الأمل في قدرتنا على تتبّع الخيوط وراء ظهورها.

كلّ ما سبق ذكره، يغني عن القول: إنّ الروايات الإسلاميّة سيكون لها في نهاية المطاف تأثير على النتيجة أيضاً؛ ولكن كما تبدو الأمور، فإنّ البحث القرآنيّ فيه الكثير من الصّعوبة لردود فعل القرّاء لاحقاً، والّذي ينبغي لنا البدء بفصلها.

معهد الدّراسات المتقدّمة، برينستون/ باتريشيا كرون

الفصل الخامس

هويّة بنات الله

هويّة بنات الله

كيث ميسي و كيفن ميسي

مقدّمة

"أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى"[1]

تمّ ذكر هاتين الآيتين القرآنيّتين (19–18) في سورة النّجم حيث تقدّم بناتِ الله وهم اللّات والعُزّى ومناة، بِغَضّ النّظر عن تاريخ النّصّ، وما يُدعى "الآيات الشّيطانيّة" الّتي تمّ في الغالب إلغاؤُها من هذا القسم، حيث لا يوجد ما هو خارجٌ عن المألوف.

نرى من الأمثلة الأنموذجيّة للبعثات النّبويّة أنَّ الشّرك مدانٌ، وأنّ أيّ طلب للشّفاعة يتمّ تجاهلهُ!. حتّى أنَّ الآلهة أنفسهم ركّزوا على هذه المناقشة باستفاضةٍ، وقد تنازع العلماء منذ مدّةٍ طويلةٍ على تعريف هذه الآلهة في المنطقة العربيّة قبل الإسلام، فعادةً ما كانت تُنسب - ظاهريّاً - للأجرام السّماويّة، كالقمر والشّمس والنجوم. ونحن في هذا المقال لن نعيد النّظر في قضيّة السّؤال: من هي اللّات أو العُزّى أو مناة؟ مع كامل الاحترام لمن يعبدهنَّ، لكنّنا بدلاً من ذلك سندرس: مَن تكون اللّات والعُزّى ومناة، كما وردت في سورة النّجم، وسنناقش هنا مفهوماً مختلفاً جذريّاً، ولا يقبل الشّكّ حول هذه الآلهة، والمُستَند فقط على الأدلّة التّاريخيّة من منطقة شبه

---

(1) نودّ التّوضيح لجميع أصدقائنا المسلمين، أنّ هذه المقالة تسعى لشرح الآيات غير العاديّة في القرآن الكريم. ونحن لا نعتقد بأنّ الله لديه بنات، ولكننا ببساطةٍ نسعى لكشف السّبب وراء اعتقاد بعض النّاس في المنطقة العربيّة قديماً بذلك.

الجزيرة العربيّة.

نرى من خلال الجدل حول "بنات الله" أنَّ النّبيّ يدين العبادةَ وطلبَ الشّفاعة من هذه الآلهة الثّلاثة تحديداً، كما أنّه يَسخَر حتّى من اعتقاد النّاس أنَّ لدى الله بناتٍ، أو بإظهار رغبته الخاصّة بأن يكون لديه أبناءٌ!. وينتهي بالقول: إنَّ تسمية النّاس للملائكة بأسماء إناثٍ هي تسميةٌ خطأٌ! وزِدْ على ذلك، فإنّه لا يرى أنَّ لدى الملائكة قوّةً مستقلّة للشّفاعة بالأحوال كلّها:

{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ، إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ، أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ، فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ، وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ، إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ} (سورة النجم الآيات من 19 إلى 27).

ومن المسّلم عموماً أنَّ اللّات هو الاسم المدغم من (ال - إلّات) حيث تبدو الآلهة مثل اللّات كأنّها النّسخة النّسائيّة من الله سواءٌ كزوجةٍ أو كبديلٍ عنه.[1] وكذلك تتراوح التّعريفات من القمر[2] إلى الشّمس[3]، أمّا اسم مناة الّذي يعني غالباً «المصير» فمن المرجّح أنه يرتبط مع مفهوم القَدَر، وقد تمّ ربط العُزّى - الجبّار - بكوكب فينوس[4].

(1) انظر وانيت، السّجلاّت القديمة من شمال المنطقة العربيّة (1970)، حيث يبدو أنّ مصطلح «الله» قابلٌ للتبادل مع «اللاّت» في منطقة الجوف (ص. 77 -78). ولا يظهر الله على أنه إلهٌ في النّقوش النّبطيّة، بعكس اللّات (ص.148).

(2) وانيت، (1970)، ص.78.

(3) فيليب حتّي (1963)، تاريخ العرب، ص.61.

(4) وانيت (1970) ص.127؛ حتّي (1963) ص. 99.

إن المشكلة في محاولة ربط الأدلّة المنقوشة الّتي تشير إلى هذه الآلهة مع المقطع القرآنيّ الذي تظهر فيه، تكمن في عدم وجود مكانٍ آخرَ يقدّم الآلهة الثلاث على أنّها تشكّل أيّ نوعٍ من أنواع المجموعات، ناهيك عن أن تكون «بناتِ الله». وتميل هذه الآلهة إلى وجودها في أضرحة العبادة الكبرى، حيث تكون في موضع الأولويّة، كما يوجد مزارٌ في الطّائفِ للّات، وفي نخلة لعُزّى، بينما يوجدُ في قديد مزارٌ لمناة.

ومن الواضح أنَّ هذه الآلهة كانت آلهةً مستقلّةً لها طوائف منفصلةٌ، ونجد في بعضٍ من المناطق استبعاد الله وعبادة اللّات بدلاً منه، كما نلحظ وضعاً مشابهاً عند إله الأنباط رضى حيث إنَّ الاسم بصيغتيه رضى و رضو ربّما يمثّلان صيغتا المذكّر والمؤنّث، الّتي تشير إلى ذات الآلهة الّتي يعبدونها.[1] وإذا كان هذا هو الحال مع مصطلح الله واللّات، فإنّ وصف اللّات على أنّها «ابنة» لا يمكن تفسيره.

باختصارٍ، وبغضّ النّظر عن الآيات 19 - 27 من سورة النّجم، ليس لدينا أيّ سببٍ لنعتقد بأنَّ الله لديه بناتٌ في الأديان الشّائعة، ما عدا اللّات والعُزّى ومناة المذكورين على أنّهم بناته؛ ومع ذلك، يبدو أنَّ الباحثين في الديانات الّتي سبقت ظهور الإسلام قد وافقوا على الوصف الوارد في القرآن ومن دون أيّ جدلٍ.

حاول وانيت في مقالٍ له أن يتعامل مع هذه المشاكل نفسِها، ولقد سمّى مراراً وتكراراً هذه الآلهة الثّلاث باسم «بنات الله» على افتراض وجود الدّقة في القرآن داخل هذا المجال.[2]

---

(1) انظر وانيت (1970) ص.75، للحصول على معالجة كاملة لهذه القضيّة.

(2) «بنات الله» في العالم الإسلاميّ (1940). انظر على سبيل المثال، ص. 117، «في النّقوش النّبطيّة لم يظهر مصطلح الله»، على الرّغم من أنّ العديد من الأنباط يحملون أسماءً مركّبةً مع «الله». ومع ذلك، تظهر «بنات الله» مرّاتٍ عدّةً.

تفسيرٌ جديدٌ لسورة النّجم

لنفترض أنَّ هذه السّورة تُظهر تطوّراً في الدِّين في المنطقة العربيّة الشّماليّة ضمن نطاقٍ محدودٍ، ومازال بعيداً عن الفهم العميق والتّقليديّ لهذه الآلهة الثّلاث، أمّا القرآن فيظهر تطوّراً في ذلك، حيث تصلح هذه الآلهة العربيّة لتلعب دوراً ثانويّاً ضمن مجموعةٍ من الآلهة الّتي تمّ استيرادها إلى المنطقة من الخارج.

وفي عام 1929 زوّدت الألواحُ المسماريّةُ الّتي اكتُشفت في (رأس شمرا) في الشّمال السّوريّ البعثاتِ الدّراسيّةَ بتسجيلات وآداب الحضارة السّامية النّاطقة الّتي يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، حتى إنَّ مدينة أوغاريت وفّرت ثروةً من الموادّ الميثولوجيّة الّتي أوجدت بدورها ثورةً في الدّراسات التّوراتيّة؛ ويمكن إذاً مقارنة المفردات والاستخدامات اللّغويّة الّتي أُسيء فهمُها، مع مجموعةٍ حديثةٍ من الكتابات في اللّغة أو ما شابه ذلك، وفي بعضٍ من الحالات، قد تُفهم الكلماتُ فهماً صحيحاً لأوّل مرّةٍ في التّاريخ.

تعود واحدةٌ من بين العديد من الشّخصيّات المثيرة للاهتمام الّتي وُجدت في النّصوص الميثولوجيّة... لملكٍ حكيمٍ يُدعى «دَانِيآل».(1)

أراد دَانِيآل ابناً ووريثاً! وقد كان متأكّداً بعد الصّلاة من أنَّ صلاته مستجابةٌ، وأنّه سيحصل على الابن الذي أراده، لكنّ صلاته لم تلبَّ على الفور، وبدلاً من ذلك ظهرت في منزله مجموعةٌ من الآلهة الإناث الّتي تُدعى

(1) على الأرجح أنّ دَانِيآل في الأدب الأوغاريتيّ هو المرشح عن الشّخصيّة المقترنة مع نوح وأيوب بكل امتياز، في سفر حزقيال 14: 14، 20. * [تعليق المترجِم]: دَانِيآل هو أحد أبناء داود من أبيجايل امرأة نابال الكرمليّ، ومعنى اسمه: الله يقضي، وفي اللغة الأوغاريتيّة: د ن إ ل = Danel، وفي اللغة العبريّة: دانيئيل أي الله قاضيٍّ.

الكوثرات،[1] ثمّ غادرنه بعد أيّامٍ عدّةٍ من تقديم دَانِيآل الطّعام والشّراب لهنّ؛ لكن يبدو أنَّ الكوثرات، هنّ من استجاب لطلبه بالإنجاب، فهنّ أصحاب هذه الخبرة (24-47):

عندئذ ذهب دَانِيآل إلى بيته

حَمل دَانِيآل نفسه إلى هيكله

ثم جاءت (دخلت) بيتَه الكوثرات، بناتُ

الهِلالِ، [الشبيهات بـِ] السُّنونو[2]. عند ذاك دَانِيآل

الرفائي، الفتى البطل

الهرنمي نَحرَ ثوراً للكوثرات.

أولم وليمة للكوثرات و

قدَّم شراباً لبنات الهِلال [الشبيهات بـِ] السُّنونو.

وها هوذا، يوم وثانٍ [دَانِيآل] يُولم

للكوثرات ويسقي بنات الهِلال [الشبيهات بـِ] السُّنونو

ويوم ثالث ورابعٌ وهو

(1) هذه المواد الأوغاريتيّة غير محكيّة، ممّا يؤدّي إلى إشكاليّة في إعادة صوغ اللّفظ. ومن المرجح أنّ اللفظ الأوغاريتيّ كان «كثيرات»، مع نمط جمع المؤنث السّالم نفسه في اللّغة العربيّة. بعض عمليّات إعادة الصوغ تستخدم حرف العلّة الطّويل وكأنّ المصطلح قد شهد تحوّلاً كنعانيّاً كما هو في العبريّة.

(2) [تعليق المترجم]: السُّنونو أو القِيَان هن بنات هلل، وهي ترجمه لكلمة (كثرت) الأوغاريتيّة الّتي يرادُ بها الكاثرات أو الكاشرات، كما أن اقترانهن بالسنونو يذكرنا بعشتار ابنة سين (إله القمر) الّتي كانت تظهر بمظهر السنونو (رمز للصوت العذب).

يُولم للكوثرات، ويسقي

بنات الهِلال [الشبيهات بـِ] السُّنونو. ويوم خامس

وسادس وهو يُولم للكوثرات[1]

ويسقي بنات الهِلال [الشبيهات بـِ] السُّنونو.

لكن في اليوم السابع غادرن بيته

بنات الهِلال [الشبيهات بـِ] السُّنونو

[بعد أن] عرفن جمالَ سريرِ الخصوبة،

وحُسن سرير الولادة

جلس دَانِيآل[يعدُّ] أشهرها

[انقضى] شهر

و[شهر] ثالث، ورابع

وشهور انقضت.

المقاطع الّتي تستعرض الكوثرات غير واضحةٍ، سواءٌ من ناحية سوء النّصّ أو من ناحية صعوبة التّفسير، كما إنّها تعاني من تكرار المفردات المستخدَمَة باستمرارٍ، لذلك فإنّ الوصف الأنموذجيّ للكوثرات هو:

(Ktrt but hll snnt)

(1) ملحمة أقهات 17 ثانياً: 24-46. كلّ التّرجمات وإعادة صوغ النّصّ من النّصوص الأوغاريتيّة هي من عمل جيبسون، الخرافات والأساطير الكنعانيّة (1977) إلّا إذا تمّ ذكر خلاف ذلك.

ويترجم "جيبسون" هذه الجملة بأنّها "الكوثرات، بنات الهـــلال [الشبيهات] السُّنونو"،[1] وقد وُضع مصطلح الجذر هـ ل ل (hll) بسبب وجود معانٍ عدّةٍ مختلفةٍ بسبب اختلاف اللّغات السّاميّة؛ ويستند المعنى الأعمّ - وهو المستخدَم مسبّقاً - إلى كلمة هلال المشتقّة من العربيّة، لكنّ المعنى المرجّح موجودٌ في أنشودة نيكال والكوثرات حيث يظهر إله القمر بهيئةٍ بارزةٍ، وقد استُخدم مصطلحٌ موازٍ له، وهو المنجل ومن المحتمل أنّ الرّابط بين آلهة القمر والخصوبة موجودٌ في الدّورة الشّهريّة أو "الحيض"!.

وي‌مكن أنْ نجد الظّاهرة نفسها في الميثولوجيا الإغريقيّة القديمة، وذلك لدى إلهة القمر "أرتميس" فهي معروفةٌ بارتباطها بالحَبل والخصوبة.

ويمكن مع ذلك أنْ نُدرج التّفسيرات تحت الجذر العبريّ (hll) بمعنى (يتألّق) أو (يهلّل) بينما نجد المصطلح الأخير (snnt) بصعوبةٍ كبيرةٍ، لأنّ ترجمة كلمة سُنونو مبنيّة على كلمة "sinuntu" الأشوريّة، وأمّا الجذر "snnt" فيمكن ربطه مع معنى التّألّق في العربيّة والآراميّة، ومن دون أنْ نبتعد عن هذه النّصوص المحدّدة، نجد أنّ هذه القضيّة لن يتمّ حلّها حلّاً نهائيّاً.

تخبرنا «ملحمة أقهات» ذاتها بأيّ حالٍ عن الخاصّيّة الحقيقيّة لعمل الكوثرات، ويبدو أنّ هذه المجموعة من الآلهة كانوا رعاة الخصوبة والولادة، حيثُ تمنّى دَانِيآل استرضاءهم تحقيقاً لرغبته في حصولهِ على ولدٍ، وكانت الوسائلُ الّتي استخدمها، تكرارَه تقديمَ الطّعام والشّراب لهنّ؛ ووضح - في نصٍّ مجتزىءٍ للغاية - بعد مغادرتهنّ له أنّ زوجة دَانِيآل حاملٌ، وبدأ دَانِيآل يعدّ شهور الحمل، وتستمرّ القصّة لتروي كيف كبر أقهات بن دَانِيآل.

ويُظهِر لنا أيضاً نصٌّ أوغاريتيٌّ آخر هذه الموهبةَ الّتي تملكها الكوثرات:

(1) المرجع السّابق نفسه ص.106، (1977).

أغنّي لنيكالَ وإب

وخرخبَ ملكِ الصّيف، خرخب

ملك ...[AGZT]

يارح كانت ملتهبةً وعانقتها

الابنة، ستمنح الحَبل

الكوثرات المضيئات كبنات الهلال

انتبه! إنّ البكر ستلد ابناً

[(يمكن)] لعينها [...] أن تحصل رزقاً

ولدمها الطّريّ

والخمر: للفتاة المخطوبة

اسمع الآلهة الكوثرات

نعم الكوثرات، المضيئات كبنات الهلال

يارح مصباح السّماء (إله القمر) أرسل (كلمة)

أنا أنشد للآلهة الكوثرات

المضيئات كأنّهنّ (بنات) الهلال، لبنات

الهلال، سيّد المنجل القادم إلينا ومعه

[‘RGZM] ومعه [GBZT DM][1]

(1) جيبسون، الخرافات والأساطير الكنعانيّة (1977)، ص. 129. لا يضع جيبسون

بكلّ تأكيدٍ سيكون انتصاري مع الإله أيل المحجوب (Latipan)

لطفاً أيّها الإله ! انظر! في فمي تعويذتهم!

على شفتيَّ صيغتهم

مهرها وهديّة زفافها ستكون في حضورها مع الصّراخ[1]

بحضور بربخت

اسمح للآلهة الشّابّة كوثرات بأن تنشد![2]

شدّت الأسطر الأخيرة من هذه القصيدة اهتمام الكثير من الباحثين عن عدد الكوثرات! ونظراً لقلّة الأدلّة على عددها ضمن مخزون المراجع المتوفّرة عن الكوثرات، فإنّ من الصّعب معرفةَ ما إذا كان حتّى الشّعب الأوغاريتيّ القديم قد امتلك هذه المعلومة أم لا. ولعلّ الكوثرات مجرّدُ مجموعةٍ غيرِ معروفة العدد من الآلهة؛ وبالتّأكيد إنَّ العدد أكثر من اثنتين، لأنّ صيغة الجمع تؤكّد ذلك، فإذا كانت الكوثرات زوجاً من الآلهة فقط، فقد وجب في المقابل أنْ نحصل على زوجٍ من الأسماء فقط، كما هو الحال في "كوثر وحاسيس" (الّذي يبدو أنّه سقط في وقتٍ لاحقٍ ليصبح إلهاً واحداً).

تدور قصّة "أقهات" حول دَانِيآل الذي يقدّم الطّعام والشّراب لهنّ لأيّام عدّةٍ، ولا يبدو أنّها تشير إلى أنَّ عددهم لا يمكن قياسه بالنّسبة له، وعلى الرّغم من ذلك، نجد أنَّ العديد من الباحثين استخدموا الأسطر الأخيرة

تفسيراً لهذه الكلمات، مكتفياً بالقول: إنّهم «على ما يبدو أدويةٌ أو وصفاتٌ للاستخدام عند الولادة، يظهر الأوّل في النّصّ الأبقراطيّ CTA 161 10 و ربّما كان الثّاني لمنع نزف الدّماء (قارن مع العنصر DM)".

(1) لا يقدّم جيبسون تفسيراً للكلمة « yttqt".

(2) يذكر جيبسون نيكال والكوثرات في السّطور 1-11، 15-16، 40-50 (1977) ص. 128-129.

من هذه القصيدة لطرح وجهات نظرٍ مختلِفةٍ حول عدد الكوثرات.

أعاد جيبسون صوغ وترجمة الأسطر 45 - 50، كما الآتي:

انظر! في فمي تعويذتهم

على شفتيَّ صيغتهم

مهرها وهديّة زفافها ستكون

... في حضورها مع الصّراخ[1]

بحضور بربخت

اسمح للآلهة الشّابّة كوثرات بأن تنشد!.

أيّ ترجمة لهذه الأسطر ستكون مفتوحة للنّقدِ لأنّ الكلمات المستخدمة غير معروفة. وأحد الحلول قد تمّ طرحه من يوهانس دي مور، الّذي يفسر معظم الأسطر الأربعة الأخيرة كقائمة بأسماء الكوثرات:

انظر! إنّ قائمة أسمائهم موجودةٌ في فمي، وتعدادهم على شفتيّ:

ثيلوخوها ومولوغو-هيا، و ثاتيقاتو، و باقيتو، و تياتو، مع بيروبخثي، داميقتو، أصغر الكاثيراتو.[2]

يعلّق "دي مور" بأنَّ عدد الكوثرات هو سبعةٌ[3] كما الحال عند نظيراتها البابليّة "Shassuratu". ومع ذلك، لا يرى جيبسون أنَّ عدد الكوثرات مذكورٌ في المقطع السّابق، فكانت مشكلة التّرجمة لدى جيبسون، هي أنّه

(1) لا يقدّم جيبسون تفسيراً للكلمة « yttqt".

(2) دي مور، مختاراتٌ من النّصوص الدّينيّة في أوغاريت (1987)، ص. 145.

(3) دي مور (1987)، ص. 145.

قدّم خاصّيّة الشّباب في مناقشة الكوثرات، ولم تكن موجودةً في توصيف الأسماء.

لهذا السّبب فإنّنا نفضّل طريقة دي مور في تفسير الكلمتين الأخيرتين في المقطع «Isgrt ktrt" على أنّها أصغر الكوثرات؛ مع العثور على تشابهٍ قاعديٍّ لهذا الأنموذج في سفر أخبار الأيام الثاني 21: 17، حيث نقرأ عن "يَهُوآحَاز" أصغر أبنائه: {فَصَعِدُوا إِلَى يَهُوذَا وَافْتَتَحُوهَا، وَسَبَوْا كُلَّ الأَمْوَالِ الْمَوْجُودَةِ فِي بَيْتِ الْمَلِكِ مَعَ بَنِيهِ وَنِسَائِهِ أَيْضًا، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ ابْنٌ إِلاَّ يَهُوآحَازُ أَصْغَرُ بَنِيهِ}.

ولم نعتقد بأنَّ المصطلحات جميعها يمكن أنْ تُفَسّر على أنّها أسماء، وللوصول بذلك إلى الرّقم نفسه كما هو الحال في مجموعة الآلهة البابليّة، آلهة الزّواج.

وقد اقترح "فريد لوكغارد" طريقاً وسطاً لإعادة رسم النّصّ:

"قائمتهم ليست في فمي، عددهم ليس على شفتيّ، طعم الـهوى (الرّغبة) أرضعه لك، سعيه لتغذية هابكات وتقديمه الغذاء لهنّ لدرء جوعهنّ، على عاتق ميكات الّتي كانت أصغرَ اللّطيفات».[1]

لقد قام لوكغارد بتبديل الكلمة الأولى من هذا القسم (هن-hn) إلى (in) الذي يمثّل استخدامه للنّفي في السّطر الأوّل.

كانت هذه الحركة غير ضروريّةٍ، بل إنّها تعارضت مع ما بقي من المقطع! فقد تمّ في تفسير لوكغارد تقديم بعضٍ من الكلمات كأسماء، وغيرها كهدايا، أو أجزاءٍ لجسم الكوثرات، وكما هو الحال مع جميع الباحثين المهتمّين بتفسير هذا المقطع، كان لوكغارد يعتمد على العربيّة كثيراً؛ إذ يبدو أنَّ القليل فقط

(1) لوكغارد، ص. 56، «The Canaanite Divine Wetnurses" في Studia Theologica (10 (1956.

قد بقي للمساعدة في فكّ رموز هذا النّصّ المعقّد، والحقيقة بالنّسبة للجزء الأكبر من المؤيدين للوكغارد حول الكلمات غير المسماة موجودةٌ في المقطع: (tlh, mlg, yttqt, tqt, prbh). وقد استخدم اللّغة العربيّة ليوضح تلك الحقيقة، حيث يمكن أنْ ترتبط بكلماتٍ شائعةٍ نسبيّاً ومثمرةٍ، حتّى إنّها شائعة الاستخدام، ويمكن أنْ نجدها في أكبر القواميس.[1] ولهذه الأسباب نحن نؤيّد تعدادهم بثلاثةٍ بينما لو فرضنا أنَّ عددهم سبعةٌ، فسيكون ذلك بدافع الرّغبة لربط الكوثرات بقوّةٍ مع آلهة الزّواج البابليّة (Shassuratu)، في حين لم يُنصف تقديم جيبسون التفسير الأكثر وضوحاً لآخر سطرٍ في القصيدة!.

بنات الله ضمن أحكام الكوثر

نفترض وجود ثلاث بناتٍ عند الله قبل الإسلام، وهنّ اللّات والعُزّى ومناة، وأنّهنّ دخلن بهيئةٍ ثانويّةٍ منحشراتٍ ضمن أحكام الكوثر على النّحو التّالي:

1ـ صوّر القرآن ثلاث بناتٍ عند تجمعهنّ وكأنهنّ مجموعةٌ حصريّةٌ، ويُشار إلى مناةَ تحديداً بالثّلث الثّالث، وكانت آخرهنّ، وقد كانت الآلهةَ الأنثويّةَ الباقية في منطقة الجزيرة العربيّة في زمن محمّد. وإذا كان النّبيّ محمّدٌ بوضوحٍ، يدين بالشّرك، أو كانت تسمية الملائكة في زمنه تسمية أنثويّة، فلا ينبغي أن يكون هناك أيّ سببٍ لجمع هؤلاء الثّلاثة في هيئة مجموعةٍ حصريّةٍ، وهو ما يعني ضمناً أنّه لايوجد هناك ما يزيد عن هؤلاء الثّلاثة. ومن الواضح أنَّ محمّداً يشجب هؤلاء الثّلاثة معاً كأنّهنّ مجموعةٌ واحدةٌ، وهو ما كان مَفهوماً لجمهوره.

---

(1) قارن، malaj "لامتصاص (الحليب)"، و qut "لتطعم، تغذية"، و barbah "مجراة، القناة". انظر أيضاً سفر نشيد الأناشيد 13:4، šelah بالنسبة إلى tlh.

2ـ يبدو أنّ طلب الشّفاعة من ثلاث بناتٍ قد كان سبباً لإنجاب الأطفال، وعلى وجه الخصوص، الأبناء، وتبدو هذه الحقيقة متأصّلةً في حجّة محمّدٍ ضدّ مفهوم هذه الآلهة الإناث، لأنّه يسخر من النّاس عندما يقول: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى}؟! و لدينا الآن شرحٌ لما تمّ تفسيره بطريقةٍ خاطئةٍ، فقد سأل محمّدٌ: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} (سورة البقرة، الآية 255)، وأيضاً في: {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ} (سورة النّجم، الآية 26).

3ـ هناك إمكانٌ لسجالٍ ما، يرجع لسورة الكوثر حيث نجد أنّ الله أكّد لذريّة مؤمنيه إعطاءهم ينبوعاً وسمّاه «الْكَوْثَرَ»[1] كما في قوله: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} بمعنى لا أبناء له، خصوصاً أنّ هنالك إدغاماً في الحرف (و) والجذر الصّريح (كثر)، حيث يمكن أن يكون محاولةً في اللّغة لتقديم الحرف الصّوتيّ (و) ممدوداً، وعلى الأرجح أن تكون هذه اللّغة معاكَسَةً للعربيّة خضعت لتحوّل ما كالكنعانيّة؛ وفي هذه الحالة، يؤكّد الله لشعبه أنّهم لن يفتقروا إنجاب الأطفال، فقد نالوا الكوثر، والله هو من أعطاها لهم.

4ـ انتقل إله القمر «هُبل» إله الموآبيّة (سكّان أرض موآب الّتي تقع جنوب البحر الميّت) إلى مكّة، ومن المرجّح أنّه جَلَبَ معه تقاليدَ قديمةً عن إله القمر، والتي يمكن أن تتضمّن احترام القوى لبناته.

وتُنتِج هذه الحاجةُ ما يملأ الأدوار مع الآلهة الأساسيّة، فإذا كانت الحجج لكون الكوثرات في العدد ثلاثةً صحيحةً، فسوف نلحظ توازياً قابلاً للبرهان بين (dmqt sgrt ktrt) وهي أصغر/ ألطف الكوثرات ومناة

(1) اقتُبستْ هذه السّورة من القرآن من سيجرت (1984) ص.190، وغوردون (1965) ص.425، كعلاقة محتملة مع الإله «كوثر وحاسيس»، بدون أيّة صلةٍ مع الكوثرات، لكن يمكن إعادة النّظر في الأمر الآن.

الثّالثة والأخيرة بينهنّ.

5ـ إنّ ربط محمّدٍ البنات الثّلاث مع الله لم يُذكر حقاً، ومن ثمّ فإنّ عبارة «بنات الله» هي غير قرآنيّة، بل كانوا مساوين للمعبود الأوّل، كما كان الله بالنّسبة للآخرين، ولا سيّما لمن كان مرتبطاً بالكعبة؛ وكان اسم المعبود الرّئيس فيها «هُبل» إله القمر، حيث كان إله القمر يُعبد قبل الإسلام منذ عهد الممالك العربيّة الجنوبيّة القديمة.

يبدو أنّ هذه الطّقوس قد نجت حتّى زمن محمّدٍ، كما يتّضح من إدانته لعبادتهم جنباً إلى جنبٍ مع الآلهة الأخرى في:{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} (سورة نوح، الآيتان 15 ـ 16). حيثُ يؤكّد النّبيّ نوحُ في هذه السّورة خلق الله للسّماء، بما في ذلك الأجرام السّماويّة الّتي كان النّاس يعبدونها، ومع ذلك، أصرّ النّاس على ما قالوا: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} (سورة نوح، الآية رقم 23).

فإذا كانت هذه النّظريّة صحيحةً، فلا ينبغي أنّ تنسجم صورة هذه الآلهة الثّلاثة المقدمة في سورة النجم مع الأدلّة الهزيلة لدينا من النّقوش العربيّة قبل الإسلام.

وضمن مستوىً واحدٍ كان لهذه الآلهة كياناتٌ منفصلةٌ تتمتّع بالتّفوّق في تفرّدها من جهةٍ، وهي من جهةٍ أخرى فعّالة بهيئةٍ ثانويّةٍ كثلاثٍ بناتٍ لإله القمر، مشتهرات بقوّة الشّفاعة نيابةً عن أولئك الّذين سعوا وراء الحَبل، أو لولادةٍ آمنةٍ. ويمكن مع فصل هذا الجانب عن بقيّة الأدلّة إجراء مزيدٍ من البحوث لاستكشاف الحلول الّتي تؤدّي إلى فهمٍ أفضلَ لهذه الحقبة الّتي لا تزال غامضةً في الدّين العربيّ.

المُلحَق

هويّة الكوثرات

بين الكثير من الآلهة الأوغاريتيّة ـ كما في العنوان أعلاه ـ نجد معبد الآلهة الكوثرات، آلهة الخصوبة والحَبَل، ونتيجة لطبيعة النّصوص المتقطعة الّتي تخصّهنَّ بالذِّكر، تمّت مناقشة أكثر من جانبٍ للكوثرات، ونعتقد في الأحوال كلّها أنَّ الفحص الدّقيق للأدلّة سيكشف لنا ما اعتقده النّاس ضمن أوغاريت بتمثيل الكوثرات فلكيّاً بثلاث نجماتٍ في كنف الدّبّ الأكبر.

بدت الكوثرات كمجموعةِ آلهةٍ أنثويّةٍ ثلاثةٍ أو ربّما سبعةٍ في العدد، والمرتبطةٍ مع بعضها بالحبَل، وربما بالولادة والتمريض أيضاً، ومن المرجّح لهذا الاتّصال المتين أن يكون بين الكوثرات والسّرير الإلهيّ في نشيد نيكال وإب والمصادر التي مكنت دَانِيآل في حصوله على ولدٍ بعد قيامه بضيافة الكوثرات. وقد نكون قادرين لأن نستخلص من قصّة دَانِيآل أنّ قربان الطّعامَ والشّرابَ قد لعب دوراً هامّاً في الاستعانة بهنّ، وتشير كذلك الصّفة المستخدَمَة لتعريف هويّاتهنَّ ببنات الهلال أنّهنّ على اتّصالٍ مع واحدٍ من الآلهة السّماويّة الأوغاريتيّة. وبصرف النّظر عن ذلك، لا يوجد عنهنَّ ما يُقال قولاً دقيقاً إلّا القليل.

الكوثرات ومجموعة الدّبّ الأكبر

إنّ تعريف الكوثرات على أنّها بنات الهلال (إله القمر)، يوفّر إمكانية مثيرة بأنّ هذه الآلهة كانت مَلامِح ليل السّماء أيضاً، وبما أنّ شخصية القمر (يارح) والشّمس (شابش) شخصيّات معروفة، فإنّ الأساس الفلكي للكوثرات قد يكون في هَيْئة النّجوم، أو أنّها كوكبة،[1] وإحدى أوصاف

(1) شاهار (إله الشمس المشرقة)، وشاليم (إله الشمس الغاربة)، اثنان من الآلهة

الكوثرات هي قصّة الأخوات "أقهات" المطعّمة بتقاليدَ فلكيّةٍ من ثقافاتٍ ساميّةٍ أخرى، وقد وفّرت لنا تلميحاً عن هذه الكويكبات.

وقد قيل عن هذه الآلِهة:

"[y]d[ʿ]t.n'my.'rš.h[r]m ysmsmt.'rš.hlln

(مضيئة، تملك المعرفة بالسّرير الإلهيّ المؤدّي لمتعة الحَبل، والسّرور في سرير الولادة الإلهيّ)».

وتعني هنا كلمة «سرير» المستخدمة: أورسا الرّئيسة [1] وأورسا الثّانويّة (الدّبّ الأكبر والدّبّ الأصغر) في المصادر السّريانيّة.[2]

كما وُجد في مصادر اللّغة العربيّة اسمٌ آخر للأبراج «نعش»، وعلى الرّغم من تشابه المعنى، لكنّ الاختلاف بين السّريانيّة والعربيّة وُجِدَ في مكانٍ آخر! فمع تشابه الأساس نفسِه في هذه اللّغات، مثل السّرير، والنّعش الإلهيّ[3] ومثل النّجوم الأربعة الّتي تصنع المربّع لِما يُسمّى بالسّرير، حيث كانت النّجوم المرافقة الثّلاثة المسمّاة بناتِ السّرير تُدعى بالعربيّة «بنات

المولودة حديثاً، جرى التّعرّف عليهما مع كوكبة الجوزاء. انظر جيبسون (1977) .29

(1) كلمة أورسا Ursa يمكن أن تتشابه مع الجذر السّاميّ rš. بينما تعني الكلمة اللاتينيّة الدّبّ "bear". ومن المثير للاهتمام، عندما استعار العرب كلمة الكوكبة من الأوروبيين ترجموها إلى العربيّة لتصبح: دبّ. و اقترض الرّومان أيضاً الاسم من اللّغة السّاميّة لكلمة الكوكبة، ويمكن أنّهم أعادوا صوغها لتصبح أورسا. ونظراً لبروز الكوثرات في أوغاريت، كما يتّضح من ظهورها في قوائم التّضحية، والأساطير المختلفة. سوف نجادل في أنّهم فسّروها على أنّها أكبر الدّبّين. بيد أنّ حجّتي سوف تخدم كلا الكوكبتين على قدم المساواة.

(2) انظر ر. باين سميث، Thesaurus Syriacus المجلد. 2. (1801) 2994؛ Drower and Macuch، قاموس المندائية (1963) 38.

(3) لين، (1863 [1955]) 2816.

النّعش» وبالسّريانيّة «بنات أورسا» فمن غير المرجّح أن يكون السّرير هو الأب الفعليّ، وما هو أكثر من ذلك أنّ على البنات أن يجدن علاقةً أخرى لتربطهنّ بالسّرير. وتؤكّد الأسطورةِ البدويّة الّتي تصف بنات نعْش على أنّها كياناتٌ سماويّة.[1]

نجد في القصّة سبع بناتٍ يحملن والدَهن الميْتَ على نعش يلفظن اسمهنّ، وكانت النّجوم السّبع - أي البنات - يصنعن الكوكبة.[2] وفي القَصص العربيّة والسّريانيّة الأخرى كان عدد البنات ثلاثَ نجماتٍ فقط، بينما تغيّر مفهوم النّعش من رائحة الموت في الأسطورة البدويّة إلى السّرير بمعناه الجنسيّ الشّهوانيّ في أساطير الكوثرات.

قد يمكن اقتراح أصلٍ مشابهٍ لهذا الاسم على أساس نصّ نشيد نيكال ففي هذا النّشيد، يسعى يارح وهو الإله نفسه ـ أي الهلال ـ للزّواج والنّسل. وكما هو مذكورٌ في الأسطورة البدويّة، تصبح الكوثرات بعد ذلك مُعرَّفةً أكثر بـ (العرش) السّماويّ عَبْر مآثر والدهنّ؛ ولكونهنّ آلهةَ الحبَل، يقفن بجانب السّرير الإلهيّ في السّماء، لضمان خصوبته. ويمكن إدراجها بهذه الرؤية، سواءَ كان عدد الكوثرات ثلاثاً أو سبعاً، وذلك بالنّظر إلى التّباين في المصادر العربيّة.

قد يزيد جانبٌ آخر من نشيد نيكال من تأكيد هذه الهويّة، ففي بداية هذا النّشيد نجد إشارةً إلى التّالي:

---

(1) برجشتريسر، مقدّمة إلى اللّغات السّاميّة (1983) 200-201.

(2) في اللغة العربيّة، إنّ «ابن» هو الإشارة إلى نجمٍ واحدٍ من كوكبة. ولكن منذ أن كان العرب يعتقدون بأنّ جمع غير العاقل يكون مؤنّثاً، فقد تمّ استخدام كلمة «بنات» في الجمع، وهذه الحالة نحويّةٌ بحتةٌ. ومع ذلك تبيّن أسطورة البدو أن «البنات» كانت مفهومةً ككيانات أنثويّة على المستوى الشّعبيّ. إذاً كان استخدام «ابن» في صيغة المفرد هو استخدام نحويّ بحت في هذه الحالة.

(hrhb.mlk qz hrhb mlk agzt)

"خرخب ملك الصيف، خرخب ملك ...".

ويترك جيبسون المصطلح "agzt" من دون ترجمة، لكنّه يضيف أنّه "من المحتَمَل أن يكون موسم الإغارة (أي الخريف)".[1] وبكلّ تأكيد فإنّ هذا المصطلح مرادفٌ ـ بطريقةٍ ما ـ لفصل الصّيف، ومع ذلك لم تكن الغزوات تُقام إلّا في فصل الخريف، إذاً فإن «موسم الإغارة» يعني فصل الخريف. ويبدو في سفر القضاة 6: 3 وما يليها، أنّ المِديانيّين والعَمالِقة يصعدون للهُجومِ على الإسرائيليّين في الرّبيع، ويدمِّرونَ محصولهم من الزّرع، ومحاولةُ جدعونَ لإخفائه عنهم؛ ويشهد نصٌّ عربيٌّ جنوبيٌّ قديم (ري 506: 3-2) على غارة الرّبيع أيضاً: "غزا قبيلةَ معدٍ في غزوةِ الرَّبيعِ»[2]. وإذا كانت هذه الهجمات مرادفةٌ للخريف، فقد تكون هناك حاجة لتحديد هجمات الرّبيع بالأسلوب نفسه، وستكون وسيلةً للإشارة إلى هجمات الرّبيع الّتي كانت - إذا جاز التّعبير - عرفاً متّبعاً. تأمّل على سبيل المثال في عبارة «تنظيف الربيع» (Cleaning Spring) باللّغة الإنكليزيّة.

وقد يكون ذلك ذو أهمية لتعريف الكوثرات بأنّها أورسا الكبرى! لأنّه من وجهة النّظر الفلسطينيّة فإنّ أورسا الكبرى هي الوحيدة المرئيّة بصورةٍ كاملةٍ في الرّبيع والصّيف. إذاً كانت هذه الكوكبة تقضي نصف اليوم في الأفق. وفي الشّتاء والخريف، تسقط في ضوء النّهار، وبذلك لا تتمّ رؤية هذه الكوكبة.[3] ويمكن في الرّبيع والصّيف رؤيتها في الأفق ليلاً.

(1) جيبسون، (1977) 128 رقم. 2. انظر دي مور، ص. 142، لترجمةٍ مختلفة جدّاً.

(2) G. Ryckmans، Le Muséon ، 66(1953) 278. ويفسر بقوله، "Il s'agit de la razzia de printeps...c'est la saison à laquelle les rois se metent en champagne" (المرجع نفسه 280).

(3) نتوجّه بالشّكر إلى البروفسور جلين كوبر من قسم الفلك في جامعة ويسكونسن ماديسون للمساعدة في حساب مواقع هذه الكوكبة.

ومن المثير للاهتمام، أنّ النشيد الّذي يذكر مآثر الكوثرات يشير إلى هذين الفصلين.

إنّ تعريف الكوثرات على أساس أنّها نجوم يشير إلى أنّها مضيئةٌ ومشتعلةٌ، ويؤكّد لنا تقديماً أفضلَ لكلمة (snnt) بمعنى التّوهّج، حيث يمكن أن نترجم (Ktrt bnt hll snnt) بـ (الكوثرات بنات هلل المضيئات) حتّى لو لم تكن كذلك، فإنّ الكوثرات وبكلّ تأكيدٍ معروفةٌ على أنّها نجوم الأورسا الكبرى، أو أنَّ الكوكبة مرتبطةٌ معهنّ بمعنىً مماثلٍ لما استخدمه الرّومان والإغريق، ولا يمكن معرفته على وجه اليقين.

وُصفت النّجوم في أماكنَ عدّة من الإنجيل العبريّ بمصطلحات ميثولوجيّة من شأنها أن تعني الوكالة. وقيل: إنّهم حصلوا على المساعدة في محاربة سيسرا، كما في: {مِنَ السَّمَاوَاتِ حَارَبُوا. الْكَوَاكِبُ مِنْ حُبُكِهَا حَارَبَتْ سِيسَرَا} (سفر القضاة 5:20)، وأيضاً في: {عِنْدَمَا تَرَنَّمَتْ كَوَاكِبُ الصُّبْحِ مَعًا، وَهَتَفَ بَنو الله جميعهم} (سفر أيّوب 38: 7). وهذه الإشارة تُعرّف النّجوم على أنّها آلهةٌ ثانويّةٌ في البانثيون (معبد الآلهة كلّها). ويمكن أيضاً ربط هذه الكوكبة بالكوثرات لعلاقتها بالسّرير الإلهيّ، أمّا بالنّسبة لعلاقتهنّ بالقمر الجديد، فلربّما سيكون الثّقل لصالح المعرفة السّماويّة بالآلهة، وقد تظهر في المستقبل أدلّةٌ جديدةٌ قد تسلّط الضّوء على هذه المسألة.

الفصل السادس

بنات الله

بنات الله

فريدريك فيكتور وانيت

مقدّمة

لا تزال معرفتنا بالدّين العربيّ قبل الإسلام في حالةٍ من الفوضى إلى حدٍّ ما،[1] وينطبق هذا بصورةٍ خاصّةٍ على الجزء الشّمالّي من شبه الجزيرة. ولقد حافظت لنا النّقوش على أسماءِ عددٍ كبيرٍ من الآلهة، كما أضاف إلى القائمة المسلمون الأوائل من المهتمين بالآثار. لكن بالنّسبة لطبيعة هذه الآلهة والعلاقة الّتي تربط بينها، فلا يزال الكثير من هذه المعلومات موجوداً في الظّلام، ومن خلال تحليلي للنّقوش الثّموديّة[2] واللحيان، حاولتُ إدخال نوعٍ من النّظام على الفوضى السّائدة؛ فهذه الطّريقة في النّهج لديها ميزةٌ تجعل من الممكن ترتيب الإشارات إلى الآلهة وفقاً للتّوزيع الجغرافيّ، وحسب التّرتيب الزّمنيّ، وعندما يتمّ ذلك، تصبح بعضٌ من الحقائق واضحةً في الحال.

---

(1) النّقاشات للوثنيّة العربيّة هي لفيلهاوزن، Rest arabischen Heidentums، الإصدار الثّاني. 1897؛ مقالة نولدكه، "Arabs (Ancient)"، في موسوعة هاستينغ في الدّين والأخلاق، 1908؛ نيلسن، Handbuch der Altarabischen Altertumskunde، الفصل 5، 1927؛ قارن بارتون، الأصول السّاميّة والحاميّة، 1934، الفصل 7؛ ويليام روبرتسون سميث، الأديان السّاميّة، الإصدار الثّالث، كوك، 1927؛ و هومل، Ethnology und Geography des alten Orients، 1926، ص. 711 و ما يليها.

(2) دراسة في النّقوش اللّحيانيّة و الثّموديّة (مطبعة جامعة تورنتو، 1937).

اللّات والعُزّى ومناة

لن أحاول في المقال الحاليّ التّعامل مع الآلهة جميعها الّتي نعرف أسماءها، ولكن مع ثلاث إلاهات فقط، وهي اللّات والعُزّى ومناة؛ فهؤلاء يرتبط بعضهنّ مع بعضٍ في السّورة الثّالثة والخمسين من القرآن (سورة النّجم، الآية 19 وما يليها)، وعند السّعي لتعريف اللّات، ستجد أنّه من الضّروريّ إجراء دراسةٍ لكلٍّ من الثّلاثة، ومن الواضح في القرآن أنّ هذه الرّبّات الثّلاث نالت قدراً كبيراً من الاحترام والتّقدير عند العرب في مكّة، كما يُفهم الكثير من جدل محمّدٍ ضدّ تعدّد الآلهة على أنّه هجومٌ على عبادتهم؛ فمحمّدٌ يسخَر من فكرة أن يكنّ فعلاً "بناتِ الله"، وحفاظاً على الرّأي العام يقول وهو يصيح: ماذا؟! {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}؟!" ثمّ يقول عن هذه الآلهة: {أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ، وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (الآيات 21ـ 23).[1]

كذلك فإنّ حقيقة أنّ هذه "الإلهات" قد ذُكرنَ في القرآن، تعني أنّهنَّ نِلن قدراً معيّناً من الانتباه من شرّاح القرآن، ومعظم المعلومات الّتي جمعناها عنهم مستمدّةٌ من كتاب الأصنام لابن الكلبيّ[2] (القرن 18 ميلاديّ) حيث قيل: إنّ معبد اللّات موجودٌ في مدينة الطّائف الّتي تبعد نحو سبعين ميلاً شرق مكّة، وأنَّ سدنتها ينتمون إلى قبيلة ثقيف. أمّا العُزّى، فقد وُضعت بوادٍ من نخلة الشّاميّة، عن يمين المُصْعِد إلى العراق من مكّة، وذُكر من

(1) راجع (سورة الصافات: الآية 149-153)، حيثُ يسخر محمّد من فكرة وجود ملائكةٍ إناثٍ خلقها الله: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ}؟. وبما أنّ الآلهة الثّلاثِ الّتي ذُكرت أعلاه هي الآلهة الوحيدة المؤنّثة الّتي عُبدت في الشّمال العربيّ، فإنّ كلّ الإشارات الّتي تدلّ على ملائكةٍ إناثٍ تطبّق عليهم. ومن المهمّ أن نلحظ أنّهم يشغلون مرتبةً أدنى من الله، فقد كانوا مجرّد شفعاء، لكن ذو تأثيرٍ عظيم.

(2) كتاب الأصنام، محرر. أحمد زكي باشا، الإصدار الثّاني، القاهرة، 1924. لترجمة مرمرجي الفرنسيّة للإصدار الأوّل، انظر Reve biblique، XXXV (1926)، ص.397 وما يليها.

صفاتها المميّزة وجود ثلاثة أشجارٍ مقدّسةٍ من الأكاسيا (السمر) ومغارة تُسمّى الغبغب، وكان سدنتها من بني شيبان. أمّا مناة، فيوجد معبدٌ لها في وادي قديد بين مكّة ويثرب (المدينة)، ووفقاً لابن الكلبيّ، كانت مناة الإلهة المفضّلة عند القبائل الّتي سكنت يثرب (الأوس والخزرج)؛ بينما أَوْلى أهل مكّة للعُزّى أعظم تقديرٍ، ومثّلت كل واحدةٍ من هذه الآلهة الثّلاث بأعمدةٍ حجريّةٍ (نُصبٍ من الأحجار).

لم يوجد أدنى شكٍّ في صحّة المواقع الثّلاثة الّتي حدّدها ابن الكلبيّ كمعابدَ رئيسةٍ لهذه الآلهة في الحقبة الّتي سبقت ظهور الإسلام؛ لكنّنا سنرى لاحقاً أنّ هناك سبباً يجعلنا نعتقد أنّها موجودةٌ في مكانٍ آخر! حيث طرح ابن الكلبيّ المواقع كما كانت موجودةً على زمن محمّدٍ؛ لكنّ اكتشاف العديد من النّقوش الموجودة قبل الإسلام، مكّننا من إرجاع معرفتنا بها إلى عدّة قرونٍ قبل محمّدٍ.

فمثلاً، نحن نعرف الآن أنّ السّبئيّين في الجنوب العربيّ قد عبدوا الإلهة العُزّى، وهذا بسبب أربعة نقوشٍ سبئيّةٍ ([4]CIH 558، [lf.] 559، برلين 5313 VA [4]، موردتمان وشلوبيز، العدد، نقش، رقم ٤١) تشير إليها، ما عدا واحدةٍ ربّما تشير إلى مملكة مَعين ([3] ED Ar. I). ونعلم أيضاً أنّ اللّات كانت المفضّلة هناك، وذلك لأنّ العديد من العرب الجنوبيّين، حملوا اسم اللّات،[1] لكن لم يُلحظ ـ بصورةٍ عامّةٍ ـ أنّ هذه الآلهة

---

(1) في النقوش السّبئيّة: إن عبد اللات (CIH 715، 716 [3، 4، 5?.] Hal. 76)، وأوس اللات (CIH 287 [9، 10.] 305، 315 [13.] 352 [2.] 647.، R. 3211 (false)، وسعد اللّات (CIH 408 [1]، 455 [1])، وتيم اللّات (CIH 520 [3] [?])، و وهب اللّات (CIH 169، MM 99 [3])، وزيد اللّات (CIH)، حتى لو كانت M-g-d-l-t (CIH 19 [8])، و M-r-g-l-t (CIH 568)، N-s-l-t (CIH 434 [12]) أسماء اللّات. فهي أسماء غير مؤكدة.
وفي النّقوش المعينيّة: سعد اللّات (Hal. 577 [3])، تيم اللّات JS 57; T. of

ومن يعبدها لم يظهروا إلّا في النّقوش الّتي تعود إلى تواريخَ متأخّرةٍ نسبيّاً، حيث يمكن القول ـ على الأقلّ ـ : إنّ النّقوش وُجدت متأخّرةً، ويمكن التّأكّد من التّواريخ حيثما كانت، وهذا الاستنتاج يبرّر تأخرها.

تعود معظم المراجع السّبئيّة (CIH 287،305، 315، 352، 647،408،558، برلين VA 5313) إلى الحقبة الحمدانيّة وذلك يعني بعد العام 250 ميلاديّ، أمّا النّقش (CIH 517) فيعود إلى الحكم الذي يسبق هذه الحقبة مباشرةً، حيث يعود هذا النّقش (SE 78-79) إلى زمن ملك مملكة قتبان (شهر يجل يهرجب)، ليُؤرَّخ في أوائل القرن الأوّل الميلاديّ؛ أمّا المراجع الحضرموتيّة فترجع الى حكم الملك (يدع إب ذبيان)، وتبدو مراجع مملكة مَعِين أنّها الأحدث، لكنّها ليست أحدثَ من حكم الملك (إب يدع يائع) أي للقرن الرّابع قبل الميلاد. ومن الجدير باللّحظ أنّ معظم مراجع مملكة مَعِين تقع في الشّمال العربيّ، وهذا يبيّن لنا أنّه لا العُزّى ولا اللّات كانت من الآلِهة المحلّيّة في الجنوب، ولكنّها ظهرت فقط بعد أن أنشأ الجنوب مستعمراتِه التّجاريّةَ في الشّمال! فلو كانت أصليّةً، فيجب ـ من دون شكٍّ ـ أن نجد بعضاً من الإشارات إليها في النّصوص السّبئيّة المُبكِرَة، وإنّ غياب أيٍّ من هذه الإشارات يثبت أنّ مكان هذه الآلِهةِ الحقيقيَّ كان في الشّمال، ويؤكد لنا هذا حقيقة أنّ الأديان شمال وجنوب المنطقة العربيّة كانت ذاتَها أساساً، ويبدو أنّها قد تطوّرت بهيئةٍ مستقلّةٍ، وبدأ بعضها يتفاعل مع بعضٍ في مدّةٍ متأخّرةٍ نسبيّاً.

LVT LV LIV .EDAr 119 Rida' in JS)، وهب اللّات (JS 19 lih، نسخة معينيّة)، زيد اللّات (5] GL.1073 [5] Hal. 411]).
وفي النّقوش القطبانيّة: أوس اللّات (SE 78-79 [33])، سلام اللّات (SE 74).
وفي الحضرموتيّة: سعد اللّات (1] Langer 14]). ويوجد الاسم "أَمَةُ العُزى" في النّقش السّبئيّ CIH 558]6F.].

النّقوش العربيّة

إذا توجّهنا الآن إلى الشّمال، إلى المكان الصّحيح لهذه الآلهة، فسنجد أولى الإشارات إلى واحدةٍ منهنّ في صيغة اسم مناة، حيث توجد في نقش الدّيدانيّين (زيد مناة في النقش اللّحيانيّ 22 JS). وبالمناسبة هذا هو الدّليل الوحيد لدينا عن الآلهة الإناث اللّاتي يعبدهنّ الدّيدانيّون؛ وبالانتقال إلى النّصوص اللّحيانيّة، الّتي تليها في التّرتيب الزّمنيّ، نجد أنفسنا في مواجهة الله وبناتِه الثّلاث، حتّى إنّ الله نفسَه كان لديه منافسون من آلهتهم المتجسّدة في «بعل سمين» و«ذو الغابة»، لكنّ الآلهة الوحيدة الّتي ذُكرت هي اللّات ومناة والعُزّى، وقد استُدعيت مناة في النّقش (177 JS) كذلك جاءت بصيغٍ اسميّةٍ[1] مثل سادن اللّات (أفكل) الّذي ظهر في (277 JS). وحتّى الآن، لم يتمّ تأكيد وجود العُزّى في مملكة لحيان، وذلك على الرّغم من الاشتباه بوجود إشارةٍ لها في (36 JS). لكن اكتشافي في اللغة اللّحيانيّة، أنّ أداة التّعريف تُكتب (هن – han) قبل الكلمات الّتي تبدأ بحرفٍ حلقيٍّ،[2] أكّد الإشارة في (36 JS) من خلال الكشف عن وجود ذِكْرٍ آخرَ لهذه الآلهة في صيغة (هن–عزّى) في (58 JS).

وهكذا، فإنّ النّقوش لم تدعم تأكيد ابن الكلبيّ على أنّ العُزّى كانت أكثر حداثةً من اللّات ومناة، حيث كانت عند السّبئيّين "عزيان"، وعند اللّحيانيّين هن–عزّى، وسُمّيت عند النّبطيّين "عُزّية" و"العُزّى"، وسمّيت فيما بعد بين العرب العُزّى. وهكذا أصبح لدينا دليلٌ على أنّ عبادة الله وبناته الثّلاث، قد ازدهرت في المنطقة العربيّة لألف عامٍ قبل محمّدٍ، ويكون هذا صحيحاً، إذا كان تأريخي للنّقوش اللّحيانيّة في القرنين الرّابع والخامس قبل

(1) عب مناة (252 JS)، عبد مناة (8 JS)، عيد مناة (139 JS)، أوس مناة (10 JS)، نعم مناة (238 JS)، قسم مناة (367 JS)، شمس (355 JS)، تيّم مناة (256 JS)، زيد مناة (362، 316، 209، 165، 63 JS).

(2) انظر بحثي، ص. 16 وما يليها.

الميلاد صحيحاً.[1]

ننتقل الآن إلى النّقوش الثّموديّة الّتي تصنع دليلاً على عبادة هذه الآلِهة، وإنّنا لا نكاد نجد أثراً يُذكر عنهم في النّمطين الأُولين من الثّموديّة الّتي صنّفتها «أ» و«ب»، وهناك اثنان فقط من أسماء مناة في«الثّموديّة أ»[2]. لكن في «الثّموديّة ب» يوجه نداءاتٌ مكرورةٌ إلى اللهُ ولكن من دون ذكر بناتِه[3]. وتظهر اثنتان من هذه الآلِهة في أنماطٍ أخرى من الثّموديّة وهي: مناة في الأنموذج «ث»[4]، واللّات في الأنموذج «ج»[5]، لكنّ العُزّى لم تظهر في النّقوش الثّموديّة أبداً، بل أُخذ مكانُها، في «الثّموديّة ب»، من قِبَل آلِهةِ

(1) انظر بحثي، ص. 50 وما يليها. لأنّ السّؤال عن هذه النّقوش ليس ثابتاً. وفي رسالةٍ مؤرّخةٍ من 16 مارس 1939، يقدم السيد ويليام و. تارن أسباباً وجيهةً للتّشكيك بالمعادلة التي قدمتها عن جاشم بن شهر مع جشم العربيّ المذكور في سفر نحميا، والّتي اعتمدت أساساً فيها على تأريخ النّقوش. كذلك يسترعي انتباهي أيضاً إلى حقيقة أنّ إشارة أجاثارخيدس و ديودوروس إلى خليج "العقبة" ليست دليلاً على تاريخ مبكّرٍ للّحيانيّين، فهذا الاسم "Laeanitic" ليس له علاقة باللّحيانيّين؛ إنّها ليستْ إلّا بديلاً عن أو هجاءً خاطئاً للاسم "Aelanitic" (قارن. "ملحوظاتي عن النّقوش اللّحيانيّة والثّموديّة" في Le Musion، LI، 309 وما يليها). يعتقد تارن أنّ ملوك اللّحيانيّين ينتمون إلى العصر البلطميّ. وأنّه يجب الاعتراف بوجود أدلّة في النّقوش نفسها تدعم هذا الاعتقاد.

(2) Tilm(m)anat، Nasa'manat (JS 402) أو Manatnatan (JS 652). لقد قرأت مسبقاً اللات في (JS 519، 521)، شاهد ترجمتي المنقحة عن هذه النّصوص Le Musion، LI، ص. 305).

(3) ربّما يوجد إشارةٌ للّات في النّقش (Hu. 89 1131، 281 1151، 300 1821، اللّات). ومن الأفضل قراءة النّصّ الأخير «اللّهمّ (ليس اللّات) فكَّ (sanna) سَحر (tawl) لاعني (sabbi) و أنا أدد".

(4) عبد مناة (JS 1، 584)، ألكمناة (JS 188)، أو سمناة ([HU 308 [2]). أنّ مؤلّفي النّصوص "C" يتسمّون بإلحادهم، إذا كان أحدٌ قد حكم بـأسمائهم، فعددٌ قليلٌ منها له مظهرٌ ثيفوريٌّ (JS، 21، 23، 610، 619 19). لكنّ النّصوص "ث" أفضل بقليلٍ.

(5) JS،596 ، 655، 670، 98، 728 179، ونقش ثيوفيل جيمس ميك. ظهر اسم اللّات مرّةً واحدةً فقط، و هو سعد اللّات (JS 27).

أخرى، تُدعى رضو.

أمّا في النّقوش النّبطيّة فلم يظهر الله، على الرّغم من أنّ العديد من النّبطيّين حملوا اسم الله،[1] غير أنّ بنات الله قد ظهرن مرّاتٍ عدّة، حيث تمثّلت اللّات في نقشٍ في العلا (JS 212) والحجر (CIS ii.198)، حيثُ دُعيت اللّات من "أمناد" إذا كانت القراءة صحيحةً)، ومرّاتٍ عدّة في جبل رام (إلى الشّرق من رأس خليج العقبة)، حيثُ كان يوجد تمثال مبنيٌّ على شرفها.[2] ولم يتمّ العثور على ما يشير إليها في البتراء، على الرّغم من أنّ اثنين من الأنباط ـ على الأقلّ ـ حملا اسم اللّات.[3] ونجد في أقصى الشّمال، أي في حوران اثنين من معابدها، الأوّل في البُصرى[4]، والآخر في صلخد جنوب جبل الدّروز،[5] ويتمّ إحياء ذكرى تأسيس هذا المعبد الأخير في السّنة السّابعة عشرة لملك النّبطيّين، مالك بن الحارث في النّقش (CIS ii. 182).[6]

(1) وقد تمّ إضافة أسماء ملك اللاّت (Rev. Bib. XLI، 591، رقم 2،1)، و وهب اللّات في النّسخة اليونانيّة لرام "G. Ramm" (Rev. Bib. XLIV،264) إلى القائمة في كونتينو، "Le Nabatéen".

(2) Rev. Bib. XLI، ص. 591 - 593، رقم.1-3؛ XLII، ص. 408-422، رقم. 3، 5، 7-11، 13-15؛ قارن أيضاً النّقش اليونانيّ، ص. 406، رقم. 2، حيث أُشير إلى اللّات "كآلهة"؛ XLIII، ص. 574، رقم. 16؛ ص. 577، رقم. 20؛ XLIV، رقم. 266. لوصف المعبد انظر XLIV، ص. 245-278. إنّها مؤرّخة منذ عهد الملك النّبطيّ ربّ إيل الثّاني (70-106 م)، لهذا يُفترض أنّ النّقوش تعود الى تلك المدّة أو ما بعدها.

(3) أمةُ اللاّت (R. 837)، شلم اللاّت (CIS ii. 453). ليس مؤكّداً أن Sh-q-y-i-t هو اسم اللّات (CIS ii. 351 إلخ.).

(4) في نقشٍ آخر لغرام يشير إليها «الآلهة اللاّت هي في بصرى»، لهذا يجب أن يكون لها معبدٌ هناك.

(5) قارن. دي فوغي، Syrie central، I، 107، 119.

(6) المرجع هو لمالك الثاني، مؤرّخه كاميرير إلى 40-71 م. سنته السّابعة عشرة ستكون عام 57 م. الكوربس حددها عام 50 م، وكوك (North Sem، نقش، ص.253)

وهناك إشارةٌ إلى "اللّات و"wg-r" (=؟) في (CIS ii.183) من صلخد، بينما تُسمّى سيّدة المكان "ربة العثر" في ل. 24 (من صلخد أيضاً)، وهناك إشارةٌ أخرى لها وُجدت في (CIS ii.170) شمال شرق البصرة. أمّا عبارة "اللّات، أمّ الآلِهة" في (CIS ii. 185) فليس لها أساسٌ من الصّحّة، كما أوضح كليرمونت غانو (راجع، D'Arch Ologie Orientale، ii، ص. 374، رقم 3؛ 4 ص. 181).

لم تذكر النّقوش الصّفويّة من منطقة جنوب شرق دمشق سوى اثنين من الآلِهة، اللّات و رضو، ومن الغريب القول: إنّه لا وجود للّات[1] أو رضو كأسماءٍ منفصلةٍ على حدّ علمي؛ وقد أشرت مسبّقاً أنّه في «الثّموديّة ج» (هي نوعٌ من النّقوش الثّموديّة الأكثر ارتباطاً بالنّقوش الصّفويّة) يظهر اسم اللّات مرّةً واحدةً فقط، على الرّغم من أنّ الدّعوات للآلِهة مكرورةٌ نسبيّاً، وهكذا ندرك أنّه في المناطق الّتي مُنحت اللّاتُ فيها أعظم تقديس، فإنّ أسماء اللّات غير موجودةٍ عمليّاً.

وباتّجاهنا أبعدَ إلى الشّمال في تدمر، نرى أنّ عبادة اللّات قد ترسّخت

عام 65 م. على أيّة حال، نحن نتصوّر أنّه في زمن يسوع النّاصريّ ازدهرت عبادة هذه الآلهة في الأردنّ.

(1) ذُكرت اللاّت في هذه النّصوص الصّفويّة التّالية (تختلف هذه القائمة نوعاً ما عن الّتي قدّمها ريكمانز في عمله، Les Noms Propers Sud-semitiques، 1، II، 31): D89، 97a، 124، 225، 312، 323، 398، DM 30، 62، 3؛ 141، 179، 191، 194، 198، 251 (-L 59)، 284، 317، 318، 337، 397، 467، 497، 502، 503، 513، 517، 546، 547، 550a، 731، 732، 742، 774، 854، 857؟، 282 (283b على اللّوح)، 306، 307، 84 .WD a(v.110a -)، 115، 190، 327 (v.381 -)، 328b، V 5a، 93b، 189، 191، 217، 218، 232، 234، 237، 323، 379، 389b، 402b؟. إذا كان، مع ديسو، التّكريس الّذي وُجد في حوران لأثينا يُقصد به اللّات، إذن سيزداد عدد الإشارات للآلهة (اللّات) بصورةٍ ملحوظةٍ. وقد تمّ بالتّأكيد تعريف اللّات و أثينا في تدمر بالاسم التّدمريّ تاج - الأمير، وهب اللّات، وهو في اليونانيّة أثينودوروس.

هناك بحدّ ذاتها، على الرّغم من أنّ آلهةً عدّةً كانت تُعبد هناك، لكن يبدو أنّ اللّات فقط هي الّتي ظهرت بصيغةٍ اسميّةٍ في الواقع، وإذا حكمنا من خلال النّقوش، وجدنا أنّ الكثير من التّدمريّين يحملون أسماء اللّات أكثر من أيّة جماعةٍ عربيّةٍ أخرى.[1] ومن ثمّ تشكّل تسمياتهم النّقيض تماماً لتلك الّتي في الصّفويّة؛ ونجد في النّقش (Vog. 8=Cant. V. 8) ، الّذي يعود تاريخه إلى سنة 129 م، إشارةً إلى الآلهة الجيّدة (شمس، و اللّات، و رحم)، وذُكر اسم (عشتار- اللّات) في النّقش (Cant. VI. 1)، ومن المحتمل أن يوجد ذكرٌ آخر لها في ([4] Can. II.1، قارن مع VI، ص. 6).

أنتقل الآن إلى الإلهة العزّى، حيث نجد الولاء لها في جبل رام[2] والبتراء[3] وسيناء[4] وبصرى،[5] كما يُقال في اثنين من هذه النّقوش، واحدٌ في البتراء (R.1088)، والآخر في جبل رام (Rev. bib.XLII، ص 413، رقم 4)، وهي مرتبطةٌ بإلهٍ ذَكَرٍ يُسمّى «ربّ البيت»، الذي يُعرف على الأرجح على أنّه «ذو الشّرى». ويبدو أنّه لا يمكن تطبيق عنوان «ربّ البيت» على أيّ إلهٍ فهو أُعطي فقط للإله «بعل شامين» في النّقش (Cant. VI.9)، ولُقِّب اللهُ بصفةٍ تماثله إلى حدٍّ بعيدٍ في القرآن (سورة قريش، الآية 3)، وكما أنَّ العزّى ربّما كانت رفيقةَ ذي الشَّرى هنا (لن أذهب إلى حدّ القول "القرين")، فكذلك تماماً كانت مناة في أقصى الجنوب، كما نالت العزّى أيضاً جمهوراً كبيراً عند بني لخم من الحيرة في العراق.

وفي الوقت الذي انتشرت فيه عبادة اللّات والعزّى على نطاقٍ واسعٍ،

---

(1) انظر كونتينو، Inventaire des inscriptions de palmyre.

(2) قارن، رقم4، Bib. XLII، ص 413 مع XLIII، ص575.، رقم.17.

(3) (ر. 1088).

(4) CIS ii.611=1236 (النّقش من سادن العزّى. عرب سيناء حملوا اسم عبد العزّى (CIS ii.946).

(5) النّقش L 70 (من بصرى) يدعو العُزّى "آلهة بصـ(رى)".

يبدو أنّ عبادة مناة لم تنتشر أبداً خارج الحجاز وهناك ثماني إشاراتٍ إلى مناة في النّقوش النّبطيّة؛[1] فجميعها باستثناء واحدةٍ منها، نجدها ترتبط مع "ذو الشّرى"، وهناك أربعة نقوشٍ نبطيّةٍ تحمل أسماء مناة،[2] لكن من المهمّ أنّ جميعها ظهرت في الحجر. ويبدو أنّ هذه الإلهة كانت شخصية محلّيّة جدّاً، تجذب العرب خارج الحجاز، واسمها الّذي يبدو أنّه متّصلٌ مع الجذر (منى) بمعنى « لقياس، لتقدير»، يشير إلى أنّها كانت إلهة الثّروة. والإله العبريّ «ماني» أو السعد الأصغر (اسمه مشتقٌّ من جذر الاسم نفسه) يرتبط في إشعياء 65:11 مع إله الثّروة، جاد أو السعد الأكبر. ممّا يشير إلى أنّ كلّاً منهما يحمل طابعاً مماثلاً، وهذا يشير بدوره إلى أنّ الإلهة العربيّة (مناة) ينبغي أن تُوضع في الفئة نفسها.

يعتقد بوهل (دائرة المعارف الإسلاميّة: مناة) أنّ اسم مناة هو صيغة جمعٍ آراميّةٌ مشابهةٌ لـ (mᵉnāwātā) جمع (mᵉnātā)، لكنّ لفظ الاسم في النّقوش اللّحيانيّة هو (m-n-t) وفي النّبطيّة (m-n-w-t-(u))، ويشير إلى أنه لفظٌ مزدوجٌ فهو (مناة) عند اللّحيانيّين و((mānōt(u)) عند النّبطيّين؛ ويدعم هذه النّظريّةَ وجودُ لفظين أيضاً في العربيّة الإسلاميّة، وهما (مناة) و(منوت). وأعتقد أنّ لفظ (مناة) العربيّ هو النّسخة الأصليّة، لأنّ الآلهة هي عربيّةٌ بالتّأكيد، وتمثّل منوتو أنموذجاً آراميّاً- نبطيّاً لاحقاً، وإنّ التّغيير في العربيّة من الألف الممدودة إلى واوٍ يُعدّ ظاهرةً شائعةً، ومن ثمّ فلا حاجة لشرح الاسم كجمعٍ آراميٍّ.

السّؤال الّذي يطرح نفسه الآن: هل من الممكن أن يُكتشف أيّ شيءٍ عن أصل هذه الآلهة، وعلاقتها بعضها مع بعضٍ؟

---

(1) CIS ii.197 [5], 198 [4،8], 206 [8], 217 [8], 224 [12], 320F, JS 142,201.

(2) عبد ماناتو (JS 17 [3])، تيم منوتي (CIS ii.283، JS 92 ،93). قارن أيضاً مع عبدومانوس هو النّقش اليونانيّ في جبل رام (XLIV.264).

في السّعي لوضع ردّ على هذا السّؤال، ربّما نبدأ مع الملحوظة الواردة أعلاه، من أنّه في حين تُذكر الآلهة الثّلاثة في لحيان، فإنّهم يستخدمون مناة في الأسماء المركّبة فقط! فنجد أمثلةً عديدةً من الأسماء، مثل: عبد مناة و زيد مناة و تيم مناة، وما إلى ذلك؛ لكنّنا لا نجد مثالاً واحداً من الأسماء مثل: عبد اللّات أو عبد هن-عزّى. وعندما لحظت هذه الخصوصيّة للمرّة الأولى، خلصت إلى أنّ اللّات «إلهة»، وهن-عزّى «القويّة»، كانت مجرّد ألقابٍ لمناة، وقد استندت في هذا الاستنتاج على تأكيد ابن الكلبيّ أنّ مناة كانت الإلهة الأقدمَ الّتي أدّت عبادتها إلى ظهور الأخرى، وهو تأكيدٌ مبنيٌّ على أساس الادّعاء بأنّ أسماء مناة، ظهرت قبل أسماء اللّات أو العزّى، حيث يُظهر تاريخ الدّين، أنّ الصّفات والألقاب المنسوبة إلى الآلهة تميل أحياناً إلى التّطوّر ونشوء كائناتٍ مستقلّةٍ! لكنّ مواصلة البحث أقنعتني بأنّ استنتاجيَ الأوّل كان خاطئاً، لأنّه عندما ظهر اسم اللّات عند اللّحيانيّين كان اسماً صحيحاً، ولو كان لديهم أدنى إدراك لأنّه اسمٌ خاصٌّ أو غير عَلَم لقالوا هن-إلّات، «الإلهة»، كما حوّلوا العزّى إلى هن-عزّى. في حين أنّها وردت فعلاً لَت (l-t).(1)

إذاً فقد كان الاسم عندما ظهر عند اللّحيانيّين اسم علم، ولا يمكن أن يكون لقباً للإلِهة المحليّة (مناة). كما إنّه سيصبح من الواضح ـ كلّما تقدّمنا في البحث ـ أنّه لا وجود لأيّ اتّصالٍ بين العُزّى ومناة، وإنّما يرجع غياب (هن-عزّى و إلّات) عند اللّحيانيّين إلى افتراض أنّ هذه الأسماء هي من أصلٍ أجنبيٍّ (أي غير لحيانيّ).

ليكون السّؤال بعد ذلك: لو كانوا أجانب، فمن أين جاؤوا؟!.

---

(1) كثيراً ما تظهر اللاّت والله في اللّحيانيّة في اتّصالٍ وثيقٍ مع كلمة تسبقها أو أداة فقط؛ إذاً تحذف الألف الأولى دائماً وفقاً للقاعدة العامّة في الهجاء اللّحيانيّ والّتي لا تشير إلى أكثر من ذلك.

وفقاً للنظريّة المقبولة عموماً، وهي الّتي تقول: إنّ اللّات هي تقلّصٌ لكلمة (أل - إلّات) المشتقّةِ من الأصل (أل - إلاهات)، فيجب أن تكون هذه الإلهة قد نشأت بين مجموعةٍ من العرب الّذين تحدّثوا لهجةً تستخدم أداة التّعريف (أل). وتُظهِر أدلّتُنا الأبيغرافيّة أنّها لا يمكن أن تكون مجموعةً في جنوب، أو وسط المنطقة العربيّة، أو الحجاز الشّماليّ، أو شرق الأردنّ، ولا في منطقة الصّفا السوريّة.

فأمّا بالنّسبة للعرب الجنوبيّين فقد استخدموا اللّاحقة (ān) واستخدم الأنباط شرق الأردنّ اللّاحقة الآراميّة (ā)، في حين ذُكر أنّ اللّاحقة (ها) استُخدِمت في المناطق الأخرى جميعها؛ لكن كان هناك منطقةٌ واحدةٌ تمّ فيها استخدام أداة التّعريف (أل)، وهي منطقة سيناء. ووفقاً لستينو (النبطيون، الأول، 61) تُظهر النّقوش النّبطيّة في القرنين الثّاني والثّالث الميلاديّ في سيناء عدداً ملحوظاً من أسماء العَلَم الّتي تبدأ بأداة التّعريف (أل)،[1] وقد استُخدِمت هذه الأداة هناك في وقت مُبكرٍ من القرن الخامس قبل الميلاد، ويبدو أنّ هذا موثّقٌ من خلال كلام هيرودوتس (الثالث، 8) في أنّ عرب سيناء يعبدون إلهةً اسمها إلّات، الّتي هي مجرّد نسخٍ من الكلمة العربيّة (الإلّات)، بمعنى "الإلهة" والصّيغة (إلّات) استُخدمت مثل الصّيغة (إلاهات) حيث تظهر في نقشٍ من منطقة الأحساء (L،Le Muséon، 239-240)، وتجتمع مع الاسم (Aushanilat) وهو ما يعني "هديّة الإلهة". ومن المحتمَل أن تكون الكلمات العبريّة القليلة الّتي استخدمت أداةَ التّعريف (أل) مستمدة من عرب سيناء، لكنّها عُدّت دليلاً على قِدَمِ هذه الصّيغة، وتكاد تحملنا على العودة لما قبل هيرودوتس.

ومن ثمّ فإنّنا إذا اعتمدنا على أصل الكلمة المألوف لكلمة «الله»

(1) لا نجد خارج سيناء أداة التّعريف (أل) إلاّ نادراً؛ في النّقش اللّحيانيّ JS 77، والنّقش النّبطيّ JS 17 (من الحجر، 267 م)، والنّقش الصّفويّ L. 24 (من صلخد).

و"إلّات» على أنّها تقلّصت من الإلّات، «الإلهة» والإله، فسوف نضطر إلى استنتاج أنّ كلّاً منهما قد نشأ بين العرب في سيناء! ومن المحتمل أنّ (يهوه) قد جاء من سيناء، لكنّ عرب سيناء ليسوا بالضّبط ذلك النّوعَ من النّاس الذين يُتوقّع منهم أن يُخرجوا مصطلح الله و اللّات، زد على ذلك، فإنّ مثل هذا الاستنتاج سيكون متعارضاً بالكامل مع التّوزّع الجغرافيّ للنّقوش.

فـلفظ «الله» كما رأينا، لم يتمّ استدعاؤه فعلاً في أيّ نقشٍ نبطيٍّ،على الرّغم من أنّ العديد من الأنباط حملوا أسماء الله، أمّا اللّات، فالأكثريّة العظمى من المراجع الّتي تدلّ عليها، يمكن العثور عليها في النّقوش الصّفويّة من سوريا، في حين أنّ أكثر أسماء اللّات تظهر أبعدَ إلى الشّمال وذلك في النّقوش التّدمريّة، وتشير هذه الحقائق إلى أنّ الموطن الحقيقيّ للإلهة كان في سوريا.

إذا كان الأمر كذلك، فمن المحتمَل جدّاً أنّ اللّات تمثّل انكماشاً للكلمة الآراميّة الإلهة (Allāhetā)، ويكون لفظ "الله" انكماشاً للكلمة الآراميّة (الإله ـ Alleḥā). كما عُرّبت الكلمات من خلال إسقاط لاحقة التّعريف (ā).[1] لقد انتشرت في سوريا عبادة الله واللّات وذلك من حوران باتّجاه الأنباط وسيناء وبني لحيان، وهذا ما مكّن عرب الجنوب من نقل معرفتهم بالإلهة "اللّات" إلى موطنهم في اليمن.

ونجد من ناحية أخرى، أنّ الإلهة العُزّى يمكن أن تكون في الأصل من

---

(1) عدّ ريكمانز (Les Noms Propers Sud-semitiques)، يتبعه نيلسن، الأسماء كأسماءٍ عامّةٍ بدون أداة التّعريف الّتي ترفعها إلى مستوى الأسماء الصّحيحة، فقد حوّل مصطلح الله إلى إله، واللّات إلى إلّات أو لات. لكنّ التّرجمات الحرفيّة اليونانيّة، كما تُهجّأ في العربيّة الإسلاميّة، تُظهر بوضوح أنّ حرف العلّة الأول يُلفظ "a" و ليس "i". أعرف مثالين فقط من التّرجمة اليونانيّة حيث تلفظ "i". لمناقشتي حول الأصل السّوريّ لكلمة الله، انظر مقالتي "الله قبل الإسلام" في العالم الإسلاميّ، XXVIII، ص. 239 و ما يليها؛ و الحظ ملحوظات ليتمان المثيرة للاهتمام عن اللّفظ السّريانيّ لكلمة الله في النّقوش السّريانيّة (منشورات البعثات الأثريّة لجامعة برينستون في سوريا)، 1934، ص. X-XI.

سيناء، فشكلُ اسمها مع أداة التّعريف (أل) يشير إلى ذلك، كما نعلم أيضاً، أنّه قد خُصّص لعبادتها مكانٌ بارزٌ في هذه المنطقة، وقد ورد هذا في مقطعٍ من كتاب جيروم "قصة حياة هيلاريون القديس"، الفصل. 25:

"بمساعدة عددٍ كبيرٍ من الرّهبان، سار إلى مدينة (الخلصة) وكما حدث في يوم الاحتفال السّنويّ عند اجتماع أهل المدينة كلّهم في معبد (فينوس)، هذه الإلهة الّتي تُعبَد على أنّها (لوسيفر) والّتي أخلصت لها أمّة السّاراسيّين". (1)

إنّ كلمة الخلصة، وهي مركز الاحتفال بالإلهة فينوس، قد تكون النّسخة اللّاتينيّة للاسم العربيّ العُزّى. وربّما كان الاسم الكامل للمكان شيئاً من قبيل (بيت العزّى). فإذا كان شرح الاسم صحيحاً، فهذا يعني أنّنا نملك أسساً جيّدةً لتعريف العُزّى مع فينوس، نجمة المساء؛ وعلى الرّغم من إشارة جيروم للوسيفر، لكن يمكن للمرء استخلاص أنّ لها جانباً من نجمة الصّباح الّتي كانت مبجّلةً بشكلٍ خاصٍّ،(2) وهذا يتّفق مع كلام ثيودولس بن نيلوس، في أنّ العرب في سيناء: "لم يدركوا إلهاً لا روحيّاً ولا ماديّاً، ولكنّهم عبدوا نجمة الصّباح"! ويشهد قِدَمُ عبادة (فينوس) في هذه المنطقة على هيرودوتس (i.105) الّذي يقول: "إنّ معبد أفروديت (أي الزّهرة - عشتروت) في أسكالون، كان أقدم معبدٍ لهذه الإلهة".

(1) موسوعة آباء نيقية وما بعدها، السّلسلة الثّانية، المجلد. 6، ص. 309.

(2) الاحتفال الّذي ذكره إيبفانيوس (Panarion، li، النّصّ و التّرجمة من بارتون في Hebraica، 10، ص. 60وما يليها)، والّذي كان يُحتفل به في إلوزا والبتراء والاسكندريّة أيضاً، كان احتفالاً مختلفاً، حيث أُقيم على شرف إله - الشّمس النّبطيّ ذو الشّرى وأمّه العذراء الكعبة. وفي كتاب ويليام روبرتسون سميث، القرابة و الزّواج، ص. 298، عدّهم الشّيء ذاته و لذلك عرّف الكعبة العذراء باللّات، وقد نال هذا التّعريف القليل من الدّعم. كان سميث متأثراً بلا مبرّرٍ بالإشارة إلى اللّات في (CIH ii.185) "أمّ الآلهة"، ولا يوجد لهذه التّرجمة أساس في النّصّ الأصليّ.

في ضوء ما سبق، يبدو من المرجّح أنّ إلّات "إلهة" هيرودوتس، ينبغي أن تؤخذ على أنّها تشير إلى العُزّى، بدلاً من اللّات.

الشّمس والقمر

تلقى النّظريّة السابقة الدّعم من حقيقة أنّه في مقطعٍ آخر (i.131) يقدم هيرودوتس اسم الإلهة الإلّات على شكل (أليتّا)، وهذه قراءة عادةً ما كانت تُعدّ تخريباً لاسم الإلّات تحت تأثير (مايليتّا) السّابقة، لكنّ لها تشابهاً صوتيّاً مريباً مع صوت كلمة (العزّى). ولعلّ التّخريب يعود إلى هيرودوتس نفسِه الذي قد يُعتقد أنّه كشف عن تشابهٍ بين الأسماء العربيّة والآشوريّة للإلاهة.
(1)

لقد أشار الكتّاب السّريان إلى كوكب الزّهرة تماماً بالكوكبة (صيغة المؤنث)، النّجمة المتفوّقة، ويعطي فرانس كومونت (سوريا 1927، ص.368) أدلّةً على أنّ بعضاً من العرب دعاها "كبير" (صيغة المذكّر)، ولكنّ اسمها المعتاد كان في العربيّة (العُزّى الجبّارة) أي ألمع النّجوم.[2] ومع تعريفنا للعُزّى، عرّفنا (رضو) في الوقت نفسه؛ فهناك بعضٌ من الشّكّ في أنّ كلمة رضو هي المرادفة الثّموديّة والصّفويّة للعُزّى، ونحن الآن في موقفٍ

(1) إذا كانت الإلّات هي فينوس، فمن المرجّح أن يكون أوروتلت في نقش هيرودوتس هو اسم الإله الذّكر الذي يُعبد عند السّينائيّين، كإله الشّمس. لأنّه لا يمكن للقمر أن يظهر تحت. كما حاول العديد تزويدنا بأصلٍ مقنع لهذا الاسم (انظر، مثال، ملحوظات كوك في كتاب سميث، الأديان السّاميّة، الإصدار الثّالث، ص. 603)، لكن لم يستطع أحدٌ إيجاد مثل هذا الإثبات. نحن على يقينٍ من شيءٍ واحدٍ، أنّه تمّ الحفاظ على هذا الاسم في مكانٍ ما من التّسميات النّبطيّة. إحساسي أن حرف «L" في الاسم لا يصلح أبداً في الشّكل العربيّ، لأنّنا نبقى أمام جذرٍ عربيٍّ لم نسمع به. و إذا حذفنا "ل" من الاسم أوروتالت، سيبقى (أوروتات) الاسم الذي فيه تشابهٌ كبيرٌ جدّاً مع الاسم الملكيّ النّبطيّ هورستات، حيث اتّخذه الملوك كإله الشّمس.

(2) عدّ ريكمانز العُزّى كآلهة الشّمس (المرجع السابق نفسه، I، ص.26.

أفضلَ بكثيرٍ في سعينا لتعريف اللّات، وتمّ حتّى الآن اقتراح نظريّتين حول هويّتها. أمّا بالنّسبة لروبرتسون سميث (ص.25، قرابة النسب)، وبارتون (الأصول السّاميّة والحاميّة، ص.218)، وديسو (Les Arabes en Syrie avant l'Islam، ص.13)، وريكمانز (Les Noms propres، 1، 3)، فهي فينوس - العُزّى تحت اسمٍ آخر.

وأمّا بالنّسبة لهوميل (Grundriss، ص.149)، ونيلسن (Hundbuch، ص.197، 224)، و بوهل (دائرة المعارف الإسلاميّة، المدخل. ألّات)، وكوك (الديانة الساميّة، رسالة إلى ويليام روبرتسون سميث، الطبعة الثالثة، ص.520)، فهي إلاهة الشّمس. ووَفقاً للنّظريّة الأولى، فإنّ اللّات والعُزّى، هما لقبان مختلفان لكوكب الزّهرة واللّذان تكوّنا في منطقتين مختلفتين (قارن مع فلهاوزن، Reste، ص.4)، لكنّ هذه النّظريّة فشلت في تفسير الحقيقة! لأنّه عندما استُخدم الاسمان في المنطقة نفسها لاحقاً، لم يكن هناك أيّ دليلٍ على أنّهما يشيران إلى الإله الكوكبيّ نفسه؛ ومن وجهةٍ أخرى، نظر ديسو إلى أنّ الآلهة كلّها الّتي تمّ تعريفها مع كوكب الزّهرة قد قُسمت إلى أقنومين: فواحدٌ يمثّل نجمة الصّباح، والآخر نجمةَ المساء، لذا فإنّ اللّات تمثّل واحداً من هذين الأقنومين، وتمثّل العُزّى الأقنوم الثّاني.

ربّما تأثّر دعاة نظريّة «إلاهة الشّمس» بحقيقة أنّ كلمة «الشّمس» في العربيّة، هي مؤنّثةٌ! ولكن لا يمكن أن تكون اللّات إلاهة الشّمس، ويظهر ذلك من خلال النّقش الصّفويّ (DM 513) والنّقش التّدمريّ (Vog. 8 = Cant. V. 8) حيث اللّات والشّمس متمايزتان. وعلى الرّغم من جنس كلمة شمس في العربيّة الإسلاميّة،[1] يبدو أنّ إله الشّمس يعدُّ مذكراً في

(1) من المحتمل أنّ يُعطى لاسم الكائن الطّبيعيّ جنسٌ مختلفٌ عن جنس الآلهة الّتي تسكنه.

المنطقة العربيّة الشّماليّة، بينما هي مؤنّثةٌ في الجنوب، وقد كانت الشّمس بين الأنباط إلهاً ذكراً يُدعى ذا الشّرى فقيل: اللّات ذو الشّرى. ومن الواضح أنّ ذا الشّرى هو إله الشّمس من خلال عبارة إبيفانيوس، وأنّه يُحتفل بعيد ميلاده في الخامس والعشرين من كانون الأوّل، وقد كانت الشّمس بين التّدمريّين مذكّراً أيضاً؛ وفي ضوء هذا كلّه، فإنّه من غير المحتَمَل أن يقترن اسم اللّات مع الشّمس.

قناعتي الشخصية، هي أنّ اللّات كانت إلاهة القمر على أنّه من الغريب قول هذا! حيث لم تُطرح هذه النّظريّة على ما أعتقد إلّا من خلال كوك (نقشٌ ساميّ شماليّ، ص.222)، ولعلّ السّبب في تجاهل هذا الاحتمال إلى حدٍّ كبيرٍ، يرجع إلى الفكرة الخاطئة في أنّ القمر موجود في كلِّ مكانٍ ويظهر كإله مذكّر دائماً.

صحيحٌ أنّ القمر كان يُعدّ مذكّراً في جنوب المنطقة العربيّة، لكنّ هذه الحقيقة تجعلنا نظنُّ أنّه في الشّمال العربيّ ربّما سيكون إلهاً مؤنّثاً، لأنّه يبدو ـ لسببٍ غريبٍ ـ أنّ العلاقة بين الجنسين من الآلهة في المنطقتين تكون متضادّةً دائماً.

سيتمُّ العثور على دليلٍ محدّدٍ في الشّمال العربيّ يؤكّد اعتبار القمر مؤنثاً في الحقائق التّالية:

1ـ واحدٌ من مراكز عبادة القمر الشّماليّة، كان يُدعى سيناء، حيث يتضمّن الاسم بوضوحٍ الصّيغة العربيّة المؤنّثة من (سين)، لكنّي لا أعتقد أنّ أحداً استأثر باستخدام هذه الصّيغة المؤنّثة بشكلٍ كافٍ، لكن إذا عُدّ القمرُ مؤنّثاً في هذه المنطقة، نستطيع أن نفهم: لماذا تغيّر الاسم البابليّ للقمر إلى صيغة المؤنّث؛ ومن ثمّ كان جبل سيناء مركزاً لعبادة آلهِة القمر وليس إله

القمر. كما أنّ محاولة "بارني" لربط يهوا بإله القمر قد حُرِّمت.[1] وقد عرّف جارفيس جبل سيناء بجبل الهلال الذي يبعد ثلاثين ميلاً جنوبَ بئر السّبع، ويُشتقُّ اسم هلال من العربيّة، لكن المرء يسأل عمّا إذا كان لا ينبغي ربطه مع كلمة هلال "القمر الجديد"، وهو الاشتقاق الذي من شأنه تعزيز تعريف جارفيس لهذا الجبل باسم جبل سيناء.[2]

2- يظهر القمر على النّقود في غزّة منذ عام 131 ميلاديّ بعدّه آلِهَةً سمّيت (ايو).

3- تمّ في أعمال التّنقيب الفلسطينيّة العثور على عددٍ كبيرٍ من تماثيل (عشتروت) ذات القرون، لكن كما أشار لي أستاذي وزميلي الأستاذ تايلور، في أنّ هذه ليست صوراً لعشتروت على الإطلاق (باستثناء أنّه لطالما استُخدم مصطلحُ عشتروت كمرادفٍ للآلِهة) لكنّها صورٌ لإلاهة القمر.[3]

لم يكن يوجد أيّ سببٍ لتزويد عشتروت - فينوس بالقرون! ولكن لدينا الأسباب كلّها لتصوير آلِهة القمر معهم، حيث توفّر هذه التّماثيل أدلّةً قويّةً على ذلك، وقد كان يُنظر إلى القمر في هذا الجزء من العالم السّامي كمؤنّثٍ، ويبدو أنّه من المحتمل، أنّ اسم المكان «عشتاروث قَرنايِيم» المذكور في سفر التكوين 14:5 :{وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ جاءَ كَدَرلَعُومَرُ وَالْمُلُوكُ مَعَهُ، وَهَزَمُوا الرِّفائِيِّينَ فِي عَشْتارُوثَ قَرْنايِيمَ. كما هَزَمُوا الزُّوزِيِّينَ فِي هامَ. وَهَزَمُوا الإيمِيِّينَ فِي شَوَى قِرْياتايِمَ} يجب أن يُفهم على أنّه يشير إلى آلِهة القمر، وسمّيت كذلك لتمييزها عن فينوس - عشتروت، وكلمة عشتروت الّتي استُخدمت هنا، جاءت بمعنى "إلاهة"؛ تماماً كعشتار في

(1) تفسير سفر القضاة، ص. 249-253.

(2) كوك، ديانة فلسطين القديمة، ص. 182.

(3) اعتقد لوسيان، الآلهة السّوريّة، ص.4، أنّ عشتروت صيدا هي آلهة القمر. هل هي «عشتروت قَرْنايِيمَ» أخرى؟.

أواخر البابليّة.

بعد أن حاولت تبديد الفكرة القائلة: إنّ القمر كان يُعدّ مذكّراً في الشّمال، اسمحوا لي أن أعرض بعضاً من الحقائق الإضافيّة لدعم تعريفي للّات مع إله ـ القمر:

في المقام الأوّل، سيكون من الغريب جدّاً إذا سجد العرب للشّمس وفينوس (الزّهرة) وتجاهلوا القمر! ونحن نعلم بالطّبع، أنّ عرب الجنوب قد عبدوا القمر، وأنّ السّبئيّين وصفوه بالمقه، وفي مملكة مَعين وُدّ، وعند القطبانيّين عام، وعند الحضرموتيّين سين. ولكن في حال لم نعرف العلاقة بين اللّات و القمر، فلن نحصل على أيّ دليلٍ على عبادة هذا الجسم السّماويّ في الشّمال العربيّ،[1] ولدينا القليل جدّاً من الأدلّة لدعم هذه المعادلة مع القمر من خلال النّقش اللّحيانيّ JS 277 الّذي ينصّ على ما يلي: "هذا عليمٌ سادن (أفكل) اللّات".

هنا فوق اسم اللّات، كُتب اسم إله القمر عند مملكة مَعينٍ وُدّ، ولا يمكن أن يكون هناك شكٌّ في أنّ هذا الإدراج كان متعمّداً، وربّما وُضعت هناك من السادن نفسِه للفت انتباه تجّار مملكة مَعينٍ إلى حقيقة أنّ الإله الذي يُعبد في هذا المزار كان مكافئاً لوُدٍ إلهِهم، حيث كان السادن يأمل بدون شكٍّ في زيادة الرّعاية لمزاره بهذه الطّريقة.

مثالٌ آخر من الأدلّة الّتي تدعم نظريّتي عن القمر، هو أنّه من سمات نصب اللّات الّذي اكتشفه بيير سافيناك في الحجر وعلى جبل رام، وجود قرونٍ ناتئةٍ من كلّ جانب من جوانب الكتلة الحجريّة،[2] فيوحي شكلها

(1) أي، لا يوجد دليلٌ منقوشٌ. على الرّغم من أنّ المصادر الأدبيّة تذكر أسماء قبائل تحمل أسماءً مثل بنو هلال و بنو بدر، إلى آخره، مما يدلّ على وجود عبادة القمر.

(2) انظر الرّسوم التّوضيحيّة لنصب الآلهة في Rev. Bib. XLIII، ألواح XXXVIII، XXXIX، والأشكال 6-7. لنصب العُزّى انظر الألواح XXXVI، والشّكل

الهلاليّ إلى أنّ الإلهة هي "إلهة القمر".

إذا كانت اللّات إلاهة القمر، فيمكننا أن نفهم الآن لماذا ارتبطت عبادتها دائماً مع إلاهةٍ أخرى، ففي المنطقة النّبطيّة ترتبط مع العُزّى، وفي المنطقة الثّموديّة والصّفويّة مع رضو، وكذلك يرتبط القمر والزّهرة (فينوس) في السّماء، لذلك كان ينبغي لها من الطبيعيّ أن تكون مرتبطةً مع الدّيانات النّجميّة على الأرض. زُوّد الدّليل على ارتباطهم في الدّين العربيّ من الآثار العديدة الّتي اتّضحت في كتاب غرومان "Göttersymbole und Symboltiere auf südarabischen Denkmälern"[1]، حيث نرى الهلال ونجم فينوس منحوتين على وجه مذابح، وتجهيزات طقوسيّة أخرى، ويُشهَد على قِدَم هذا الارتباط من خلال الأختام البابليّة الّتي قدّم بعضَها غرومان(ص. 47)؛ كما يَظهر استمرارها لمدّةٍ متأخّرةٍ من خلال بيان أفرام السّريانيّ في أنّ العرب جمعوا "القمر (المحاق) مع فينوس... في الشّارع كما الزّانية! ويسمونه زوجاً من النّساء بين الكواكب".[2]

ونجد الآن أنفسنا في موقفٍ لفهم زوجين من النّقوش السّبئيّة الّتي تمثل مشكلة حَتَّى الآنَ، فالأوّل هو (CIH.548) حيث نجد في (4.v) إشارة إلى إلّات - عثتر، وقد يميل العلماء إلى عدّ اقتران الاسمين هنا إشارةً إلى أنّ اللّات كانت متطابقة مع عثتر، ولكن يبدو الآن أنّ الأكثر احتمالاً ممّا لدينا، هو الإشارة إلى القمر وفينوس (الزّهرة)، وأمّا النّقش الآخر (CIH.557) حيث اسم "عزيز - إلّات" يقع في (العبارتين،2-1، 8-7).

.11-9

(1) نشرت في Denkschriften (Akademie der Wissenschaften in Wien. Philosophisch-Historische Klasse)، 58 Band، 1914، ص. 37-44.

(2) انظر بارتون للنّصّ السّريانّي و التّرجمة، Hebrica، X، ص. 58 وما يليها.

وقد تمّ هنا تغيير الاسم العربيّ الشّماليّ لكوكب الزّهرة، وهي العُزّى، إلى صيغة المذكّر "عزيز" لتتّفق مع فِكَر الجنوبيّين حول جنس هذا الإله،[1] وعلى الرّغم من ذلك فقد سُمح بالاحتفاظ بالاسم المؤنّث الشّماليّ للقمر! ولقد رأينا أعلاه، أنّ اسم اللّات قد وجد موطئ قدم في الجنوب في حقبةٍ لاحقةٍ، ويبدو أنّ القمر والزّهرة اقترنا أيضاً في الشّمال باتّجاه تدمر، حيث نجد إشارةً إلى عشتار - إلّاث.

غير أنّنا لا نعرف إلّا القليل ممّا يتعلّق بطبيعة العبادة المقدّمة لهذه الآلهة! ويقول الكاتب المسيحي أفرام السّريانيّ: "إنّها كانت عبادةً نجسةً تماثل تلك الّتي قدّمها كلدانيّو بابل لعشتار". وأضاف:

"إنّه يعيد تمثيل الآلهة نفسِها [من الواضح أنّها العُزّى] على أنّها الزّانية، والمخلصون لها لا يؤمنون بالزّواج كما تفعل الطّيور، وتمارس العَذْراوات الدعارة بأنفسهن في المهرجانات المقامة لأجلها»، (الشفيع) يسأَلُ أفرام: «أين هي الأعياد البرّيّة، وأجراس الرّنين، وعدم الانضباط، والمزايدات العامّة لدى الكلدانيّين، من الّذي ابتعد بعيدِ الصنم الهائج؛ وفي أي عيدٍ تمارسن العَذْراوات الدعارة بأنفسهن؟!».

كانت الأضحية القربانيّة المعتادة، والّتي قُدّمت إلى الآلِهة بلا شكٍّ هي: نعجةٌ، أو عنزةٌ، أو جملٌ، ولكنّنا نعلم أنّه أحياناً كانت تقدّم التّضحيات البشريّة إلى العُزّى! حيثُ يروي نيلوس كيف استطاع الفَتَى ثيودولس الهروب من التّعرّض للذّبح وتقديمه كقربان لنجمة الصّباح من عرب سيناء، فقد أُسر عندهم، وكان لا بدّ من التّضحية به عند الفجر، ولكنّ العرب ناموا، وهكذا حافظ هو على حياته. وقيل أن المنذر الرّابع من الحيرة،

(1) أيضاً فينوس في تدمر هو مذكّر، يظهر باسم عزيز وأرسو، والصّيغ المذكّرة للعزّى ورضو على التّوالي. للاطلاع على عبادة عزيز في الأديسا ولوسيفير كأحد ألقابه، انظر ويليام روبرتسون سميث، القرابة و الزّواج، ص. 302.

ضحى للعزّى بأربعمئة راهبةٍ قُبض عليهنّ مع نجل الغساسنة "الحارث" الّذي أسره عنده، ومن الواضح أنّ العُزّى أدّت وظيفة إلاهة الحرب من بين أمورٍ أخرى مثل عشتار بابل.

ونحن لا نعرف بصورةٍ مؤكدّةٍ تموقع المزارات الأصليّة لهذه الآلهة، ولكنّ الدّلائل تشير إلى بيت اللّات الذي يقع في سوريا، وبيت العُزّى في سيناء، ومناة في ديدان في الحجاز. وهكذا فإنّ الشّكوك الّتي عبّرنا عنها في بداية هذا المقال عن قِدم المزارات قرب مكّة الّتي ذكرها ابن الكلبيّ... أصبح لها ما يبرّرها، وقد انتشرت عبادة هذه الإلهة من الشّمال باتّجاه الجنوب، وفي نهاية المطاف وجدت مكاناً لها في الحرم المكرس لله في مكّة!. وربّما كانت مناة أوّل من دخل إلى الكعبة، لأنّ لها مكاناً في مراسم الحجّ الوثنيّة.

ولكن مع الوقت تعرّض مركزها للخطر بنجاح من العُزّى، وكانت العُزّى هي الّتي حظيت بأكبر تقديرٍ عند أهل مكّة في زمن محمّدٍ.[1]

هاجم محمّدٌ تعدّد الآلهة السّائدَ بقوّة، اقتناعاً منه بحقيقة المفهوم التّوحيديّ. وقد جاء في القرآن: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (سورة فصلت، الآية 37)، وقال أيضاً: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}(سورة الرحمن، الآية 5-6)، كمثالٍ على حماقة تقديم العبادة للأجرام السّماويّة، وكذلك أخبرهم محمّدٌ عن طريق القرآن عن قصّة إبراهيم، وكيف تمّ إغواؤه ليعبد الشّمس والقمر والنّجوم،[2] ولكنّه في النّهاية أُنقذ من هذا الخطأ عن طريق الله الذي هداه

(1) بخصوص الروايات عن الحمائم المقدّسة والغزلان (الأصناف المصاحبة لعبادة عشتروت) في مكّة، انظر بارتون، Hebrica، X، ص.60 وما يليها. و ويليام روبرتسون سميث، القرابة و الزواج، ص. 229، 244.

(2) الحَظْ أنّ ترتيب ذكر الأسماء هو نفسه كما النّقوش العربيّة الجنوبيّة.

إلى الدّين الحقّ، وهذا يتوضّح من الآية التّالية:

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (سورة الأنعام، الآيات 76-79).

ويورد التّراث عن النّبيّ محمّدٍ في إحدى المرّات ضِمْنَ أوائل أيّام تبشيره، أنّه عندما واجه الاضطهاد الشّديد، وسوس الشّيطان له وأجبره على الاعتراف بوجود وقوّة شفاعة هذه الآلهة الثّلاثة! وقد كان الوحي الحقيقيّ: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ} (سورة النّجم، الآيتان 19-20)، إلّا أنّ الشّيطان أضاف: «تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لتُرتجى»!، لكن سرعان ما تخلّى محمّدٌ عن كلّ حلٍّ وسط مع الوثنيّة، وتمّ إزالة هذا من القرآن[1].

وذات مرّة كان محمّدٌ يجلس بأمانٍ على عرش الحجاز، فقال إنّه اتّخذ التّدابير للتّخلّص من الآلهة المكروهة والمنافسة مع الله في قلوب النّاس، فأُرسل قوّاتٍ مسلّحةً إلى القديد والنّخلة والطّائف، وهدم مقدّساتهم، ثمّ إنّه عندما وصل الثّوار إلى الطّائف توسّلهم أهل المدينة لترك المحبوبة اللّات لمدّة ثلاثة أشهرٍ، أو حتّى لسنةٍ! لكنّ طلبهم رُفض، وشُيّدت منارة المسجد الإسلاميّ في مكان وجود تمثال الآلهة، وهي إشارةٌ واضحةٌ لكلّ الذين شهدوا نصر الله لرسوله. وكانت بداية حقبةٍ جديدةٍ، وربما لا تكون بدأت،

(1) [تعليق المترجِم]: كان القاضي عياض من جملة المنكرين لقصة الغرانيق العلى، فقد قال: "هذا الحديث لم يخرّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل وإنما أولع به المفسرون المؤرخون، المولعون بكل غريب، المتلقّفون من الصحف كل صحيح وسقيم." وقال ابن كثير: "أن أصل الرواية من الصحيح، وقصة الغرانيق مرسلة وسندها غير صحيح.

لأن لدينا باقٍ من الرّاية المقدّسة للوثنيّة العربيّة القديمة، وذلك من خلال الهلال والنّجوم الّتي لا زالت تزيّن الأعلام السّياسيّة للدّول العربيّة!.

كلّيّة الجامعة، تورنتو، كندا / فريدريك فيكتور وانيت

المحتويات

الفصل الرابع: ديانة المشركين في القرآن

باتريشيا كرون

الفصل الخامس: هويّة بنـات الله

كيث ميسي و كيفن ميسي

الفصل السادس: بنات الله

فريدريك فيكتور وانيت